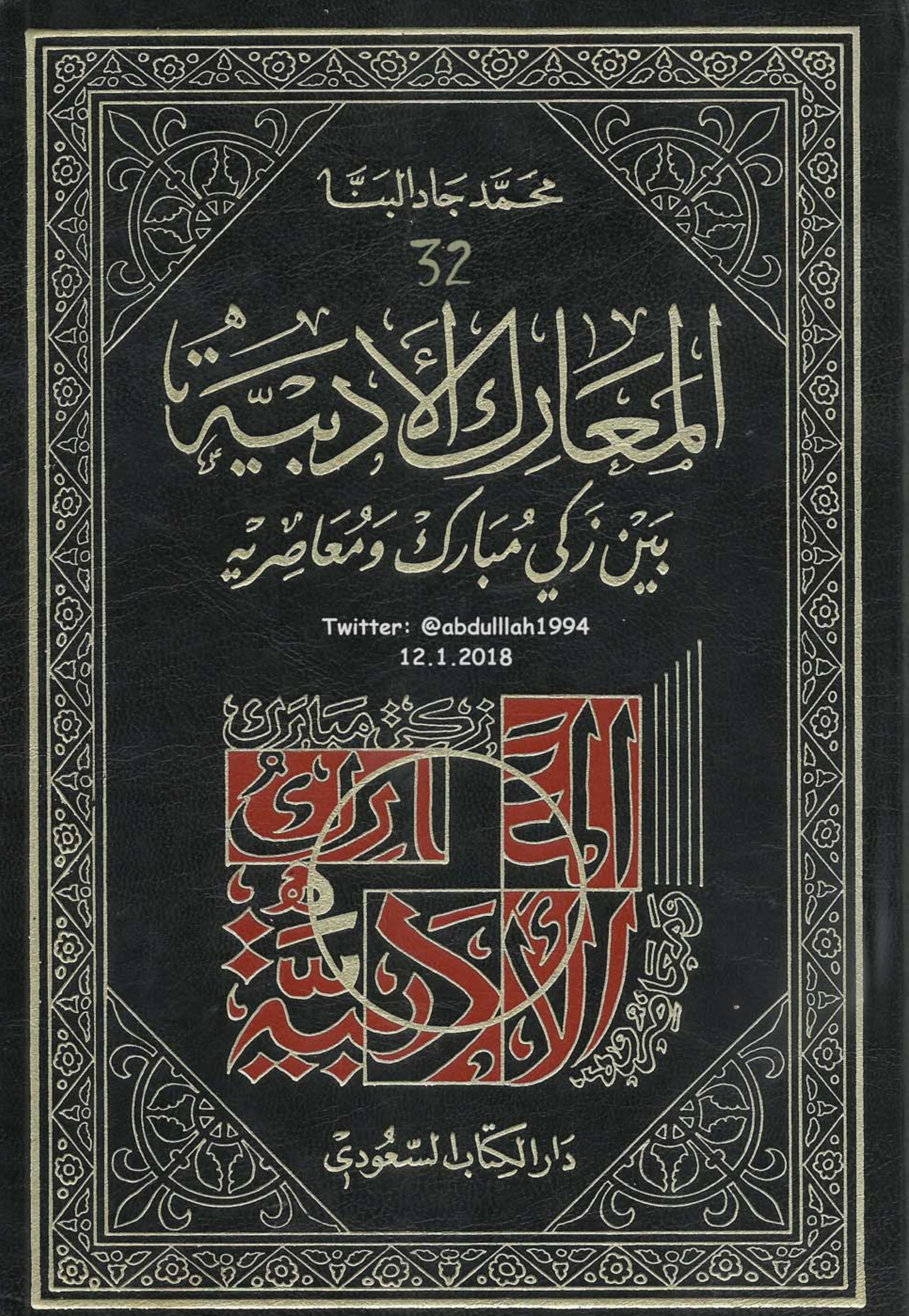
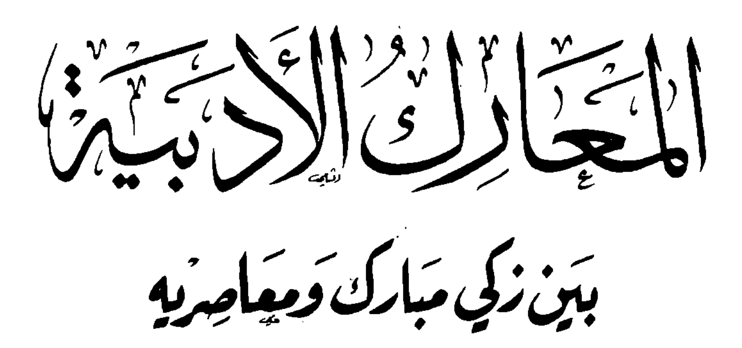

محمد جاد البنا
32
المعارك الأدبية
بين زكي مبارك ومعاصريه
Twitter: @abdulllah1994
12.1.2018
دار الكتاب السعودي

محمد جاد البنا



دار الكتاب السعودي

Twitter: @abdulllah1994

المعارك الأدبية

بين زكي مبارك ومعاصريه

Twitter: @abdulllah1994

جميع الحقوق لهذه الطبعة محفوظة
لمؤسسة دار الكتاب السعودي
الرياض - ص.ب ٤٢٢٤٨

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



الرياض - الملز - قرب الهيئة الملكية للجبيل وينبع
ص.ب ٤٢٢٤٨ الرمز البريدي ١١٥٤١ - هاتف، ٤٧٧٥٩٤٤ - ٤٢١١٤٢ ٢٣

Twitter: @abdulllah1994



Twitter: @abdullllah1994

الإهداء

إلى فيصل ورشا وفوّاز

سنوات العمر،

وخفقات القلب،

وفلذات الفؤاد

م. ج. البنا

Twitter: @abdulllah1994

بسم الله الرحمن الرحيم

مُفتَـتَح

نحمدك اللهم، ونسبح بحمدك، ونصلي ونسلم على خير خلقك وخاتم أنبيائك ورسلك.

اللهم اهـدني إلى الرشـد والسداد، وخـذ بيـدي إلى الـطريق الحق والصواب، وجنبني الخطأ والعثار ووفقني إلى درب الإنصاف والعدل.

أسألك يا رب أن تشرح صدري، وتيسر أمري وتحل العقدة من لساني.

اللهم اجعلني أول المنهومَين اللذين لا يشبعان، اللهم علمني من لدنك علمًا، واجعل اللهم ما علمتني سبيلاً إلى رضاك ومغفرتك ورضوانك. . . إنك على كل شيء قدير. . . وبالإجابة جدير يا رب وفقني بفضلك واهدني سبل الرشاد فقد سألت كريماً.

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdulllah1994

مقـدّمة

بقلم الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي
عميد كلية اللغة العربية ــ جامعة الأزهر

كان زكي مبارك رحمه الله شعلة دائمة الاتقاد، عُرف بنشاطه الأدبي المتصل، وكانت معاركه الفكرية إحدى مميزاته، وهي التي أحدثت له دوياً صَاخِباً بين القراء، وبها نَالَ كثيراً من العداوات القاسية التي حرمتْه أمانيه، وجعلته دائم التوجع والشكوى.

وحين انتقل إلى رحمة الله، نزع نفر من المؤرخين إلى تدوين تاريخه، وفيهم من اقتصر على تسجيل الأحداث وحدها، دون رصـد للبواعث، وتحليـل للنتائج، وفيهم مَنْ وقف موقف الصديق المتسامح يجسّم المحاسن. ويعفو عن الأخطاء، ومنهم من مال مع خصومه عليه فهوى بقدره وأجحف بأدبه، وكل هؤلاء جميعاً قدموا للدارس الجاد رُكاماً من الأخبار والآراء يصلح أن يكون موضع نظر متئد، على أن الدكتور زكي رحمه الله قد تحدث كثيراً عن نفسه، وإخاله بالغ وامتد فأضاف مدداً كبيراً إلى مؤرخيه، ومن واجب الدارس الجاد أن ينظر إلى كلّ ما قيل نظرة الناقد البصير.

وقد اختار الدارس الجاد الأستاذ محمد جاد البنا موضوع المعارك الأدبية التي خاضها زكي مبارك لتكون مجالاً لبحثه المنهجي، وقد أشفقت عليه حين اتجه هذه الوجهة الدقيقة، لأن معارك الدكتور كثيرة، ومتنوعة الأهداف، وقد حملت ركاماً من الأوهام كاد أن يغير وجهة الحقائق، ولكن الباحث الجاد بذل جهده الجاهد ليسبر الغور، ويلج إلى اللباب، وينحّي الضباب، فاهتدى إلى نتائج موفقة. أضافت الجديد إلى ما كُتب عن هذه المعارك، وأزالت شبهات كانت تتكاثف وتتلاحق.

Twitter: @abdulllah1994

ودارس هذه المعارك لا يقف عند دراسة باحث واحد، بل يمتد إلى دراسة جيل حافل بأساتذته وأعلامه، لأن الذين صارعهم الدكتور زكي مبارك كانوا من أعلام العصر، كما كان ميدان الصراع خلاصة ما أنتجه هؤلاء الأعلام من أفكار ذات توجه بعيد في الأدب والسياسة والاجتماع، وفي هؤلاء من عزف عن الرد، ومن خاض المعارك مع منازله، وتحليل ذلك كله يرسم الطابع الأدبي والنفسي لجيل زاهر لم يعرف العصر الحديث أكثر خصوبة وأبعد أثراً، وأغزر رافداً مما تلاطم في بحره من أفكار..

وأنا أعرف هوى الدارس، وأعلم أنه معجب بالدكتور مبارك، وكنت أخشى أن يغطي هذا الإعجاب على بعض الأحكام، ولكنّ ما كتبه الأستاذ محمد جاد البنا دلّ على أنّه استطاع أن يتجرد من هواه الخاص حين وازن بين الرجل وخصومه، إذ نظر إلى المتعاركين نظرات موضوعية، فأنصف من يراه أهلاً للإنصاف، وأنحى باللائمة على من يراه جاوز موضع الحق، وهو بذلك قد انتصر في مجال البحث على ميله الخاص، بل أقول: إن هذا الميل قد ساعد على اجتلاء الحقيقة، لأن الباحث عرفهُ من نفسه فآثر البعد عن عواقبه ونَهَجَ نَهْجَ الاعتدال.

وقد أصاب وجه الحق حين قال في صدق حبيب عن نفسه:

«وقد حاولت بكل ما أملك من رصيد أن أقف من الظاهرة والشخصية موضوع هذه الدراسة موقف المحايد، موقف القاضي الذي يعرف إلى حد ما، ولن أقول عن يقين ــ كيف يدرس الظروف والوقائع والأسباب والحيثيات، التي أحاطت بشخصية الدكتور زكي مبارك ــ كما حاولت ألا أذوب في تلافيف الشخصية التي اخترتها، فلم أتستر على النقائص والتشويهات التي لا تخلو منها حياة البشر وواقع الناس، كما حاولت أن أفرق في موضوعية لا أدعي دقتها المطلقة بين الموقف الوجداني والموقف العلمي المتجرد».

والحق أن الباحث حاول ذلك كلّه، ووصل في محاولاته إلى كثير مما يريد..

Twitter: @abdulllah1994

وأنا أحبّ الباحث الفاضل وأوثره بتقديري الكبير، ولكني مع اعترافي الزائد بسداد الكثير مما اهتدى إليه من النتائج أرغب أن أضيف إلى ما كتبه بعض الملاحظات التي عنّت لي، وهي إضافات يسيرة أرجو أن تجد القبول من صدره الحليم:

١ ــ يقول الباحث: إن الأمر الذي يعجب منه هو أن الدكتور مبارك لم يمكث في العراق غير عام واحد. بينما مكث غيره ممن سبقوه إلى العمل هناك كالزيات وعزام ثلاث سنوات تقريبا، فما السبب يا ترى الذي لم يجعل العراقيين يحرصون على تجديد عقده، وهو الذي ملأ الدنيا تمجيداً للعراق وأهله؟ الحق أن هذا اللغز في حياة مبارك؛ إذا انضم إلى لغز خروجه من الجامعة الأمريكية دون أن يفصح عنها على كثرة ما أفصح يجعلنا في حيرة.

وأريد أن أزيل حيرة الباحث فأقول إن المسألة واضحة لا ترتقي إلى حد الإلغاز، فهو يعرف عن طبيعة مبارك سرعة الإعلان عن كل ما يختلج في نفسه، وما يدور في طوايا أعماقه، وقد ملأ مئات الصفحات حديثاً عن رجال العراق، وفيهم الرسميون من الملوك والأمراء والوزراء، وأجرى على لسان بعضهم ما كان يجب ألا يذاع! وكتاب ليلى المريضة في العراق بأجزائه الثلاثة شاهد على ذلك، ولزكي مبارك طيبة قلب جعلته يعتقد أن تناول أحاديث الرسميين مما يرجح به الميزان الأدل في دنيا الأسماء والأحاديث. ولكنه نسي أن بعض من تحدث عنهم قد لا يسرّه أن يعلن الدكتور ما قاله في مجلس خاص! لذلك قدرت العراق ــ ممثلة في وزارة المعارف ــ أدب الدكتور زكي مبارك فمنحته وسام الرافدين عقب انتهاء عمله العلمي، ولكنها من ناحية أخرى حرصت على أن يكون بمنأى عن بلادها، كيلا يسرف في نشر ما قيل أو ما يتخيل أنه قيل، لأن طبيعة المبارك في تسجيل الأقوال تميل به إلى بعض الإسراف، ونحن نعرف جميعاً أن كلا من الدكتور عبدالوهاب عزام والأستاذ أحمد حسن الزيات أديب ملتزم صموت، لا يتدخل قليلاً أو كثيراً فيما ليس يعنيه ومن هنا طابت لهما الإقامة في بلاد الرافدين إذ لم يسمحا لقلميهما أن يخوضا في غير ما يعنيهما من أمور، ولهذا السبب ذاته حرصت الجامعة الأمريكية على إنهاء عقد الدكتور مبارك، لأن

Twitter: @abdulllah1994

ما كتبه في باب «الحديث ذو شجون» بجريدة البلاغ قد تناول بعض رجالها وأساتذتها بما ظنه الدكتور لا يقع موقع الاستياء، وكان عليه أن يأخذ العبرة من ذلك فلا يقع مرة ثانية في تسرعه، ولكنه استجاب إلى طبيعته، فأباح بكل شيء فيما كتبه عن رجال العراق! وكانت العاقبة متوقعة دون مراء.

٢ ـ يقول الباحث الفاضل تعليقاً على معركة المبارك مع الأستاذ أحمد أمين: إن هذه الضربات التي وجهها المبارك إلى صدره قد نالت منه فجعلته يُسارع بالهروب من ميدان السجّال فينشر في الثقافة مصححاً موقفه متخلياً عن بعض مواقفه فأعلن أنه أراد أن يتحرر الأدب العربي من قيود تثقله، وأن يكون الحكم في أدبنا أذواقنا لا أذواق غيرنا وأن يكون أدبنا معتمداً على شيئين خير ما في الماضي مع ما يتناسب من حاضرنا.

وأنا أرى أن الأستاذ الدكتور أحمد أمين لم يتراجع في شيء لأن ما قرره من هذه الأحكام، هو ما دعا إليه بعينه، ولم يكن سكوته عن زكي مبارك هروباً! بل كان تأديباً له، لأن زكي لم يقف عند حد الحوار الأدبي إذ رد على خمس مقالات كتبها أحمد أمين بردود زادت عن عشرين مقالاً، حشاها بالحديث المستطرد المكرر، غير اللائق عن أخلاق أحمد أمين، وحبّه المال، وسلوكه مع زملائه وأصدقائه وأهله وزاد في هذه الناحية زيادة لا موضع لها من البحث، وكان أحمد أمين في قوله السابق لا يعني المبارك وحده ولكنه يعني كل من اعترض على مقالاته من أمثال عبدالوهاب عزام وعلي النجدي ناصف وعبدالجواد رمضان ممن خاضوا حلبة النقاش! ومن قرأ شطط المبارك فيما خرج فيه عن موضوعه من المنصفين لم يحمد الهجوم على أخلاق باحث كبير قدم بعض الآراء التي عنت له، في أدب والتزام، فكان من حق الناقد أن يكون موضوعياً ذا التزام، ولو فعل ذلك لساجله أحمد أمين.

٣ ـ يقول الباحث إنه لا يرى أنّ زكي مبارك قد انهزم في معركته مع الأستاذ السباعي بيومي، حين انسحب من السجال، فقد انسحب الدكتوران أحمد أمين وطه حسين فلم يكن انسحابهما هزيمة لهما! والحق أن القياس مع الفارق،

Twitter: @abdulllah1994

والفارق الشديد، فطه حسين وأحمد أمين يعلمان مكانهما من زكي، ولم يسمحا لأنفسهما بنقاشه في حرف واحد، فلا يُعدّان منسحبين، أما زكي فقد أشعل المعركة، ودعا السباعي لمنازلته، وحاول الغض منه حين قال إنه يتعرض لمناقشته كما يتعرض الطبيب الكبير لتشريح ضفدعة صغيرة، فلما جد الجد، وأعلن السباعي أنه سينتقد ما صنع زكي مبارك في تحقيق كتاب «زهر الآداب» وبعث بمقاله النقدي فعلاً إلى الرسالة، وخرجت المعركة من الشطح الخطابي إلى المجال العلمي، لما جد الجد وبدأ السباعي هجومه النقدي انسحب زكي مبارك وأعلن بالرسالة أنه استجاب إلى رغبة زملائه في وزارة المعارف، ولكن الأستاذ الشهير سيد قطب ذكر في الرسالة أنه رجع إلى هؤلاء الزملاء فأعلنوا أنهم لم يُبْدوا رغبة في إنهاء النقاش لأنهم يرحبون بالعراك الأدبي، ولكنهم يدعون زكي مبارك إلى الموضوعية لا إلى الحديث الشخصي! ومع تعقيب الأستاذ سيد قطب آثر مبارك السكوت، وجامله الأستاذ الزيات حين أغفل مقال الأستاذ السباعي الأول عن تحقيق «زهر الآداب»! مما كان موضع دهشة القراء من رجل أعلن الحرب وبادر بالهجوم، وذم السباعي ذماً جارحاً، حتى إذا وجد المأزق قد اشتد آثر الفرار وادّعى أن الزملاء قد رجوه!! أجل! دهش القراء من انسحاب المبارك وأنكروه ولكنهم لم يدهشوا من سكوت طه حسين وأحمد أمين لأنهم يعرفون أن الرجلين قد اختطا بإزائه خطة التجاهل! وقد يكون تجاهلهما غير حميد في ذاته! ولكنهما لم يدعواه للنزال كما دعا السباعي في تعاظم لا يليق! هذه خطوات يسيرة أسطرها لأجاذب الباحث وجه الرأي مع اعترافي الصادق أنه قد أحسن كثيراً في ما كتبه عن هذه المعارك، وقد حمدت له رجوعه إلى المعارك ذاتها على تفرقها في أنهار الصحف والمجلات لأن بعض الدارسين يكتفون بما قيل عنها دون الرجوع إلى وثائقها الأصيلة، وفيهم من يقرأ في سرعة ليوجز حديثاً لا يمس اللباب، فعلى هؤلاء أن ينهجوا نهج الأستاذ محمد جاد البنا في تؤدته وشموله، وصبره على العناء! وإذا كان قد اقتصر على معارك زكي مبارك مع معاصريه فإني أدعوه إلى كتابة بحث آخر عن معارك زكي مبارك مع سابقيه، لأن المقاتل الصوال قد خاض معارك كثيرة في كتبه العلمية مع الغزالي وابن العميد

Twitter: @abdulllah1994

والهمذاني والآمدي والجرجاني والصاحب بن عباد وابن عربي والشعراني وأمثالهم ممن خصهم الدكتور بالتحليل، ودراسة هذه المعارك العلمية تضيف الجديد في ثمار الحقل الأدبي، لا سيما إذا كان نفر من الدارسين ممن جاؤوا بعد المبارك قد تناولوا جانباً من هذه الدراسات وعلقوا عليها بما يشاؤون، ولا بدّ من دراسة مستأنية تنظر إلى هذه الآراء بميزان النقد الدقيق.

لقد أبدى الأستاذ البنا علمًا وفيراً وأدباً حميداً، وخلقاً متزناً فيما زاوله من جهد علمي رائع ولم يفارقه هذا الخلق المتزن في ساحة النقاش حين ساجله الأساتذة الفاحصون فيما كتب، إذ واجه الأسئلة القوية بالرد الدارس، وتقبل ما وجه إليه بصدر رحب وابتسام هادىء، وكان قوي الحجة حين تمسك ببعض آرائه التي عارضها مناقشوه دون أن يخرج عن طبعه الهادىء وسمته الرزين.

وإني لأسجل له ذلك راجياً أن يجد في رسالة الدكتوراه منطلقاً فسيحاً لابتكاره العلمي السديد.

محمد رجب البيومي

Twitter: @abdulllah1994

مدخل

كنت معجباً منذ الصغر بزكي مبارك ذلك الذي ملأ الدنيا وشغل الناس زمناً ليس بالقصير (ولد في ١٨٩٢م. وتوفي في ١٩٥٢م) لا لأنه كان قمة من قمم الفكر والأدب والثقافة بين عمالقة الجيل الذي تربينا أدبياً وفكرياً في مدارسهم وبين رياض معطياتهم فحسب، وإنما لأنه كان مثالاً للإرادة الطموح والهمة التي لا تعرف الملل والكلل أو التراجع مهما كانت قسوة الظروف.

كنت معجباً بالرجل لا لأنه كان وما زال يحمل بين طيات كتبه رصيداً ضخماً من التأثير الوجداني المسيطر على أهواء القارىء مهما كانت درجة موضوعيته وتجرده وإنما لأني تبينت على طول معاشرة لآثار الرجل أنه كان صادقاً مع نفسه ومع الآخرين فهو يكشف أمام قارئه ودارسه مخبآت نفسه ظناً منه ــ رحمه الله ــ أن تلك سمة من سمات الأدب الجيد... فهو أقرب ما يكون إلى الواقعية النفسية المغلفة برداء رومانسي شفاف يكاد يفصح ويكشف عن كل ما يستره من أحاسيس ومشاعر.

كنت معجباً بزكي مبارك لا لأنه يغرف من بحر وغيره ينحت في صخر على حد التعبير الشائع وذلك ينبيء عن طبع موات وتلقائية مدهشة، وإنما لأن الرجل كان يمثل ظاهرة منفردة بين عمالقة جيله فهو يخرج من معركة إلى معركة ولا يكاد ينتهي من دراسة شخصية أو ظاهرة حتى يلحقها بأخرى وكأنه لا يود أن يعيش في سلام أو بمعنى أصح لا يود أن يعيش في فراغ، فالفراغ معناه الموت والعدم والرجل كان يود أن يعيش صحوة مستبشرة على الرغم من كل الإحباطات التي كانت تحيط به ــ ومع أني أكاد أقف موقف المتحدي لمن يستطيع

Twitter: @abdulllah1994

الخروج من دائرة التأثير بوجدانيات «مبارك» والتعاطف مع ظروفه غير الطبيعية إلا أنني أعلم أن المعايشة الحقيقية بين الباحث وموضوع بحثه تعطيه من الدلائل والقرائن والحيثيات ما يجعله في موطن ـ لو تجرد ـ المتصدي لإصدار حكم موضوعي قد لا يتوفر لسواه على ضوء هذا الفهم نشأت صلة وجدانية وحدث ترابط نفسي بيني وبين الرجل جعلتني أحاول دراسته وإخضاع ظروفه المعيشية والفكرية للتحليل والمناقشة ورُب معترض يقول: وهل تنهض الصلات الوجدانية والترابط النفسي لتأسيس علاقة علمية بين الشخصية المدروسة وبين الدارس الباحث؟.

ـ لقد وقر في مفهوم بعض الدارسين أن العواطف بما ينطوي في داخلها من سيولة رجراجة لا يمكن أن تكون سبباً معقولاً في المجال العلمي الذي يعتمد على أسس موضوعية وهذا الزعم وإن كان له وجهة نظر فهو ليس سليمًا على إطلاقه فدراسة الشخصيات كما هو ملاحظ أو كما هو واقع، تعتمد أساساً وبنسبة حسابية تصل إلى ٩٠٪ «تسعين بالمائة» على الصلة الوجدانية بين الدارس والشخصية المدروسة وإن كان هذا لا ينفي النظر إلى الاعتبارات الأخرى أيضاً فقد لا نجانف الصواب حينما نؤكد على أهمية أن العلاقة الروحية التي يمكن أن تنشأ بين الشخصية موضع الدرس وبين الباحث لا يمكن أن تكون بالضرورة مثار تعويق لأن يمضي البحث في مساره العلمي الصحيح دون التواء أو انحراف أو تأثر بالسيولة العاطفية الرجراجة التي أشرنا إليها.

فمهما كاد أن يثبت في أذهان بعض الدارسين ـ أن الباحث إنما جاء ليكتب مذكرة دفاع بليغة يدافع فيها بكل حرارة عن الشخصية التي تأثر بها وعايشها واتخذها موضوع بحثه وكأنه كما عبر أحد النقاد عن بعض الرواد «محامي عباقرة» وهنا يبرز أهمية الجانب العلمي وضرورة التجرد الشجاع من تأثير الوجدانيات التي قد تكون في الأصل أساساً من أسس الاختيار ولا بد للباحث المنصف أو المتمرس أن يفرق في وضوح وحزم بين أسس الاختيار وبين الخضوع للمنهج العلمي الصحيح في البحث والتقييم والجلوس على مقعد الحكم المنصف غير الخاضع لأضاليل الهوى.

Twitter: @abdulllah1994

ولقد حاولت بكل ما أملك من رصيد في هذا الجانب ــ أن أقف من الظاهرة والشخصية موضوع هذه الدراسة موقف المحايد. . . موقف القاضي الذي يعرف إلى حد ما ــ ولن أقول عن يقين كيف يدرس كل الظروف والدوافع والأسباب والحيثيات. كما يعبر القانونيون ــ التي أحاطت بشخصية الدكتور زكي مبارك وحاولت قدر ما استطعت ألا أذوب بين تلافيف الشخصية التي اخترتها أو بين ثنايا الظاهرة التي اعتنيت بها فحاولت مثلاً الهروب من منطقة فقدان الوعي بمعنى أني لم أستر على النقائض والتشويهات التي لا تخلو منها حياة البشر وواقع الناس أسوياء كانوا أم غير أسوياء ولقد حاولت ــ كما أسلفت ــ أن أفرق في موضوعية لا أدعي دقتها المطلقة بين الموقفين الوجداني الذي كان سبباً أساسياً من أسباب الاختيار ــ وبين الموقف العلمي المتجرد الذي تحليت به مع أن الرجل ــ كما أشرنا آنفاً ــ يملك رصيداً من التأثر الوجداني جديراً بأن يجعل الباحث أو الدارس في حالة من الغيبوبة العاطفية تعاطفاً مع محنته التي مر بها أو مرت به.

وأيضاً فقد حاولت ــ وبكل ما أملك من رصيد الصدق أن أقف من زكي مبارك موقف المحب المنصف (الواعي بأبعاد الشخصية المدروسة) لا موقف المحب المتخاذل. . . فلم أتقمص شخصيته ــ كما يحدث للبعض ــ ولم أجعل من ظروف محنته معبراً للوصول إلى اقتناعي الذي طرحت تصوراً نهائياً له ــ لقد حاولت بكل أمانة أن أطرح رؤية محايدة ومحددة لا تحيز فيها ولا جور ومن هنا فسيجد الدارس لهذا البحث أني تشددت مع الرجل في بعض المواقف التي رأيت أنها تحتاج علمياً إلى مثل ذلك. ونافحت عنه في بعض المواقف التي رأيت أنها تحتاج إلى تصحيح ودفاع. . . كل ذلك من خلال مواقفه من المعارك والمساجلات الأدبية والفكرية التي خاضها ولا شك أن المعارك في حياة زكي مبارك هي مبارك نفسه أو هي مبارك وقلمه فكتاباته كما هو ملاحظ ــ في العلمي منها ــ تقوم على ركيزتين أساسيتين هما: الدفاع والهجوم.

ومن أسف أن بعضاً ممن لا يملكون وسائل التقييم العلمي السليم ويتطرق إلى أذهانهم أننا بهذا المفهوم إنما نمارس عداء نفسياً أو إسقاطياً أو شخصياً ضد

Twitter: @abdulllah1994

زكي مبارك ما دمنا قد تتبعنا بعض سقطاته ورصدنا بعض هفواته مع أن ذلك نبت الواقع الذي لا يمكن إغفاله أو التغاضي عنه... ومهما حاولنا أو حاول غيرنا أن يخفيه أو يذود عنه رياح النقد وسهام الناقدين فلن يملك أبداً اجتثاث هذه الجذور أو تغيير الواقع أو الهروب به من حيز المتطور التاريخي...

ومن أسف أن بعضاً ممن يخضعون للتأثير العاطفي بسبب صلات القرابة أو الصداقة لبعض الشخصيات المدروسة يظنون خطأ أن آباءهم أو إخوانهم أو أصدقاءهم في موطن القداسة التي لا يجوز أن تمس وهذا وهم قد ينهض أو يحسب في رصيد الحب القائم على غير هدى ولكنه لا يمكن أبداً أن يحسب في رصيد الحب القائم على مواكبة الحقائق ومعايشة الواقع والخضوع لأحكام التاريخ.

ومع أن هذا الموضوع قد تفرق فيها كتب غيري فقد لمست بعض جوانب الخلل الموضوعي الذي يسيطر على ملامح «المعارك الأدبية» التي هي أولاً وأخيراً مثار أخذ ورد، ومثار نقاش وخلاف بين وجهات نظر متعددة مما يجعلها تحتاج إلى تجلية مهما تعدد الدارسون وتكاثر الباحثون ولست بهذا أزعم أني الوحيد بين كوكبة الدارسين للمعارك الأدبية بعامة أو لأدب زكي مبارك وحياته بخاصة الذي جاء ليصلح ما اعوج فما أنا سوى واحد من بينهم يقدم اجتهاداً علمياً يخضع ككل مجهود بشري لمقاييس الصواب والخطأ موقناً أن هذا الجانب في تاريخ أدبنا سيظل بحاجة إلى دراسات عميقة وموضوعية تكشف عن أسراره وبواطنه وذلك ليس بهدف الرصد والتجلية وحدهما أو بهدف التحليل وحده... مع أن ذلك وارد ومطلوب ــ وإنما بهدف فض الاشتباك (إن جاز هذا التعبير) بين كثير من المفاهيم والقضايا التي تناولتها المعارك والتي عني بعرض جانب أو نموذج منها الباب الأول من هذه الدراسة فقد اختلطت هذه المفاهيم واشتجرت الرؤى واعتصم كل فريق بما كوَّن من رأي، وبما اختار من مواقف ظناً منه أنه وحده على الصواب وأن غيره على خطأ مبين... فما زالت بعض القضايا التي دار حولها النقاش والعراك والمساجلة بين جيل الرواد (الجيل الماضي) قائمة حتى

Twitter: @abdulllah1994

الآن أو هي على الأقل متمددة الجذور في أعماق ثقافتنا المعاصرة. . . فهناك (مثلاً) من يزعم أن الثقافة المصرية الحالية تمت بسبب أو بآخر إلى ثقافة حوض البحر الأبيض المتوسط[1] كما أن هناك من يروج لظاهرة البلاغة العصرية وضرورة التخلص من الوسم التراثي في الثقافة العربية زاعمين أن ذلك مما يعوق المسيرة ويحول دون اندفاعها. . بل يعوق مسيرة النهضة أيضاً وذلك كله وإن خفت إلى حد ما لم ينته انتهاء كلياً ما دامت الثقافة العلمانية «تفرض نفسها من خلال أجهزة التوصيل والتأثير والمتابعة ولا شك أن ذلك مما يؤثر طرداً في أذهان كثير من شباب الجيل الحالي ويؤثر عكسياً على الرصيد التراثي لثقافتنا المعاصرة».

فإذا أضفنا إلى جملة ما سبق سبباً ثالثاً يتلخص في أن المعارك الأدبية والمساجلات الفكرية التي خاضها زكي مبارك تحتاج إلى تصحيح وتصويب بعد أن خاض في مضمارها بعض الباحثين غير المتجردين فأصدروا أحكاماً غير صحيحة نجد أن مناقشة المعارك ما زالت تشكل أهمية قصوى لدى الدارسين. هذا إلى جانب أن حياة الرجل (زكي مبارك) حياة خصبة وحافلة بالجهاد والسعي والعمل الدؤوب والأمل الطموح مما يؤهلها لأن تكون صورة صادقة من صور الكفاح الحيوي والعلمي، وملمحاً مشرقاً بين ملامح النضال الشريف في سبيل طلب المعرفة من مختلف مصادرها مهما كان الثمن مرهقاً والنتائج غير مرضية وزكي مبارك كما قال عنه «الأستاذ أحمد حسن الزيات» من القلال الذين حفروا حظهم في صخر الوجود بإزميل العمل والصبر.

ولا خلاف أنه إذا تيسر عرض ذلك بصورة مشرقة وأداء مناسب على أذهان الشباب يظفر بمغنم مؤكد فالنموذج الصالح فكرياً وحيوياً يغني عن النموذج الرديء وهو الذي تهتم به للأسف أجهزة التوصيل والتأثير والمتابعة.

* * *

(١) تنظر معركة النزعة اليونانية في هذه الدراسة ص ٧٧.

Twitter: @abdulllah1994

وهنا نكاد ننتقل إلى قضية أخرى تتعلق بزكي مبارك.. «الإنسان.. والمعارك» ذلك الذي لا يكاد يسلم القارىء من السيطرة النسبية والتعاطف الوجداني.. حينما يقرأ له في الطبعة الأولى لكتابه «الأخلاق عند الغزالي» ـ لحث رسالة الدكتوراه الأولى التي نالها من الجامعة المصرية القديمة ـ ثلاثة أبيات من شعره وضعها أسفل صورة له مهوشة الشعر زائغة النظرات فيها من الإرادة والصلابة والطموح أكثر مما يبدو على وجه صاحبها من الطيبة والسماحة وعدم القنوط.. لقد كتب الرجل وكان ذلك في مطالع حياته العلمية والأدبية:

إن يبدو رسمي ضئيلاً.. كالبدر عند المحاق

فذا لأن الليالي وما لها من خلاق

صيرنني في بلادي غضنفراً في وثاق

معنى هذا أن الرجل بدأ حياته ثائراً على ما هو فيه من أوضاع وظروف حولته إلى «أسد مكبل» بقيود كثيرة حتى لو كانت هذه القيود وهمية أكثرها (من وجهة نظره) ينطوي تحت قائمة «الأعراف والتقاليد» التي تمرد الرجل على الكثير منها ـ كما يتضح من خلال دراسة حياته دراسة متأنية.. وهنا نقف لنتساءل.. ولماذا التمرد؟.

ـ يبدو أن الرجل ـ يرحمه الله ـ افتقد جزءاً غير قليل من العطف والحنان في مطالع حياته جعلته يلتمسه في صورة أخرى لدى أحد أساتذته (الشيخ سيد بن علي المرصفي) ممن هشوا له ورحبوا به وأعادوا إلى نفسه صفاء الحب والتقدير.

إلا أن ذلك للأسف لم يستمر طويلاً فقد نشبت الثورة وانخرط زكي مبارك في غمارها إلى أن تلقفه المعتقل بعد مطاردة مثيرة حدثنا هو عنها في أحاديثه ذوات الشجون.

وهكذا فبدلاً من أن يلقى من مجتمعه التكريم والعناية وجد أبواب

Twitter: @abdulllah1994

السجون ومطاردات كلاب الحراسة.. حراسة الاستعمار الانجليزي بوجهه الأحمر البغيض وترك ذلك أثره وترديه في نفسية الشاعر الأديب العالم الذي كان يتطلع إلى أن يعرف قومه فضله.

ثم ترك الأزهر بعد أن التحق بالجامعة المصرية واستقامت له الحال هناك فلم يجد هناك غير الصد ومحاولة تقليم الأظافر.. ثارت مناقشة حامية بينه وبين لجنة الحكم على الرسالة الأولى للدكتوراه وكان قد اشتط في بعض الأحكام التي أصدرها على الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ وكادت تعصف به اللجنة عصفاً شديداً لولا عناية الله ورفق بعض أساتذته به.

ومرة أخرى يرتد الرجل إلى قوقعة الذات ليجد نفسه في موقف انفرادي أشبه ما يكون بالمنتمين إلى ذلك المنزع الوجودي فيصاب بلون من ألوان «النرجسية» جعلته يعشق ذاته عشقاً مبدئياً ثم يتمادى هذا العشق ويتواصل كلما حزبه أمر ولم يجد التقدير من قومه.

ثلاث رسائل للدكتوراه إحداها من السربون في باريس أزهى جامعات الدنيا في ذلك الحين إلى جانب طائفة من المؤلفات بعضها بغير العربية وسيل غامر من المقالات والدراسات الأدبية والفكرية في بطون الصحف ثم لا يجد من قومه التقدير والعطف والرعاية كما كان يشتهي بل على العكس يجد من يتصدى لأحلامه الزاهرات فيطفىء وهجها ولعل الذي ينظر بإمعان إلى معركته الكبرى مع الدكتور طه حسين تلك التي أطلق عليها بعض النقاد معركة «لقمة العيش» وما صحب هذه المعركة من ظروف مهدت لها وأعانت عليها كطرده من الجامعة بعد أن عمل بها حيناً من الدهر.. ومثل مطاردته في وزارة المعارف فلم يتقلد بها منصباً مرموقاً كما كان ينبغي أو كما كان يريد.. كل ذلك أو بعضه ترك من وجدان الرجل مرارة جعلته يهتف من أعماق الذات قائلاً.. أنا الدكاتره زكي مبارك.. أنا لكم جميعاً.. أنا ابن جلا وطلاع الثنايا.. أنا الرجل الفحل الذي تعرفونه.. سأصليكم ناراً حامية.. سأكشف مستور ثقافاتكم المغشوشة وأعري بقايا أخلاقكم المذمومة. وأصنع ـ وأصنع إلى آخر الدعاوى التي كشف

Twitter: @abdulllah1994

عن بعض حقائقها فعلاً لا قولاً والتي توهم أو زعم وجود بعضها الآخر دون ركائز من واقع حقيقي تستند إليه.

ولعل ذلك مما يذكرنا بالشاعر الذي سئل كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت والله أظرف الناس، وأشعر الناس، وآدب الناس! فقال السائل: «هلا سكت حتى يقول الناس ذلك» فكان الرد الساخر والذي يحمل في طياته أوجاع العمر.

ـ أنا منذ ثلاثين سنة أنتظر أن يقولوا وليسوا يقولون هل قال مبارك لنفسه ما أنكره أو حجبه عنه الآخرون؟

ذلك بعض ما جئنا لنتبينه من خلال معاركه التي اشتبك مع بعض خصومه فيها بحد السيف وقفاز الملاكم.

ويحسن بي قبل أن أنتهي من هذا المدخل أن أشير في إيجاز إلى جهود الذين شاركوني الاهتمام بدراسة زكي مبارك: (رجلاً وآثاراً واتجاهاً) ممن تبين لهم كما تبين لي أنه جدير بإلقاء الأضواء الكاشفة على حياته وأدبه ومواقفه... ويعد الأستاذ أنور الجندي في طليعة الذين درسوا حياة زكي مبارك في كتابيه «زكي مبارك دراسة تحليلية لحياته وأدبه»[1].

ثم عاد إلى رصد معظم معارك مبارك في كتابه الرائد «المعارك الأدبية»[2] وكذلك فإن دراسة الأستاذ فاضل خلف «زكي مبارك ـ بين رياض الأدب والفن»[3] تعد من بواكير المؤلفات التي تناولت حياة وأدب زكي مبارك.

ثم دراسة الأستاذ عبدالرازق الهلالي عن «زكي مبارك في العراق»[4] وكذا

---

(١) سلسلة مذاهب وشخصيات العدد ٣٥ الدار القومية للطباعة والنشر مصر (بدون تاريخ).

(٢) مكتبة الأنجلو المصرية.. القاهرة (١٩٨٣).

(٣) مكتبة الآداب ـ القاهرة (١٩٥٧).

(٤) المطبعة العصرية للطبع والنشر ـ بيروت ـ (١٩٦٩).

Twitter: @abdulllah1994

مؤلف محمد محمود رضوان في كتابه «صفحات مجهولة في حياة زكي مبارك»[1] وإن كانت تغلب على كثير من المؤلفات السابقة النظرة العاجلة، والصبغة التجارية إلا أن لبعضها فضل السبق والريادة.

مما جعلها مرجعاً لكل من الباحثين أو لمعظمهم على الأقل ـ الذين درسوا «زكي مبارك» ـ.

دراسة واعية وعميقة إلى حد ما... أما في مجال الدراسات الأكاديمية فنجد دراسة محمود الشهابي «زكي مبارك» ـ دراسة نقدية»[2] ونجد رسالة عبدالصبور ضيف «زكي مبارك حياته وأدبه»[3] ودراسة العربي حسن درويش بعنوان «زكي مبارك شاعراً»[4]... وأخيراً دراسة محمد عبدالحكيم عبدالجليل «زكي مبارك صحفياً»[5].

* * *

● بقي أن نشير إلى مسألة يجب التوقف قليلاً عندها... تلك هي خاصية الأداء من حيث غلبة الأسلوب الأدبي وتسلل الطابع الوجداني في أحايين كثيرة إلى ثنايا الدراسة العلمية... ومع أن هذا يعد معيباً في رؤية الكثيرين إلا أني رأيت وما زلت أرى أن الدراسة الأدبية لا يعيبها إطلاقاً أن تكتب بأسلوب أدبي... وإلا فقدت عنصراً من عناصر حيويتها وتداخلت مع غيرها من الدراسات غير الأدبية... ومعذرة إذا كنت أرى البون الشاسع والفرق الهائل بين دراسة جافة في علم الاجتماع أو التربية (مثلاً) وبين دراسة أدبية هيئت أساساً لدراسة قضية أدبية تتعلق بفارس من فرسان مدرسة الإشراقة البيانية.

---

(١) كتاب الهلال ـ العدد ٢٨٦ القاهرة (١٩٧٤).

(٢) دراسة باللغة الانجليزية نال بها صاحبها درجة الدكتوراه من جامعة اكسترا بانجلترا عام (١٩٨١م) وطبعت عام (١٩٨١).

(٣) رسالة دكتوراه ـ كلية اللغة العربية جامعة الأزهر (١٩٨٠).

(٤) رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة عين شمس (١٩٨٣).

(٥) رسالة ماجستير كلية اللغة العربية جامعة الأزهر (١٩٨٤).

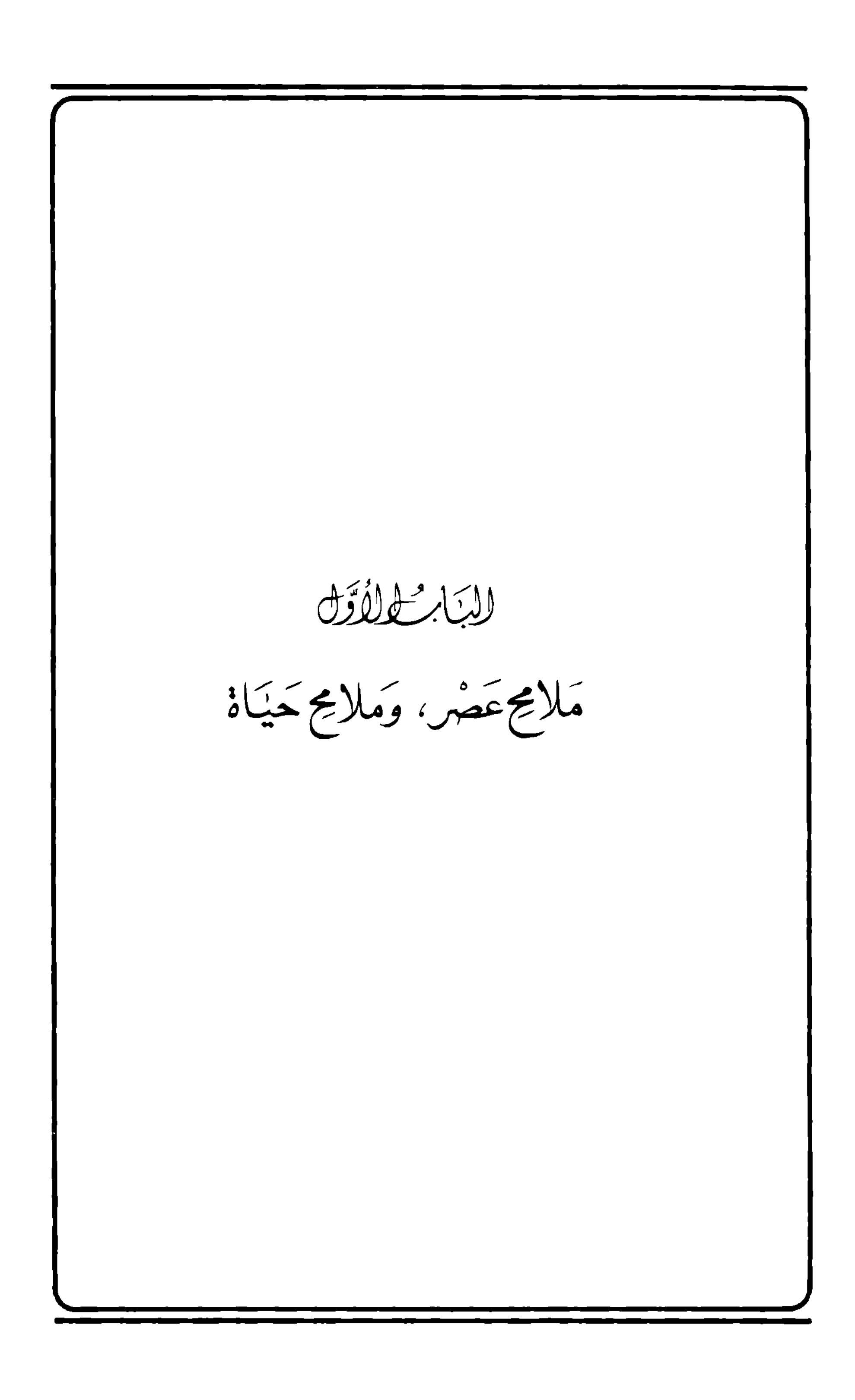
Twitter: @abdulllah1994

وفي النهاية فإني أحمد الله الذي جعلني لا أشكو عنتاً ولا إرهاقاً ما دمت أسأل الله سبحانه أن يقوي ساعدي، ويشد عضدي ويوفقني إلى ما فيه رضاه فهو وحده المستعان.

محمد جاد البنا

الرياض: في غرة المحرم ١٤٠٦هـ
الموافق سبتمبر ١٩٨٥م

Twitter: @abdullllah1994



البَابُ الأوَّل

مَلامح عَصْر، ومَلامح حَياة

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdulllah1994

ملامح العصر الثقافية

١ ـ لم يكن زكي مبارك بـدعاً وحده في إثارة المعارك الفكرية والأدبية بين أبناء جيله فقد كانت المعارك سمة من سمات العصر ـ تقريباً ـ وإن كنا نستطيع التأكيد على أن «زكي مبارك» تميز دون غيره من كتاب جيله بوفرة معاركه، وخصوبة إنتاجه في هذا اللون من أدب العراك.. وهذا ما لا يمكن إغفاله عند التأريـخ الأدبـي لهذه الفترة الزمنية (النصف الأول من القرن العشرين) ويجدر بنا أن نلقي نظرة عاجلة على مجمل الحياة الفكرية والأدبية في فترة ما بين الثورتين.. ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢م فهي وحدها التي تعنينا من حيث تمثيلها للحقبة الزمنية التي نضج فيها قلم وفكر زكي مبارك واستطاع خلالها أن يتحمل التبعة، وأن يدير رحى معاركه في قوة واقتدار باستثناء ما شاب الفترة الأخيرة من حياته (نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات من هذا القرن الميلادي) من ضعف واندحار سنتعرض له في حينه.

٢ ـ لقد دأب المحتل (الإنجليزي) منذ سيطر على البلاد يحارب أهلها بالكلمة والخبر قبل أن يحاربهم بالرصاصة والقنبلة، ذلك أن الغزو الفكري يمهد الطريق دائماً للغزو السياسي والعسكري ويساعد عليهما.. وقد دأب الاستعمار الإنجليزي وغير الإنجليزي مذ سيطر على مصر والبلاد العربية الأخرى في بث سمومه الفكرية وأراجيفه السياسية الخبيثة.. فهو يغري بعض الكتاب من أفذاذ الجيل ومن غير أفـذاذه بالخـلاف والاختلاف حـول أصول الآراء العلميـة والأدبية.. الفكرية والثقافية عن طريق غير مباشر حيناً ومباشر حيناً آخر ساعد على ذلك عاملان:

Twitter: @abdulllah1994

الأول: ما كان يملكه المستعمرون الغربيون ـ حينذاك ـ من وسائل الاتصال الحديثة والتي كانت البلاد العربية تفتقر إليه وتتطلع نحوه في انبهار وإعجاب.. ومعروف سلفاً أن من يملك وسائل الاتصال التأثيرية يملك أداة الغزو الثقافي والعكس أيضاً صحيح.

الثاني: الوظيفة التي كانت تؤديها دور النشر بما كانت تحمله من وجهات عربية بينما هي في أغلبها غير مصرية فهي تصرف الناس عن تراثهم وقيمهم، بل وهي تغري الكتّاب والأدباء بذلك، ومن غير الكتاب والأدباء يستطيع غرس القيم وتقريب مفاهيم التراث وتقديمه للناس؟.

٣ ـ حينما شبت ثورة ١٩١٩م واكبها ازدهار أدبي وفكري بل ومهد لها أيضاً، واستمر أعلام الأدب ورواد الفكر يحتلون القمم العالية في الحياة الفكرية والأدبية طوال هذه الفترة ـ فترة ما بين الثورتين (١٩١٩ ـ ١٩٥٢م) وإن كنا لا نستطيع في مجال الفكر والأدب والفن أن نحدد المدة الزمنية تحديداً صارماً ـ ومن ثم فسنكتفي باعتبار الوجهة التقريبية.. إلا أننا نستطيع الجزم بأن ازدهار الأدب والفكر إبان هذه الفترة مكن من الإرهاص والتبشير بما حدث ليلة الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢م من تغيير في حياة مصر.. لا مصر وحدها وإنما المنطقة العربية كلها تقريباً.

ونستطيع في إيجاز أن نلخص السمات والملامح الأدبية لهذه الفترة بما يلي[(١)]:

□ **السمة الأولى**: إجلاء التراث الإسلامي والعربي وصوغه بصورة جذابة كما فعل طه حسين والعقاد وهيكل بما قدموه من دراسات عن التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية.

---

(١) استقيت معظم معلومات هذه الملامح من بحث مخطوط للأستاذ محمد سيد محمد قدم للمسابقة الأدبية لمجمع اللغة العربية في مصر عام ٦٧ تحت عنوان مجلة الرسالة ١٩٣٣ ـ ١٩٥٣م.

Twitter: @abdulllah1994

□ **السمة الثانية**: ارتباط الأدب بالسياسة دائمًا، وارتباطه بالحزبية أحياناً إن لم يكن في معظم الأحيان.

□ **السمة الثالثة**: التجديد الذي ارتبط إلى حد كبير بكل ركن من أركان الحياة الثقافية ويكفي أن نضرب المثل بمدرسة الديوان ومدرسة أبولو[1] وظهور أثر المهجرين.. كما ظهرت الدعوة إلى إعادة النظر في دراسة اللغة العربية.

□ **السمة الرابعة**: عدم التخصص بين الأدباء.. فلقد عبر معظم أدباء تلك الفترة عن أفكارهم في أشكال فنية مختلفة من شعر وقصة وبحث ومقال وترجمة ورواية.. كما كانوا في أغلب الأحيان أدباء وسياسيين، ومعلمين للشعب، وزعماء للإصلاح.. كل ذلك في إطار واحد.

□ **السمة الخامسة**: تغلبت الترجمة على التأليف في الربع الأول من هذا القرن بينما تغلب التأليف على الترجمة في الربع الثاني عندما ظهرت طائفة من الأدباء تناولت بأقلامها بعض الفنون التي كانت وقفاً على الترجمة كالقصة والرواية والمسرحية.

□ **السمة السادسة**: رواج الكتاب العربي في تلك الأثناء.. وكان للحرب تأثيرها المباشر في هذا الرواج لضآلة حجم الصحف وقلتها، وضآلة الوارد من الكتب الأجنبية ولزوم الناس بيوتهم في أغلب الأحيان.

□ **السمة السابعة**: ظهرت مدارس أدبية مميزة واتجاهات فنية مختلفة مثل مدرسة الفن للفن ومدرسة الفن للجميع، ومثل المدرسة الانجليزية في الفكر والأدب والتي مثلها العقاد وشكري والمازني ومحمد خلف الله أحمد ومحمد فريد أبو حديد وغيرهم ــ والمدرسة الفرنسية في الفكر والأدب ومثلها طه حسين ومحمد حسين هيكل والزيات وزكي مبارك ــ والحكيم وغيرهم غير أن هذه المدارس لم تفقد أي أديب أو مفكر شخصيته الخاصة وإن كان ولا بد أن تغلب إحدى المدرستين على الأخرى لغلبنا المدرسة الفرنسية لأنها هي التي سادت في ظل الاحتلال رغم

(١) يمكن أن يغير بمصطلح «اتجاه» من «مدرسة» وقد أطلقنا مصطلح مدرسة تجاوزاً.

Twitter: @abdulllah1994

اختلاف الثقافة وتغير الطابع، حتى أن الزعماء السياسيين أنفسهم كانوا ممن تأثروا بالثقافة الفرنسية «مصطفى كامل ــ محمد فريد ــ سعد زغلول».

□ **السمة الثامنة**: وهي المعبر عنها ببداية مرحلة جديدة في الأدب العربي بعد الحرب ــ في الشكل والمضمون ــ ولقد تجلى في هذه المرحلة الاستقلال والثقة بالنفس، وتجلى هذا الاستقلال في التحرر من القديم وعدم سيطرة الجديد ــ أو لنقل بتعبير أدق الصراع بين القديم والجديد ويمكن تسمية ذلك ببروز الشخصية المصرية للأدب ولعل بروز مظاهر الشعور بالثقة جعل أديباً مثل زكي مبارك يقول: «ماذا نصنع لنكون منتجين لا مستهلكين لأهل الغرب في الحياة الفكرية؟.. هل نترجم لهم ما يصدر عن أدباء مصر من الروائع؟ هل نستجديهم الاطلاع على أدبنا؟».. إنه يوفق بين ذلك ويذهب إلى الاعتزاز بالذاتية العربية ومحاولة خلق جبهة أدبية من قراء الغرب، وبذلك يلتفت الغرب إلى الشرق ويكون لنا في حياة الفكر والرأي تاريخ مجيد.. ثم هو يستنكر الغطرسة التي يتمتع بها بعض أدباء الغرب والمجاملة التي يحيطهم بها بعض المتفرنجين ويقول: «إنني أنتظر مساجلة دولية يشترك فيها أدباء مصر مع أدباء الفرنسيين والانجليز والأمريكان والألمان ليعرف العالم القديم والجديد مكانة مصر في فردوس الأحلام والقول»[1].

□ **السمة التاسعة**: انتعاش النهضة الثقافية والأدبية على صفحات الصحف بوجه عام فقد نشرت تلك الصحف في ذلك الحين فصولاً من الكتب الثقافية كما نشرت مساجلات أدبية ومذهبية.

□ **السمة العاشرة والأخيرة**: المحاورات والمعارك الأدبية وهذه هي التي تعنينا.. لقد كان الأمر ــ كما سبق أن بينا ــ يعود في جوهره إلى تعدد المعسكرات السياسية من ناحية وإلى اختلاف المذاهب الأدبية من ناحية أخرى.. ثم هو في البداية والنهاية يعود إلى طبيعة الأدباء والمفكرين الذين اعتصموا في فترة النهضة بأقلامهم وآرائهم فوقفوا دونها ودافعوا عنها.. وكل يعمل على شاكلته.. وحينما

---

(١) مجلة «الرسالة» العدد ٥٢٣، ١٩٤٣م.

Twitter: @abdulllah1994

نقرر في وضوح أن فترة ما بين ١٩١٩ ــ ١٩٥٢م كانت من أغنى الفترات ازدهاراً في تاريخ الأدب المصري خاصة، وذلك لوفرة وتنوع المعارك الأدبية والفكرية ــ لا نتعدى الصواب ولا نخالف الحقيقة ولو شئنا أن نضرب الأمثال لأعيانا ذلك.. فمعارك هذه الفترة أكثر من أن تحصى.. ففي مجال الأدب والثقافة (مثلاً) اشتعلت بعض المعارك بين الشباب والشيوخ[١] ثم معارك أخرى بين الشيوخ أنفسهم ــ يمثل ذلك ما نشر في جريدة «البلاغ» عام ١٩٤٣م عندما هاجم المازني طه حسين بعد نقد الأخير لديوان عزيز أباظة «أنات حائرة»[٢].. وكما حدث عندما دار السجال حول النقد الذاتي والنقد الموضوعي بين أحمد أمين وطه حسين.. وعلى صفحات الرسالة تشتعل معارك متعددة حول مواضيع وقضايا مختلفة.. مرة حول التراث كالذي كان بين زكي مبارك والسباعي بيومي، ومرة حول مستقبل الثقافة في مصر كالتي كانت بين طه حسين وساطع الحصرى وزكي مبارك ومحمد كامل حسين، ومعركة النثر الفني.. وهي من أقسى المعارك التي خاضها زكي مبارك عندما اشتبك الدكتور محمد أحمد الغمراوي ــ رحمه الله ــ معه في السجال[٣] حتى أن الأستاذ توفيق الحكيم يضج من هذا الصخب فيكتب في الرسالة عام ١٩٤٢م داعياً إلى الصفاء بين الأدباء.. وما يكاد يظهر هذا القول على صفحات الرسالة حتى تشتعل معركة جديدة بينه وبين العقاد وزكي مبارك والزيات فيسكت الحكيم يائساً ويرى أن لاصفاء بين الأدباء.. ويكتب الأستاذ دريني خشبة في «الرسالة» مقالاً بعنوان «أعصابكم أيها الأدباء»[٤] يقول فيه: «إن ــ الحكومة مسؤولة عما شجر من الشر بين الأدباء؛ لأنها مقصرة في حقهم فهي لم تدبر لهم مصيفاً جميلاً في رأس البر».. ثم يقول: لهذا خلا الأدباء إلى شياطينهم وفرغوا إلى أنفسهم.. فهم ينقسمون إلى معسكرين: معسكر الشباب، ومعسكر الشيوخ.. ومعسكر الشباب

---

(١) تنظر في ذلك مجلدات مجلة «الثقافة» لأحمد أمين.

(٢) تنظر هذه المعركة في فصل المعارك من هذا البحث ص ١٢٧.

(٣) تنظر معركة النثر الفني في موضعها من البحث، ص ١٥٧.

(٤) مجلة «الرسالة» العدد ٩٠٨/ ١٩٤٣م.

Twitter: @abdulllah1994

ينقسم على نفسه لأن أجناده ثوريون، فإن لم يجدوا ما يثورون عليه ثاروا على أنفسهم كالنار التي تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله.. ومعسكر الشيوخ ينقسم على نفسه أيضاً إلا أنه غير ثائر لأن الغالبية من أجناده تعرف الرزانة وتؤثر النظام إما للسن المتقدمة التي يتعبها الجلاد ولا تقدر على الوغى وإما إيثاراً للعافية واعترافاً بما فطرت عليه من ضعف».. ثم يمضي الأستاذ دريني خشبة ليصور قبح المعركة بين الشيوخ والشباب، فيزعم أن فريق الشباب يرمي الشيوخ بتهم باطلة وغير باطلة لأنهم يسدون في وجهه الطريق فهو أبداً بارم وساخط ولكي يتم لهم ذلك فليس لهم بد من أن يكيلوا لهم التهم فالعقاد ناثر ولا شأن له بالشعر وطه حسين له كتب ركيكة محشوة بالأغاليط.. والزيات يكتب بأسلوب يعلو على أفهام القراء.. وأحمد أمين رجل مصنف لا شأن له بالأدب ولا مذهب له في الكتابة، والمازني يلفق مقالاته من الثقافات.. وعنان يسطو على جهود المؤرخين ويعزوها إلى نفسه.. والجارم ينهب معاني الشعراء وينظمها.. ومع ذلك فهو يسفل بها ولا يعلو.. وهيكل مؤرخ عقيم لا يصبر على مرارة التمحيص ثم هو داعية متحمس والعلم ينافي الدعاوى وينافي التحمس وينبري العقاد لهؤلاء الشباب فيرجمهم رجماً موجعاً فيتهم هؤلاء الشباب بأنهم شيوعيون هدامون، وأنهم يحسدون شيوخ الأدباء الذين يغمرون السوق الأدبية بالكتب والصحف والمجلات وبينما يقول دريني خشبة هذا القول.. يخرج زكي مبارك ليقول في مجال الحديث عن المعارك القلمية إننا نختلف أقل مما يجب ويا ويلنا إذا لم نختلف ويعلل لذلك بأن السلام ضرب من الموت.. ثم يزعم[1] أن إحدى الصحف دعته إلى محاكمة العقاد ويضيف قائلاً «الحق أني لا أستسيغ مذهب المجلات التي ترى من البراعة الصحفية أن تؤرث الخصومات بين رجال الأقلام ليتفرج القراء كأن الصحافة صارت ملاعب لا تكلف المتفرجين غير ملاليم.. إن الخصومات الأدبية لا تقترح ـ وإنما تخلقها الظروف فليصبر المتفرجون قليلاً ـ ألم يسمعوا ﴿إن الله مع الصابرين﴾؟!.

---

(١) مجلة «الرسالة» العدد ٥٢٤/١٩٤٣م.

Twitter: @abdulllah1994

ثم يقول: نحن لا نختصم لنقدم الغذاء لأهل العقول، وإنما نختصم لنؤدي خدمة الفكر والرأي والوجدان، وسأخاصم العقاد ويخاصمني حين تسمح فرصة يكون الخصام في أوكار العقول.

ثم يقول أيضاً: لا قيمة للخصام الأدبي إن لم ينته إلى نتائج صحاح، فإن لم يكن من خصومة بيني وبين الأستاذ العقاد فسأبحث عن مجال يحترب فيه المنطق، ويتصاول البيان إلى أن يقول: النقد الأدبي لن يرخص إلى الحد الذي تعودتموه.. ولن يكون إلا نضالاً في ميادين توفرت عليها أعلام الآراء والأذواق. والخلاصة أن المعارك إبان هذه الفترة دارت في كل الميادين وطافت حول كل المواضيع فهي مرة حول مناهج الثقافة، ومرة حول الوحدة والتجزئة ومرة حول اللغة العربية والثقافة الإسلامية، ومرة حول الأسلوب والمضمون، ومرة حول الآراء والمذاهب في الفقه، وهي تارة حول الكتب ذات الدعوات المتطرفة والآراء الجديدة وهي تارة بين المجددين والمحافظين، وتارة بين المحافظين أنفسهم ثم هي تنتقل إلى الشعر فتدور حول قوالبه الجديدة والقديمة ومضت الحركة الأدبية والفكرية على هذه الحال حتى هدأت ثورتها، وأوشكت أن تخمد جذوتها بعد أن تغير المناخ السياسي في مصر بمجيء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فهدأت المعارك الأدبية إلى حد ما اللهم إلا القليل الذي كان يطفو على السطح من آن لآخر كتلك الحقيقة الهادئة التي دارت بين أساتذة الجامعة حول إلغاء الأدب الأمريكي من مناهج كليات الآداب بجامعتي القاهرة وعين شمس فبينما كان يصر بعضهم ــ الدكتور رشاد رشدي ــ على إلغاء هذا اللون أو بمعنى آخر إضافته إلى مادة الأدب المعاصر يرى غيره ــ الدكتور لويس عوض ــ أن هذه رجعية تضر بالثقافة القومية ولا تخدمها وهناك معركة فكرية ثقافية حدثت في أوائل الخمسينيات ويبدو أنها كانت مقصودة وبإيعاز من قبل جهات معينة تعمل ضد الثقافة الإسلامية والعربية.. فقد نشبت معركة بين الدكتور طه حسين وبعض رجال الأزهر وعلمائه حول ما سمي وقتها «بالخطوة الثانية» بعد «الخطوة الأولى» والمراد بالخطوة الأولى «إلغاء المحاكم الشرعية» في مصر والذي تم بمكيدة لا يعنينا تتبع دوافعها ولا تفاصيلها.. والخطوة الثانية التي نادى بها الدكتور طه

Twitter: @abdulllah1994

حسين هي إلغاء التعليم الأزهري بحجة عدم جدوى الازدواجية في التعليم والثقافة القومية.. وانتهت المعركة بهزيمة الدكتور طه وأشياعه ظاهراً وإن انعكست ظلال المعركة على مناهج التعليم في الأزهر حتى آتت أُكلها في بداية الستينيات من هذا القرن الميلادي فيما عرف بقانون تطوير الأزهر.. وهذا أيضاً ليس مما يعنينا تتبعه أو بحثه.

وإنما الذي يعنينا أنه بموت العقاد وأمين الخولي ومحمد مندور وزكي مبارك والمازني.. وجنوح بنت الشاطىء (الدكتور عائشة عبدالرحمن) وغيرها من الأدباء الذين كانوا يؤججون المعارك.. إلى شاطىء السلام جعل الشلال الأدبي الهادر يخفف قليلاً من تياراته ـ ونضيف إلى ذلك سبباً ثالثاً في انطفاء جذوة المعارك الأدبية بعد يوليو ١٩٥٢.. هو انعدام الصحف الأدبية المتخصصة وانسحابها من الميدان مما جعل حركة الرواج الأدبي غير ما كانت عليه قبل ذلك وحينما عادت «الرسالة» و«الثقافة» إبان عامي ١٩٦٤، ١٩٦٥م اشتعلت بعض المعارك الخفيفة بين الجديد والقديم كالعادة، وبين مناهج الثقافة، وكان من جراء ذلك أن أغلقت المجلتان وبقي الأدباء وحدهم يكسرون أو يهدئون من حدة أقلامهم التي أطاحت بهاتين النافذتين اللتين كانتا تبعثان الضوء في أفقنا الفكري والأدبي... وبإيجاز فقد كانت هذه المعارك إبان الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٥٢م بمثابة التطعيم الصحي للأدب (وبالذات المعارك الموضوعية) فقد حثت بوعي أو بغير وعي على التجديد وفتحت النوافذ التي تجدد الهواء فانتعش الأدب وتجدد النقد، واستقام الطريق.

ولقد كشفت ـ هذه المعارك ـ فيما كشفت عن حقيقة النفوس وطبائعها وأبانت عن الزيف والصحيح في القيم الأدبية، وهذا ما يجعلنا نشير إلى أن المعارك الشخصية (غير الموضوعية) أبانت من حيث لا يشعر كاتبوها عما كان مخبأ بين طيات النفوس فأفاد تاريخ الأدب المعاصر.. واستقامت إلى حد ما بعض مقاييس نقدنا الحديث وإن انحرف بعضها.. فالمعركة التي دارت حول الإسلام وأصول الحكم.. والمعارك التي دارت حول الشعر الجاهلي والمعركة حول رسالة الدكتور منصور فهمي للدكتوراه عن المرأة، والمعركة التي نشبت حول كتاب

Twitter: @abdulllah1994

زكي مبارك (رسالته للدكتوراه من باريس) عن النثر الفني في القرن الرابع الهجري ـ كل هذه المعارك وغيرها موضوعية كانت أم غير موضوعية استطاعت أن تؤصل في مفاهيم الشباب من أبناء الجيل عاملين مهمين هما:

١ ـ أن الدين الإسلامي ما زال مسيطراً على ثقافتنا مرتبطاً بها أو هي مرتبطة إلى حد بعيد به... مما يعوق عمليات الغزو الثقافي الغربي ويحول بينه وبين احتلال مواقع ذات أهمية في تاريخنا الأدبي وإن حدث ذلك أحياناً فهو مجرد شكل ورسم لا يصمد عند التمحيص وتجلية الحقائق.

٢ ـ أن هناك لدى الغرب مناهج جديدة في البحث لا مانع من الإفادة منها وتطبيق الصالح منها، أو السير على منوال بعضها إذا دعت الحاجة إلى ذلك وهي ولا بد داعية.

ويمكن القول إن الكتّاب الجدد كانوا يحاولون إغاظة الجماهير والخروج عن المألوف ولعل الأمر الذي لا يكاد ينكره باحث أن السياسة الحزبية كان لها دخل كبير في الخصومات الأدبية التي دارت رحاها على صفحات الجرائد والمجلات المعاصرة فقد كان الخلاف بين المعسكرات السياسية داعياً إلى أن تنحاز كل طائفة من الكتاب إلى معسكر من المعسكرات وإلا فقد الطريق إلى المنصب والشهرة ولقمة العيش.. ومن هنا جاءت أكثر الأحكام متعارضة متناقضة بينما هي لكاتب واحد.

وتفسير ذلك أن «الكاتب الحزبي» كان مضطراً أن يساير مصلحة الحزب الذي ينتمي إليه أو على الأقل يستظل بجناحه ـ فإذا ما تركه إلى حزب آخر كان عليه أن يساير الركب الجديد ويدور في فلكه إن كان له فكر وفلك فمعظم الأحزاب كانت مفرغة من الفكر الحقيقي ـ وإلا فليرحل الكاتب إلى حزب آخر إن أراد.

قلة من الأدباء والمفكرين اتخذوا الحيدة سبيلهم، وانتصروا لجانب الحق وحده دون خوف من رقيب أو خشية من سلطان أو طمع في مال أو جاه إلا سلطان ضمائرهم ومسؤولية أقلامهم.

Twitter: @abdulllah1994

ومعنى ذلك كله أن (زكي مبارك) لم يكن بـدعاً وحده في هذا الميدان ـ ميدان المعارك والمصاولات الأدبية والفكرية ـ وإن كان بلا جدل هو أبرز الفرسان في ذلك الميدان.

□ □ □

Twitter: @abdulllah1994

سيرة رجل، وصورة كفاح

«أنـا أشرب المـر من عصير الحيـاة،
لأحيله على سنان القلم إلى عصير حلو سائغ
للشاربين»

زكي مبارك

– ١ –

في قرية «سنتريس» إحدى قرى محافظة المنوفية وفي صيف عام ١٨٩٢م على وجه التقريب[1] ولد زكي مبارك لأب من فلاحي القـرية الكـادحين الصالحين ممن ينذرون الابن الأكبر غالباً لخدمة العلم والقرآن كطالب علم في الأزهر الشريف كعبة المتطلعين إلى الخير والشرف في القرن التاسع عشر.

وبادر الشيخ عبدالسلام مبارك (والد زكي مبارك) فبعث بولـده إلى «الكتاب» لحفظ القرآن الكريم وتجويده استعداداً لتأهيله كي يسافر إلى القاهرة حيث الأزهر معقد الأمل ومناط الرجاء.. ولم يكن ذلك أمراً سهلاً على زكي مبارك الصبـي الذي بهرته حياة قريته (سنتريس مجاورة للرياح المنوفي فلهما من النيل نصيب).. كما بهرته بساطة أبيه وتقواه وذكاؤه الفطري أيضاً. فقد كان

(١) يؤكد الأستاذ أنور الجندي في هامش ص ٩ من كتابه «زكي مبارك ـ دراسة تحليلية لحياته وأدبه ـ إنه لم يكتب تاريخ ميلاده بالضبط لكنه قال في مقدمة ديوانه «ألحان الخلود» الذي كتبه عام ١٩٤٧م: «إن ديوان ألحان الخلود يرد إليَّ شبابي وقد جاوزت الخامسة والخمسين» ومعنى هذا أنه ولد عام ١٨٩٢م.

Twitter: @abdulllah1994

الرجل ـ على ما يقول الأستاذ أنور الجندي[1]: «من الزارعين الأذكياء الذين عرفوا بالخلق والكرم» وقد أحب زكي مبارك أباه.. وكان موضع فخاره وإعجابه، وقد رسم له صورة وصفية عندما توفي عام ١٩٣٥م تمثل فيه صباحة الوجه، وصحة البدن وصدق القول وفصاحة اللسان، وثبات الجنان والعزيمة والرزانة.. وقال: إن ثغره كان لا يعرف غير الابتسام، حتى في أشد الأزمات والخطوب.. وإن الدنيا كانت عنده هينة لا تستحق أن يقطب لها جبينه.. ويسافر الصبي إلى القاهرة ويلتحق بالأزهر ويبدأ وعيه في التفتح وحسه في الازدهار والنضوج وتبهره «الصور القرآنية» فيتطلع نحو الشعر الذي فتن به منذ بواكير الصبا مذ كان في القرية.. فكان لا يجد كتاباً به بعض أبيات الشعر إلا تلهف عليه وأخذ في تلاوته والتغني به واستظهاره.. وظن الفتى أن القدماء وحدهم ينفردون بنظم الشعر ولا يكاد يجرؤ على مشاركتهم المحدثون إلى أن رأى أباه يوماً وهو يحمل كتاباً فيه أشعار لرجل معاصر اسمه «حافظ إبراهيم» فأدرك حينذاك أن نظم الشعر ليس مقصوراً على القدماء وحدهم، بل إن في استطاعته أن ينظم ويترنم كما يشاء ما دام مهيأ لذلك ـ ويمضي الصبي في استظهار الشعر وقرضه.

ـ ٢ ـ

التحق زكي مبارك بالأزهر عام ١٩١٠م على ما ذكر أنور الجندي[2] بينما قال غيره إنه التحق بالأزهر عام ١٩١٢م[3] وسواء اعتمدنا الرواية الأولى أو الثانية فقد كان مبارك شاباً ولم يكن صبياً حينما سافر إلى القاهرة ومعنى ذلك أنه جاء إلى الأزهر ناضجاً يستطيع في سهولة ويسر أن يهضم الوجبات العلمية الدسمة التي كان الأزهر يقدمها في تلك الأيام.. وهناك يبدأ حياة جديدة وإن كانت في جملتها بسيطة..

---

(١) المصدر السابق، ص ٩.

(٢) أنور الجندي، المصدر السابق، ص ١٣.

(٣) فاضل خلف «زكي مبارك بين رياض الأدب والفن».

Twitter: @abdulllah1994

نزل في إحدى الحواري الضيقة القريبة من الجامع الأزهر حيث البيئة الشعبية المعروفة بالجنوح نحو البساطة وتجسيد حياة الكادحين وهكذا جاء الفتى من سنتريس حيث الصور الطبيعية الموحية إلى الأحياء الشعبية العريقة حيث صور التاريخ الناطقة الموحية.

وتحركت الشاعرية المبكرة والتي بدأت بواكيرها هناك في القرية حيث نظم بعض «المواويل»، تحركت شاعريته لتشد الأنظار إليه ويبدو أن الشعر في ذلك العهد لم يكن من البضاعة الرائجة في الوسط الأزهري إلّا بمعناه التقليدي المتعارف عليه والذي هو أقرب إلى النظم منه إلى الشعر.. وكان أغلب الطلاب منصرفين إلى دراستهم العلمية فكانوا يكتفون بأبيات الشعر لتوضيح الشاهد أو التدريب على الإعراب أو دراسة علوم البلاغة ـ في صورتها القديمة ـ وقد حدثنا بعض أساتذتنا في الأزهر الشريف أن طالب العلم في ذلك الحين كان محظوراً عليه أن يتناول غير دروسه المقررة وإذا ما جاوز ذلك إلى غيره ينصب عليه لوم شيوخه ـ أغلبهم طبعاً ـ لأنه خرج عن طبيعة الأزهر ومنهج الدراسة فيه وتشتعل بوادر التمرد في نفسية الفتى الطموح فيعلن ثورته الصامتة في بادىء الأمر حين ينظم الشعر لنفسه، ثم يعلنها جهرة بعد ذلك فيوسم بأنه يقرض الشعر ويقرأ كتب الأدب، بل تعدى به الجهر إلى أن يعلن رأيه في الصحف منتقداً نظام الأزهر وطرق التدريس فيه فمما نقله عنه الأستاذ فاضل خلف[١] وهو ما زال في بادىء عهده بالتمرد والكتابة نريد أن يتغير التعليم في الأزهر والمعاهد الدينية، نريد أن نكون أعزة وقد صيرنا هذا التعليم أذلاء، نريد أن نرسم الخطة لنهضة الممالك الإسلامية حتى يغلب الجاحدون على أمرهم فيدخلوا في دين الله أفواجاً من حيث لا يشعرون.

نريد أن نمحو الدسائس التي دخلت في العلوم العربية وأصول الفقه وعلم التوحيد ولا يضرنا أن يحمل ـ بذهاب هذه الوساوس ـ مئات الخاملين من المتصدرين في العلم والدين»[٢].

(١) فاضل خلف، ص ١٣، زكي مبارك بين رياض الأدب والفن «مصدر سابق».
(٢) نفس المصدر.

Twitter: @abdulllah1994

وأحدثت مقالاته القوية الثائرة رجة مدوية كانت تصل إلى آذان الكبار في الأزهر فتحدث حدثها الضخم بينهم، وكيف لا تحدث حدثها وهو يقول في إحدى مقالاته تلك «هاتوا شبابي أيها الرؤساء فقد ذهبت به أيام الأزهر السوداء».

ولم يكتف زكي مبارك بهذه المقالات العنيفة، بل ألف مع رفاقه من الغُير على الأزهر لجنة أسموها «لجنة إصلاح الأزهر».. وكان برنامجهم يتلخص في أن يجعلوا للأزهر مكانة كتلك المكانة التي تتمتع بها جامعات العالم من حيث النظافة والنظام وسهولة المناهج مع احتفاظه بالقوة والحيوية.

والحق أن (زكي مبارك) الذي جأر الأزهر بالشكوى منه لم يجرد قلمه لحرب الأزهر باعتباره جامعة الدين وملتقى العاطفة الإسلامية وإنما هاجم النظام العقيم، والمناهج غير الرشيدة حينذاك حتى ولو كان ذلك في رؤيته هو على الأقل ـ والغريب أن (زكي مبارك) عاد في أخريات أيامه فعدل عن رأيه الصارخ العنيف واعتبر نفسه من المجدفين في حق المعهد العلمي الكبير.

* * *

وتتابعت الانتصارات التي يحققها (زكي مبارك) فينظم الشعر في مدح أساتذته ويجبر الأزهر هو وعصبة من الطلاب درجوا على هذا النحو على أن يكون لهم «جمعية أدبية» لتشجيع طلاب الأزهر على نظم الشعر وإجادة الكتابة، وسرعان ما ينضم إليها (زكي مبارك) فيبرز بين إخوانه ثم يبرز خارج الأوساط الأزهرية عندما تنشر«المؤيد» قصيدته التي تقدم بها في المسابقة التي أقيمت بين الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي ودار العلوم..

وفي الأزهر يتصل بأبرز الأدمغة فيعقد صلة علم وود بينه وبين الشيخ سيد بن علي المرصفي.

يقول زكي مبارك مصوراً بداية اللقاء[1]:

(١) ص ١٤، (زكي مبارك) دراسة تحليلية لحياته وأدبه لأنور الجندي «مصدر سابق».

Twitter: @abdulllah1994

«في سنة ١٩١٣م رأيت في الأزهر رجلاً نحيل الجسم غائر العينين لا يفصح سيماه عن شيء، وحوله عشرة من الطلاب وهو ينشد بصوت شجي:

حمامة بطن الواديين ترنمي سقاك من الغر الغوادي مطيرها
أبيني لنا لا زال ريشك ناعماً ولا زلت في خضراء جاد نميرها

فجلست استمع لإنشاده، وما هي إلا لحظة حتى تبينت أن الذي يحرم دروس ذلك الرجل لا يخرج من الأزهر إلا بصفقة المغبون، ثم أخذت أحافظ على تلك الدروس في حماسة وإعجاب، وكانت عادة الرجل أن يلقي الأسئلة على الطلبة في تجاهل العارف، ثم يتركهم يستنبطون الجواب، وبعد يومين من اتصالي بدرسه، جاءت كلمة ابن عباس (رضي الله عنه) «ما عصي الله بشعر أكثر مما عصي بشعر عمر بن أبي ربيعة» فقال الشيخ رحمه الله: أهذه مثلبة أم منقبة؟ فقلت: يريد ابن عباس أن شعر ابن أبي ربيعة يفعل بالقلوب ما يفعل الشراب، فينقلها من الهدى إلى الضلال» فقال الشيخ رحمه الله في حماسة شديدة: «إيه يا عروس الأدب».. يقول زكي مبارك معلقاً على ذلك «وكانت أول كلمة حببت إلى قلبي دراسة الآداب»[١].

* * *

وتتمكن أواصر الصداقة العلمية والروحية بين قلب الشيخ المرصفي وتلميذه زكي مبارك فيصحبه إلى منزله ليطلع على الذخائر الأدبية واللغوية وينشده شعره فيقومه ويصلح منه، ثم هو دائم التنقل معه من الأزهر إلى جامع البرقوقي ثم إلى منزله حتى جمع من دروسه ـ كما يشير الأستاذ أنور الجندي أكثر من ثلاثين كراسة ويعلق زكي مبارك على هذه الثروة التي همشها من خلاصات ونتائج دروس الشيخ المرصفي قائلاً: «هي أنفس ما أملك من ذكريات الأزهر

---

(١) كان للشيخ سيد بن المرصفي(رحمه الله) الفضل العظيم في اكتشاف المواهب بين نوابغ الجيل الماضي أمثال طه حسين والزيات وزكي مبارك، وقد ظل تلامذته هؤلاء أوفياء له يذكرونه بالخير حتى أن زكي مبارك دخل في معركة كبرى مع الأستاذ السباعي بيومي لأنه تناول المرصفي بالنقد. وفي كتاب «البدائع» لزكي مبارك فصل شائق عنه.

Twitter: @abdulllah1994

الشريف». . ويبدو أن موقع زكي مبارك من نفس شيخه كان في الصدارة. . فقد تأخر يوماً عن موعد بداية الدرس، فجلس خلف الصفوف وكانت عادته أن يجلس في مواجهة الشيخ. . فسأل الشيخ: أين «زكي» فأجاب «هـأنـذا يا مولاي». . فقال الشيخ لطلابه: «وسعوا له لعله ينفع».

وقال الشيخ المرصفي مرة للشيخ الزنكلوني ــ أحد مشايخ الأزهر ــ: «إنه يحزنني أن تظل مشيخة الأزهر غافلة عن تشجيع أبنائها وإني لأخشى أن يضيع منا زكي مبارك كما ضاع طه حسين».

ــ ٣ ــ

وتهب ثورة ١٩١٩م ويشتعل أوارها وينظم الأزهر ــ كقائد طليعي بين المنظمين والمنظرين لها ويؤلف لجنة للخطابة يتولاها الشيخ محمد أبو العيون، ينضم إليها (الفتى الثائر) زكي مبارك ويقبل الناس على الأزهر كل مساء بعد فراغهم من أعمالهم لسماع الخطب الوطنية، وكان على الفتى المتوثب الطموح أن يحمل نصيبه في المعركة، فيسهم بقلمه ولسانه، بعد أن ضج هو ورفاقه من المظالم التي كبلتهم بها السلطات العسكرية البريطانية في أخريات أيام الحرب العالمية الأولى، فقد منعتهم هذه السلطة من زيارة قبر مصطفى كامل طوال أعوام الحرب. . ويتحمس الفتى (زكي مبارك) مع المتحمسين من رفاقه فيذهبون إلى قبر مصطفى كامل لزيارته ثم يأخذهم الحماس وتناديهم الوطنية فيهتفون بحياة الاستقلال والحرية، وتقبض السلطة العسكرية عليهم ويقضون أياماً في أول معتقل بعد الحرب، ويخرج زكي مبارك من المعتقل ليعود إليه من جديد حينما يذهب لاتخاذ مكانه في الأزهر كخطيب مفوه يبحث عن الفرصة المناسبة إلى أن واتته حينما أقبل وفد الصحافة الأجنبية لاستطلاع حال الثائرين في الأزهر ويخطب خطيبهم باللغة الفرنسية، ويسأل الشيخ أبو العيون عمن يرد تحيتهم فيتقدم الفتى الثائر (زكي مبارك) وهو يرتدي عمامة في جرأة وحماس ويلقي كلمة بالفرنسية الطلقة ــ وكان قد اتصل بالجامعة المصرية القديمة وتعلم الفرنسية ويتتابع الرواد كل مساء ليستمعوا إلى خطبه وأفكاره، حتى تكفل المعتقـل

Twitter: @abdulllah1994

بإسكات صوته، وإخماد جذوته فقبضت عليه السلطة للمرة الثانية ونشر الأهرام في يوم الأحد أول يناير سنة ١٩٢٠ «اعتقل البوليس صباح أمس الأستاذ زكي مبارك وهو شيخ معروف بذلاقة اللسان، والنظم الرشيق، وكان له في كل اجتماع خطبة يلقيها أو قصيدة يتلوها».

وفي المعتقل طاب له المقام ما دام يقرأ، بل إنه ليشتري بجزء من المال المخصص لطعامه «كتباً» ليرضي حاسته، ويشبع تطلعه، ولا جدل أن هذه الفترة من حياة زكي مبارك تعطي خطاً عريضاً من خيوط تلك الشخصية الثائرة.

ويجوب المعتقلات من معتقل إلى آخر حتى يستقر به المقام في معتقل الإسكندرية مع الشيخ أبي العيون والشيخ القياتي وغيرهم من خطباء الثورة المصرية.

وأخذت السلطات العسكرية الانجليزية تضغط على المعتقلين من رجال الفكر وتحاول أن تأخذ منهم تعهداً يقضي بعدم الاشتراك في الثورة ومقابل هذا التعهد يطلق سراحهم، وقد أرسلوا من يغري (زكي مبارك) بالإفراج عنه بعد أن يوافق على هذا الشرط فأبى وصمم على الموت في المعتقل، ورأى السجن أحب مما يدعونه إليه[1].

وظل الفتى الثائر (زكي مبارك) في المعتقل زمناً، وكان في استطاعته لو أراد أن يخرج من أسره ويعود إلى جامعته فقد كان وقتها من طلاب الليسانس في الجامعة المصرية، وكان يعلم بلا شك أن رفاقه سيسبقونه إلى نيل هذه الإجازة العلمية ومع ذلك فضل المعتقل على أن يبيع ضميره ووطنيته.

وعن المعتقل يقول زكي مبارك «إن أيام المعتقل أورثتني أحزاناً كثيرة،

---

(١) ص ٣١، (زكي مبارك) بين رياض الأدب والفن (لفاضل خلف) مصدر سابق وينظر في ذلك أيضاً الخطاب الذي بعث به من المعتقل إلى صديقه أنيس ميخائيل «كتاب البدائع لزكي مبارك» وكان (مبارك) يلجأ إلى منزل صديقه هذا في حي القللي في ضاحية السبتية قبل أن تعتقله السلطات البريطانية.

Twitter: @abdulllah1994

وهي أحزان ما زالت تفطر قلبي، ولكني أفدت من أيام الاعتقال فقد عرفت معنى الاغتراب في الحياة وهو معنى جميل.

- ٤ -

كان (زكي مبارك) قد اتصل بالجامعة المصرية القديمة قبل اندلاع ـ ثورة ١٩١٩ عندما حاول الانتساب إليها سنة ١٩١٣ بعد أن يئس من الأزهر ومناهجه المعقدة العقيمة حينذاك ولكنه فوجىء بأن الجامعة لا تقبل الطالب الذي لا يحسن لغة أجنبية إلى جانب لغته العربية فصمم على مواصلة الدرس ومتابعة الكفاح العلمي حتى استطاع خلال ثلاث سنوات أبان طلبه للعلم بالأزهر ـ أن يتقن اللغة الفرنسية اتقاناً عجيباً واستطاع أن ينتسب إلى كلية الآداب سنة ١٩١٦ ويظل بها إلى سنة ١٩٢٤ حينما حصل على إجازة الدكتوراه الأولى، وفي هذه الأثناء تهب ثورة ١٩١٩ فيذهب إلى الاعتقال ويعود لمتابعة الكفاح دون أن يثنيه عن عزمه رسوبه مرتين وهو في الليسانس[1].

وفي الجامعة تحول المنهج العام لثقافته فترك نظم الشعر وخلافات النحاة وجدال البلاغيين ومسائل الفقه كي ينصرف إلى العلوم الفلسفية التي نال فيها إجازته الأولى، وما كان يقول الشعر إلا إذا اعترته ثورة نفسية أو هزة وجدانية، وفي الجامعة اتصل بأستاذه الثاني بعد الشيخ المرصفي ذلكم هو الشيخ (محمد المهدي) الذي كان أول من أخذ عنه الأدب في الجامعة والذي ظل يذكره بالخير ويكبره ويجله حتى آخر أيامه فعقد للحديث عنه فصلاً طويلاً في كتاب البدائع حلل فيه أدبه وشخصيته وعندما استقال الشيخ المهدي من الجامعة سنة ١٩١٨ أقام الطلاب له حفل تكريم ألقى فيه مبارك قصيدة قال فيها مرحباً بالشيخ:

وما كانت الآداب إلا طرائفاً	من الشعر أو ما يستجاد من النثر
فأبرزها المهدي عذراء غضة	تأود تحت الحلى في الحلل الخضر

(١) يقول فاضل خلف: إن طه حسين أسقط (زكي مبارك) مرتين في مادة الجغرافيا مع أن طه حسين لم يكن من بين الممتحنين الموكل إليهم اختبار الطلاب في مادة الجغرافيا.

Twitter: @abdulllah1994

مباحث لو غـذي (زهير) بـروحها لأضحت قـوافيـه أرق من الشعـر
ولـوفقه النيـل المبارك كنهها لحـول ذيـاك المـزيـج إلى خمـر

وفي الجامعة أيضاً استطاع وهو ما زال طالباً أن يلفت نظر أساتذته ـ كما فعل في الأزهر فيعهدون إليه بإلقاء محاضرات في الجامعة على أنها تمرين تحت إشراف الدكتور أحمد ضيف وكانت محاضراته عن شاعر الحب والجمال (عمر بن أبـي ربيعة) ولو أن غير زكي مبارك ذلك الذي عهد إليه بهذا العمل لجاء الأمر عادياً لا جديد فيه أما وإنه (زكي مبارك) فلا بد من جديد يضيفه ـ حتى ولو كان هذا الجديد متطرفاً ـ ولا بد من قنبلة يفجرها. . وقد صدق الحدس فقال في إحدى محاضراته عن الحب «إن الحب نفحة من نفحات النبوة» وعد ذلك بعض المستمعين وعلى رأسهم الشيخ عبدالجواد رمضان (رحمه الله) ذلك تجديفاً في حق النبوة وناقشوه في ذلك، ولكنه تعمد ذكر هذه العبارة في المحاضرة التالية. وكان الشيخ عبدالجواد رمضان قد استقدم معه بعض شيوخ الأزهر لمعاونته في رد ذلك الهجوم، فضج الحاضرون وطالبوا بإيقاف المحاضرات وزجر المحاضر فدافع عنه أستاذه ضيف ولم ينس في محاضراته هذه أن يهاجم (أبا الفرج الأصفهاني) مؤلف كتاب الأغاني وذلك لفهمه الخاطىء لعمر بن أبـي ربيعة واتهامه إياه بأن ليس لشعره منزلة ولا لأسلوبه طابع خاص يتميز بـه بين الشعراء، وراح يناقش أبا الفرج نقاشاً حاداً حتى أبطل حججه وأذهب براهينه.

وأزعم أن هذه كانت معركته الأدبية الأولى ولا جدل في أنه انتصر فيها انتصاراً حاسماً حول خصومه في النهاية إلى معجبين ألداء ـ وقد جمع محاضراته تلك في كتاب طبعه بعد ذلك وإن كان قد أضاف إليه فصولاً جديدة.

ـ ٥ ـ

لم يكتف هذا الطالب الطموح «بالليسانس» التي نالها من الجامعة، وإنما أعد عدته لنيل إجازة الدكتوراه وكيف لا يفعل ذلك وهو يتتبع خطى أستاذه وهدفه الأعلى «طه حسين». فتقدم إلى الجامعة سنة ١٩٢٤ برسالة الأخلاق عند الغزالي واستعدت الجامعة لضجة جديدة بعد الضجة التي أحدثتها محاضراته عن

Twitter: @abdulllah1994

(عمر بن أبـي ربيعة) وتطلع المرجفون وغير المرجفين لهزيمة الفتى الأزهري الجامعي الثائر ما دام الموضوع شائكاً ومتصلاً بشخصية لها في نفوس المسلمين عامة والمثقفين خاصة كل إجلال وتقدير، وتحمس أنصار القديم كعادتهم في صد كل جديد.

وكانت معركة حامية استطاع زكي مبارك أن يحولها لصالحه حينما لم يجد حرجاً من نفسه في أن يلين لهم في موضع اللين حين بصر بهم يغضبون ورآهم يثورون ليهدىء من ثورتهم ويخفف من غضبهم ولكن ذلك لم يمنعه من أن يرميهم بحجارة مثلما رمى الغزالي نفسه[1] ولندع أستاذاً من أساتذته[2] الذين اشتركوا في مناقشته يصور لنا كيف تمت المناقشة: «كنت في تلك الأيام لا أعرف الدكتور (زكي مبارك) معرفة شخصية وإنما كنت أعرفه عن طريق ما يكتب في الصحف والمجلات، فكنت أتصوره شاباً بعيد الهمة، كلفاً بنقد الشعـراء والكتاب والمؤلفين محباً للظهور بمظهر السيطرة والاستعلاء، ولما اطلعت على رسالته التي قدمها لامتحان الدكتوراه في تلك الأيام وهي «الأخلاق عند الغزالي» رأيت فيها صدق ظني: رأيته يهجم على حجة الإسلام الغزالي ويقسو عليه، فلم أجد بدأً من أن أتشدد في حسابه لأعجم عوده وأسبر غوره فلما أخذت في محاسبة الدكتور زكي مبارك على ما صنع في نقد الغزالي تكشفت جوانب أثارت فضيلة الشيخ اللبان فتدخل وتدخل معه جماعة من جلة العلماء، وكان الجمهور يموج من الغيظ، ولولا حكمة رئيس اللجنة الدكتور منصور فهمي لاضطرب النظام وانفرط عقد الامتحان، وحين دخلت اللجنة للمداولة أسفر تناقشها عن منح زكي مبارك إجازة الدكتوراه بدرجة جيد جداً، واقترحت أن ينص في محضر الجلسات على أن اللجنة غير مسؤولة عما في الرسالة من الشطط والجموح. وكنت أظن أن المشكلة انتهت عند هذا الحد ولكني تبينت مع الأسف أن هجومي على الدكتور زكي مبارك كانت له عواقب، فقد حمل عليه جماعة من

---

(١) سنفصل القول عن ذلك في صفحات متصلات من هذا البحث (انظر الباب الثاني).

(٢) هو المرحوم محمد أحمد جاد المولى بك مفتش اللغة العربية بالمعارف في ذلك الحين.

Twitter: @abdulllah1994

العلماء في جريدة المقطم وجريدة الأخبار يحمل لواءهم الشيخ يوسف الدجوي والشيخ (أحمد مكي).

ثم يقول الأستاذ جاد المولى:

وعند ذلك عرفت أن الدكتور زكي مبارك قد يقضي حياته في المصاولة والمجادلة لما قد استقر في النفوس من أنه باحث منصف مشاغب[1].

وهكذا بدأ حياته العلمية فيما بعد الدكتوراه كما بدأها من قبل بالمشاغبة والخصام ومعاداة الناس على اختلاف مشاربهم وألوانهم في الرأي والثقافة حتى أن شيخاً من شيوخ المساجد تناوله في خطبة الجمعة التي تلت الامتحان فحرض الناس على قتله وقال:

«ظهر في مصر ملحد اسمه زكي مبارك الذي فرحت الجامعة المصرية بإلحاده فمنحته درجة الدكتوراه ومثل هذا الملحد فرصة لمن يريد أن يدخل الجنة».

ـ ٦ ـ

وفي أواخر عام ١٩٢٥م عين معيداً في الجامعة أو باحثاً مساعداً وكان يترجم للمسيو (كازانوفا) المستشرق الفرنسي والأستاذ الفرنسي في الجامعة المصرية القديمة وقتذاك ثم أخذ في شرح كتاب مغني اللبيب لطلاب كلية الحقوق بطلب من الدكتور طه حسين فهو الذي زكاه للعمل في الجامعة وكان وقتها أستاذاً بها.

وكان زكي مبارك في هذه الأثناء أو قبلها كاتباً لامعاً في الصحف اليومية والأسبوعية عندما بدأ اتصاله بالصحافة إبان طلبه للعلم في الأزهر حينما كان يكتب مقالاته الملتهبة بإمضاء «الفتى الأزهري». وقد تولى رياسة تحرير جريدة الأفكار عام ١٩٢١م وكانت الأفكار هذه صحيفة الحزب الوطني يقول: وكنت

---

(١) مقدمة كتاب التصوف الإسلامي لزكي مبارك.

Twitter: @abdulllah1994

أكتبها من الألف إلى الياء وعلى صفحاتها نقدت أعمال الدستور ولكن الأقدار لم تمهله في رياسة تحريرها غير عام وبعض الثاني ولنتركه يروي لنا كيف ترك الجريدة:

واتفق الصوفاني (بك) مع الأستاذ عبدالقادر حمزة اتفاقاً يقضي بأن تصبح الجريدة وطنية وفدية واشترط الأستاذ عبدالقادر شروطاً كان أهمها أن يكون حر التصرف في اختيار المحررين واشترط الصوفاني بك أن يكون للحزب الوطني محرر يعتمد عليه في رعاية ما يهم الحزب من دقائق الشؤون. وكان ذلك المحرر هو زكي مبارك. وقبل عبدالقادر حمزة هذه الشروط وفي نفسه أشياء ومن أجل هذا لم يسمح بأن أنشر في الأفكار غير مباحث أدبية لا تقدم ولا تؤخر في السياسة الحزبية الواعية وهي مقالات كنت أرسلها إلى جريدة الأمة بإمضاءات مختلفة فأدرك أنه لا أمل في أن أسير كما يسير.

عندئذ بدا لعبدالقادر حمزة أن يصاحب شاباً له أهداف فوثق بي ودعاني إلى الاشتراك في تحرير البلاغ عند ظهوره في أوائل ١٩٢٣ ولكني رفضت بحجة أن هواي سيظل مع الحزب الوطني.

ويفيدنا أن نأخذ نموذجاً من كتاباته الصحفية في ذلك العهد عسى أن نلمح وراءها شيئاً.

قال في مقال له نشرته جريدة الأفكار (نوفمبر ١٩١٩):

«تنصحني يا هذا بأن أجامل وأن أصانع، بل وتريد أن أنافق، ويحك إنما ينافق الضعفاء. إن الله لم يخلقني لأكون ألعوبة، أداري هذا وأجامل ذاك. أنا خير منكم جميعاً، أنا في نعمة من الله، لا أبالي بعدها أين يكون سخطكم وأين يكون رضاكم إن فضيلة الوفاء هي التي تضطر مثلي أن يجامل بعض الناس.. كلا لن يكون هذا إنكم تنافقون لتعيشوا أما أنا فحي بالرغم منكم لأني لا أريد أن أموت وسوف تعلمون»[1].

(١) نقلاً عن كتاب البدائع لزكي مبارك، ص ١١٣.

Twitter: @abdulllah1994

ولو تساءلنا ماذا يعطينا هذا النموذج الذي سقناه من كتاباته الأولى؟ لرأينا أن صور الصراحة والاندفاع والحماسة والإيمان بالنفس والثقة بها تطل من خلال هذه الكلمات. ولقد ظل (زكي مبارك) منذ عهده الأول بالصحافة إلى نهاية حياته لم يتغير ولم يتلون ولم يجامل ولم يتملق ولم يصانع السلطان ولم يداهن الرؤساء ولذلك عاش حياته غريباً وسط قومه مظلوماً بين أبناء جلدته.

ـ ٧ ـ

لم تطل مدة عمله في الجامعة فقد تطلع إلى أمل طالما راوده وإلى هدف طالما ابتغاه ــ إن السربون تناديه من باريس وهو في مصر فلمَ لا يلبـي النداء؟ وتطلع إلى بعثة علمية مثلما فعل رائده طه حسين كي يرضي طموحه ويحقق مبتغاه ولكن لا أمل في البعثة العلمية عن طريق الجامعة ما دامت الأضواء هي الطريق وما دام الرجل مشاغباً مبارزاً عنيداً. فلما عجز عن تحقيق هدفه من هذا الطريق تحول إلى غيره فركب البحر إلى باريس عام ١٩٢٧ يحدوه الأمل المشرق وتسبقه إلى هناك العزيمة والطموح. وهنا تتجلى آيات عصاميته الفذة وكفاحه الرائع حينما يترك وظيفته في الجامعة التي طالما سعى إليها وعمل من أجلها لينقطع للدراسة في البلد الغريب دون مورد محدد أو رزق معلوم ولا شك أنه كان يعلم عندما ترك الجامعة وسافر إلى باريس أنه سيقدم على أيام كدرة وليال مضنية تزيده هماً على هم وتعباً على تعب. فحينما انتظم في جامعة السربون وازدادت متاعبه وكثرت مشاغله وكان عليه بالرغم من ذلك أن يواصل الليل بالنهار لمتابعة درس في الجامعة وتحرير المقالات والبحوث للصحف في مصر كي يستطيع الإنفاق على نفسه في البلد الغريب وعلى أهله ي الوطن البعيد وكان ذلك عملاً ضخمًا بلا شك يرسم صورة واضحة لطبيعة الرجل وصلابته التي استمدها من طبيعة الأرض التي نشأ عليها.

ولنتركه يصور لنا بقلمه جانباً من تلك الأهوال التي مر بها في باريس يقول:

Twitter: @abdulllah1994

«كان أصعب تلك المتاعب هو هجرتي إلى باريس فقد أقمت فيها سنين كانت من أعجب السنين»[1].

ولو اكتفينا بهذه العبارة لخرجنا منها بالكثير الذي يدل على الإرهاق الذي يعانيه الرجل فهو مشتت الفكر ممزق الوقت بين دروس الجامعة وبين لقمة العيش التي يجود بها قلمه في صور مقالات يبعث بها إلى جريدة البلاغ لقاء مبلغ صغير[2] كان يبعث به صاحبه عبدالقادر حمزة ويخرج من ذلك في النهاية بكتاب ظريف اسمه «ذكريات باريس» صور فيه البيئة الفرنسية تصويراً يدعو إلى الإعجاب.

وكان أبرز حدث له هناك أنه صرَّح إثر وصوله إلى السربون بقوله المشهور: «جئت إلى هنا لأصحح غلطات المستشرقين» وابتدأ يثير معركة بهذه الجملة العنيفة ويهاجم آراء المستشرق الفرنسي (مسيو مرسيه) المدرس في السربون فتثور ثائرته ويرد هجمات الفتى المصري الثائر ولكن زكي مبارك لا يتركه وإنما يرد بالمثل وكانت بينهما خصومة أدبية تحدثت عنها المجالس الأدبية في باريس حيناً من الدهر «حسب روايته».

ولقد ظل في السنوات الأولى ١٩٢٧ ـ ١٩٢٩ ـ يذهب إلى باريس في الصيف ثم يغادرها في الشتاء إلى أن يئس من تلك الأسفار فاستقر هناك لمدة عامين متتاليين ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ استطاع خلالهما أن يحصل على ما سافر من أجله.

ولو أردنا أن نضيف جديداً في ـ غير حينه ـ لقلنا: إن معاركه الأولى في الأزهر ومعركته الثانية في الجامعة المصرية القديمة حول محاضرات عمر بن أبي ربيعة ثم معركته حول رسالة الدكتوراه الأولى إذا أضفنا إلى معركته في باريس لخرجنا من ذلك كله بأنه معارك بطبعه أو أنه خلق معاركاً.

---

(١) تنظر مقدمة النثر الفني.

(٢) خمسة عشر جنيهاً مصرياً في كل شهر.

Twitter: @abdulllah1994

فلم ينته الخلاف في جامعة السربون بالتصريح الذي أعلنه عند وصوله وإنما سرى إلى نفس العمل الذي جاء من أجله.

فهو يتبادل الرأي مع (مسيو مرسيه) رأس المستشرقين الفرنسيين حول رسالته عن النثر الفني موضوع رسالته للدكتوراه ولننظر الآن كيف دارت معركته حول هذه الرسالة:

- ٨ -

كان من المقرر أن يرأس (مسيو مرسيه) لجنة الامتحان التي ستناقش الفتى الثائر في رسالته عن النثر الفني في القرن الرابع الهجري. وكان للمسيو مرسيه آراء معروفة من قبل عن نشأة النثر الفني عند العرب[1] ولكن (زكي مبارك) يرى غير هذه الآراء ويعمل على نقضها من الجذور الأولى لها ويحاول «مسيو ماسينون» أحد المستشرقين الأساتذة في السربون أن يقنع (مبارك) بالعدول عن فكرته في معارضة مسيو مرسيه لأنه رجل صعب المراس عظيم المنزلة وأن المستشرقين جميعاً يجلونه ويحترمونه. ويقدرون آراءه ونظرياته ولكن هل انتصح الفتى الغريب وهو الذي ضحى برزقه وراحته ورعاية أولاده في سبيل الحصول على إجازته؟ لا. لم ينتصح ولنستمع إليه يقول:

«لكن كتب الله ألا أنتصح برأي (مسيوماسينون) فابتدأت رسالتي التي قدمتها للسربون بفصلين في نقض آرائه من الأساس (يعني مسيو مرسيه) فغضب الرجل وثار وأصر على حذف الفصلين بحجة أنهما لون من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسي في البحث وأصررت على بقاء الفصلين بحجة أنهما العماد الذي تنهض عليه نظريتي في نشأة النثر الفني.

وكأنما عز على الرجل أن أهاجمه في عقر داره فمضى يعاديني عداء خفياً كانت له آثار بشعة لا أتذكرها إلا انتفضت رعباً من عجز الرجل عن ضبط

---

(١) نهتم هنا بالأحداث وحدها وسندع التفصيل العلمي عند مناقشة المعركة التي دارت حول كتاب النثر الفني ينظر فصل المعارك من هذا البحث، ص ١٤١ وما بعدها.

Twitter: @abdulllah1994

النفس وقد قابلت خصومته بلدد أقسى وأعنف ورأيت الحرص على آرائي أفضل من الحرص على رضاه. فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه وانتهينا إلى عاقبة أفصح عنها (مسيو ماسينون) كل الإفصاح إذ قال حين لقيته أخيراً في باريس:

«إن مسيو مرسيه لا يحبك ولكنه لا يستطيع أن ينساك»[1].

ويعود زكي مبارك بعد سنواته الخمس وهو يحمل أرقى الإجازات العلمية من أكبر جامعات الدنيا في ذلك الزمان ثم لا ينسى وهو هناك أن يعرج على معهد اللغات الشرقية التابع للجامعة فيحوز دبلومته في الدراسات العليا ويثبت الفتى للشباب من أبناء جيله ومن هم بعد جيله أن العزيمة الصلبة والأمل الطموح هما زاد المسافر لملاقاة النصر.

- ٩ -

رجع زكي مبارك من باريس سنة ١٩٣١[2] ليعود إلى الجامعة المصرية فهو فتاها وهو ابنها وهو الذي ضحى برزقه من أجلها. ألم يترك العمل بها طائعاً مختاراً حينما لم يوفق إلى بعثة علمية عن طريقها فذهب لحسابه الخاص؟ وكان من ألوان جهاده هناك وهنا ما رأينا ولكن هل دام بقاؤه في الجامعة طويلاً حينما عاد إليها مدرساً بكلية الآداب؟.

لا لم يتيسر له ذلك البقاء الطويل ولم يتيسر للجامعة فخسرته مناضلاً عملاقاً وباحثاً ممتازاً ومحققاً علمياً من الطراز الأول بين أبناء جيله.

---

(١) مقدمة: النثر الفني «مرجع سابق».

(٢) يبدو أن الأستاذ أنور الجندي يغفل أحياناً عند مراجعة بعض كتاباته فقد ذكر في كتابه المعارك الأدبية، ص ٣٦ أن مباركاً عاد من باريس سنة ١٩٣٣ بعد أن ناقش رسالته في السربون ثم يقرر في كتابه زكي مبارك، ص ٣٥ أنه ظفر برسالته في ٢٥ من أبريل سنة ١٩٣١ وهو الصواب.

كذلك فهو يذكر مرة في مصدر واحد «زكي مبارك حياته وأدبه» وفي موضعين مختلفين أنه سافر إلى باريس في سنة ١٩٢٧، ص ٣٢ ثم يعود إلى القول في ص ٣٤، أن أول أسفاره كان في يونيه ١٩٢٨ والصواب ما ذكر أولاً حسب ما جاء في مقدمة النثر الفني.

Twitter: @abdulllah1994

ولإخراجه من الجامعة قصة قد تطول... ولكننا نستطيع أن نوجزها في أن الدكتور طه حسين حينما عاد إلى الجامعة ١٩٣٢ بعد فصله منها على أثر معركته المشهورة تحت قبة البرلمان المصري بسبب كتابه «الشعر الجاهلي» عمل على إخراج زكي مبارك ورفض أن يجدد عقده مع الجامعة بعد أن شن عليه قبلها حملة في الصحف وهو خارج الجامعة متعجباً من المسؤولين الذين عينوه في هذا المنصب الجامعي ورد زكي مبارك على أستاذه وكان عنيفاً في رده لم ترهبه قسوة الفصل ولم تخفه مرارة لقمة العيش.

والحق أن هذا الفصل المتعسف كان وصمة في جبين الجامعة تنوء به حتى اليوم. إذ كيف يعود مبارك ابن الجامعة وهو خامس من حصل على الدكتوراه من بين جدرانها بعد كفاحه الطويل في باريس للعمل في الجامعة بعقد ثم كيف يتعنت الدكتور طه وهو الذي حورب في رزقه من أجل حرية فكره بل إنه علم أبناء الجيل كيف يكون الذود عن حرية العقيدة وكيف يكون الكفاح الشريف في سبيل المبدأ. كيف يحارب زكي مبارك؟ وهو الذي كافح ونافح حتى وصل إلى أبواب الجامعة بجده وكده وعرقه وعمله فكيف تغلق في وجهه أبواب ونوافذ الجامعة؟ لو كان زكي مبارك ممن رأينا وسمعنا ادعاء وغروراً أو اسمًا براقاً لامعاً ثم هو لا علم كالطبل الأجوف لالتمسنا للدكتور عذراً في فصله ولقلنا أن من حق رئيس قسم اللغة العربية في أن يذهب الزبد وأن يبقي على ما ينفع الناس ولكن ما القول والدكتور طه نفسه قد شهد للرجل بالذكاء والعلم والمقدرة على البحث والنضال في سبيل الحق؟ أليس هو الذي أثنى على باكورة إنتاجه «حب ابن أبي ربيعة وشعره» عاطر الثناء؟ أليس هو الذي شهد له بالخصوبة في المادة والمقدرة في البحث؟ أليس هو الذي رشحه للعمل معيداً في الجامعة سنة ١٩٢٥؟ أحياناً تغفل عين الحق عن بعض الحق[1].

---

(١) قد يكون للدكتور طه عذره في تلمس الأسباب التي نستطيع بها تعليل عدم موافقته على تجديد عقد مبارك ولكن ومهما تلمسنا من الأسباب فستظـل قضيته غامضة وقد دارت رحى المعارك بينه وبين الدكتور طه على صفحات البلاغ والصباح والرسالة طوال عشرين عاماً أو يزيد وسيأتي مزيد يفصل لهذا الحديث عند الكلام عن معاركه مع طه حسين ـ انظر معركة لقمة العيش في فصل المعارك من هذا البحث، ص ١٨٣.

Twitter: @abdulllah1994

- ١٠ -

خرج زكي مبارك من الجامعة ليقول لطه حسين قولته المشهورة: «لقد ظن طه حسين أنه انتزع اللقمة من فم أطفالي فليعلم حضرته أن أطفالي لو جاعوا لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه ولكنهم لن يجوعوا ما دامت أرزاقهم بالله».

ويمضي الرجل حاملاً قلمه الذي أشقاه ليفتح به الأبواب المغلقة ويحطم به الأقفال الصلدة وينافح به الفكر المستغرب ويفتح الله عليه أبواب الرزق من حيث يدري ولا يدري فيعمل بالجامعة الأمريكية بالقاهرة رئيساً للقسم العربي بها ثم يتصل بالجرائد والمجلات الأدبية فيحرر فيها، ولعل هذه الفترة بين خروجه من الجامعة حتى سفره إلى بغداد كانت من أخصب أيام حياته في المعارك الأدبية؟ لأنه كان وقتها قوي الروح، مستطار اللب فائر الوجدان، يضرب بقوة وعنف لأنه ظن أن الناس جميعاً يتآمرون عليه فيسدون في وجهه سبل الرزق الميسور مثلما يرزقون. ثم هو لا ينسى ــ برغم معاركه الطاحنة والتي تشغل ثلاث صحف على الأقل ــ أن يواصل الليل بالنهار في العمل من أجل رسالته الثالثة للدكتوراه عن دراسته للتصوف الإسلامي والتي عزم أن يتقدم بها إلى الجامعة المصرية في عهدها الجديد حتى ولو كان على رأسها الدكتور طه حسين وأشياعه ممن حاربوه وطاردوه.

- ١١ -

وينتقل زكي مبارك إلى عهد جديد بعد أن ترك الجامعة الأمريكية وإن كنا حتى الآن نجهل السبب الذي تركها من أجله ورأت الحكومة حينذاك أن تستفيد منه في مجال التفتيش على المدارس الأجنبية بوزارة المعارف فأسندت إليه هذا العمل الذي ظل فيه حتى سافر إلى بغداد عام ١٩٣٨م وفي أثناء عمله بالوزارة وفي سنة ١٩٣٧ يتقدم إلى الجامعة لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة عن دراسته «التصوف الإسلامي» والتي أطلق على نفسه بعدها «الدكاتره» زكي مبارك وكأنه أراد أن يبرهن لمن أخرجوه من الجامعة أنه سيعود إليهم من غير الباب الذي أخرجوه منه؛ من باب النضال المثمر والكفاح العلمي الدءوب بعد

Twitter: @abdulllah1994

أن يحصل على الدكتوراه من الجامعة في صورتها الجديدة ويـدهش بالفعـل المسؤولون عن كلية الآداب فقد عاد إليهم الفارس القديم مزوداً بسلاح العلم والمعرفة فماذا يفعلون؟ يهرب الدكتور طه حسين فيعتذر عن رئاسة لجنة المناقشة وكان من المقرر أن يرأسها وينيب عنه المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال وتتألف لجنة المناقشة من الدكتور منصور فهمي والأستاذ مصطفى عبدالرازق والدكتور عبدالوهاب عزام ونترك الأستاذ محمد جاد المولى بك الذي سبق أن حدثنا عن الدكتوراه الأولى ليحدثنا عن الدكتوراه الثالثة. . يقول رأيت طالب الدكتوراه في سنة ١٩٢٤ غير طالب الدكتوراه في سنة ١٩٣٧، كان الطالب الأول يجادل لجنة الامتحان بلا تهيب ولا تلطف، ولا أقول: بلا أدب. أما الطالب الجديد فكان آية من آيات الأدب والذوق وكان مثالاً من أمثلة التواضع والاستحياء يستمع السؤال بهدوء ويجيب عنه بذكاء مقرون بالتحفظ والاحتراس.

ولقد تغير تغيراً تاماً وانقطعت الصلة بين حاضره وماضيه أشد انقطاع، وكذلك يصنع العلم بأبنائه الأوفياء فهو يجعلهم متواضعين مهذبين لا يعرفون العنف ولا الغطرسة ولا الكبرياء ثم يشهد للكتاب قائلاً:

ومزية الكتاب الصحيحة أنه لم يؤلف للدعوة إلى الهجوم عليه وإنما ألفه مبارك في نقد التصوف فبين ما فيه من محاسن وعيوب وكشف عما يتضمنه من قوة وضعف في صراحة رائعة وأسلوب ثمين[1].

ويستطيع الفتى الفلاح أن يظفر بإجازة الدكتوراه الثالثة في الفلسفة بدرجة الشرف وسط إعجاب الناس ودهشتهم ويعلن الرجل عن نفسه في أكثر من مناسبة أنه أول حائز على الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة وأول

---

(١) النقول في هذا الفصل من مقدمة «التصوف الإسلامي» يقول الدكتور محمد رجب البيومي: حينما تتحدث عن التصوف الإسلامي: «وأجدني مضطراً أن أذكر أن الروح الأدبية قد جمحت بالدكتور في بعض مواضيع الكتاب فلم تحدد بعض صفاته العلمية تحديداً للقارىء من أقرب طريق. وقد أجهدت نفسي كثيراً لأفهم ما قاله عن وحدة الوجود فلم أخرج بطائل مع أنه ملأ الدنيا تشدقاً بما كتب عنـها في التصوف» الرسالة ٩٧٢ «المجلد العشرون».

Twitter: @abdulllah1994

حائز على درجة الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة الحديثة وعندما سافر إلى بغداد يسأل هناك عما إذا كان ينوي التقدم لامتحان الدكتوراه الرابعة فيجيب بقوله: جواب هذا السؤال عند ابني العزيز سليمان مبارك فإن شاء الله أدبه وعقله أن يحمل عني خصوم الأهل فإنني سأهاجر في سبيل العلم إلى ألمانيا وإنجلترا. رحم الله الرجل فقد كان يود لو تيسر له أن يعيش طالب علم طوال حياته.

ونستطيع أن نؤكد أنه لو تيسر له ذلك فعلاً لفعل ولكن كيف؟!.

- ١٢ -

وفي سنة ١٩٣٨ دعته وزارة المعارف العراقية للتدريس في دار المعلمين العالية ببغداد، وكان وقتها ينوي السفر إلى باريس لمشاهدة المعرض الدولي. ويتردد قليلاً لأنه كان حريصاً على البقاء إلى جانب أولاده خوفاً عليهم من الحرية المطلقة إذا اغترب، لقد تلقى الدعوة بشيء غير قليل من السرور وكيف لا وهو ذاهب إلى العراق مهبط العلم وملاذ الحضارة القديمة. بلاد الكوفيين والبصريين، بلاد العمالقة الذين نشروا الثقافة الإسلامية في كل أرجاء العالم القديم. ولعله كان يطمح إلى أن يثير غبار المعارك الأولى هناك بعد أن غطى سماء مصر الأدبية بأشلاء ضحاياه. والحق أن صلة زكي مبارك بالعراق تعود إلى عهود دراسته الأولى يوم عني بالأدب العباسي، وشغل نفسه به أعواماً طويلة بأدباء العراق حتى أنه خاطب العراقيين ذات مرة قائلاً:

«وأنا في الواقع تلميذ بغداد قبل أن أكون تلميذ القاهرة أو باريس فإن رأيتم صراحتي فلا تلوموني فاللوم على أسلافكم الذين شرعوا مذاهب العقل والمنطق».

ولعلها كانت أمنيته التي طوفت بخياله منذ أمد بعيد فلقد غرب ورأى من ثقافة الغرب ما أرضى طموحه وأشبع نهمه العلمي ولم يبق إلا أن يندفع إلى الشرق كي يرضي خياله وروحه المتشوقة إلى زيارة هذه البقاع وكي ينقل معاركه ومذاهبه الأدبية إلى بغداد وطن أساتذته الأول في الأدب والفلسفة واستقر به

Twitter: @abdulllah1994

المقام في بغداد حاضرة الرشيد والمأمون بعد أن قوبل بالترحيب والإجلال في الأوساط الرسمية والأدبية هناك مما أعاد إليه الثقة في الناس تلك التي أوشك أن يفقدها في القاهرة حينما أوذي واضطهد وغبن.

وكانت رحلته العراقية هذه من أخصب أيام حياته حتى ليعد عام العراق (١٩٣٨) معلمًا بارزاً في بقية حياته التي عاشها منذ شغل مطبعتين في العاصمة العراقية كان عمالها يطرقون بابه مع الشروق ليقدموا إليه التجارب ويطلبوا الأصول فلقد كتب هناك «ليلى المريضة في العراق» في مجلداته الثلاثة ثم كتب ملامح المجتمع العراقي ومن وحي بغداد ثم كان خاتمة مؤلفاته التي أوحى إليه بها العراق تلك المحاضرات الفذة عن الشريف الرضي والتي طبعها في كتاب حينما عاد إلى مصر بعد إلقائها في كلية الحقوق ببغداد والتي لاقت كثيراً من التأييد والرضا.

ولقد شهد هو نفسه على نفسه أن بغداد كانت متنفساً كريماً له استطاع من خلاله أن يذيع عن طريقها إلى العالم العربي آراءه وأفكاره ومعارفه في كثير من جوانب الأدب والحياة وقد كان يرى أن مهمته في بغداد لم تقف عند حدود التدريس وإنما هي أعظم من ذلك وأبعد.

فهو سفير مصر هناك وحينما يعود يتخذ من نفسه سفيراً للعراق في مصر ولقد كان أثر إعجابه بالنهضة العراقية وقتها تلك الحملة الدائمة التي قام بها للدعوة؛ إلى إنشاء الجامعة العراقية وكان مما قاله في ذلك:

«هل تراني أفلح في دعوة الشعب العراقي إلى الصوم يوماً واحداً تكون أثمان طعامه في يوم واحد كافية لإنشاء جامعة تنافس الجامعة المصرية ولم ينس وهو هناك أن يراسل مجلة الرسالة التي كان قد اتصل بها عضواً عاملاً في تحريرها قبل سفره فنشر بها فصول كتابه «ليلى المريضة في العراق» وهناك لم ينسَ كذلك أن يزور الحواضر العراقية الخالدة فزار البصرة وطن الجاحظ والمبرد والحسن البصري وإخوان الصفا، ثم وصف غابات النخيل بها وزار الموصل وتغنى بسجع الحمائم الموصلية كما تغنى ببقايا السحر في بابل فيرسم صورة رائعة لتألق

Twitter: @abdulllah1994

القباب العلوية في النجف الأشهب والكرخ الجميل كما ألقى عدة محاضرات حول الثقافة العربية والوحدة والقومية في نادي المثنى والإذاعة العراقية وعندما كان مدعواً في مضارب (بني تيم) صرح بأن العراق أنساه مصر وعندما سئل عن سنتريس قال حتى سنتريس[1].

- ١٣ -

عاد مبارك من العراق بعد فترة وجيزة سنة ١٩٤٠ ليتابع عمله في تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف وليتابع جولاته العنيفة في المجلات الأدبية حتى أنه لم يترك أديباً من أدباء عصره إلا وجر نقاشه وحرك نوازع الخصومة في قلمه حتى أطلق عليه الزيات لقب «الملاكم الأدبي» في ثقافتنا الأدبية.

وقد بلغت به الجرأة أن ينشر في إحدى إفتتاحيات مجلة الرسالة[2] نقداً لخطاب العرش عام ١٩٤٤. ويبدو أن الزيات صاحب الرسالة كان في إحدى زياراته للمنصورة وقتها...

وتثور ثائرة رئيس الوزراء وهو المكلف بوضع الخطاب وكان وقتها المرحوم علي ماهر باشا، ويسارع فيقطع اشتراك الحكومة في الرسالة أو يكاد ويسارع الزيات كي يسوي الموقف ولكن رئيس الوزراء يرفض التسوية ويقول: «لقد قضيت تسع ساعات في تحرير خطاب العرش وهو مع ذلك (يعني مبارك) يريد أن أكتب كما يكتب الجاحظ».

وحاول كثير من المسؤولين في الوزارة أن يجبروه على الاعتذار في الرسالة

---

(١) الأمر الذي ما زلت أعجب منه هو أن الدكتور مبارك لم يمكث في العراق سوى عام واحد (١٩٣٨) بينما مكث غيره ممن سبقوه إلى العمل هناك ــ الزيات وعزام مثلاً ــ ثلاث سنوات تقريباً. فما السبب يا ترى الذي لم يجعل العراقيين يحرصون على تجديد عقده وهو الذي ملأ الدنيا تمجيداً للعراق وأهله؟ الحق أن هذا اللغز في حياة مبارك إذا انضم إلى لغز خروجه من الجامعة الأمريكية دون أن يفصح عنهما أو عن أحدهما على كثرة ما أفصح يجعلنا نقع في حيرة.

(٢) السنة السابعة المجلد الثاني.

Twitter: @abdulllah1994

حتى بلغ بهم الأمر أن هددوه بفسخ العقد بينه وبين وزارة المعارف فأصر على رأيه ولم يعتذر وقال قوله المشهور: «إني لا أعتذر عن مقال كتبته وأنا أعتقد أنه حق وللوزير أن يفسخ العقد فمن الفضيحة لوزارة المعارف أن يكون أحد كبار المنتسبين فيها موظفاً بعقد».

وبرغم أن الأمر تعدى الرسالة إلى إحدى الصحف اليومية الوفدية حينما نشرت نقده لخطاب العرش منقولاً عن الرسالة إلا أن الوزارة لم تستطع فصله خوفاً من إثارة الموضوع في الجرائد المعارضة وتمضي به الأيام ليزداد حدة وعنفاً فيهاجم النقراشي عام ١٩٤٦ وكان وقتها رئيساً للوزراء بسبب أمره بضرب الطلبة بالرصاص على جسر عباس بالجيزة. وتتعاون الظروف على معاكسته فيفصل من وظيفته في التفتيش في وزارة المعارف ويعود مرة أخرى إلى داره حيث لا رفيق سوى قلمه ولا معين سوى كلمة الحق أحياناً وكلمة الهجاء المقذع أحياناً أخرى والتي لا بد أن يذيعها مهما كلفه ذلك من مشقة ومهما أذاقه من حرمان.

وكان في هذه الأثناء قد هجر الرسالة إثر اختلاف وقع بينه وبين الزيات بعد أن سمح الأخير بنشر مقالات للأستاذ محمد أحمد الغمراوي في نقد كتاب النثر الفني ولذلك موضعه من البحث[1] فاتصل بصحيفة البلاغ وطفق يكتب فيها أحاديثه المفككة المهلهلة التي لا فرق بينها وبين الأحاديث العادية حتى أن النقاد اتهموه جميعاً بأنه ودع سحر بيانه وبريق فكره وأنه هبط إلى سفح بعد أن تربع على القمة زمناً طويلاً. ويعود إلى العمل في دار الكتب بعد أن تداركه الأستاذ علي أيوب ولكنه ظل شهوراً دون أن يقبض مليمًا واحداً، وكان الغرض على ما يروي الأستاذ الجندي[2] هو تجويع الرجل الذي عرف كرامة الموظف ودعاه محمد حسن العشماوي باشا بعد أن عاد وزيراً للمعارف إلى العودة للوزارة فرفض ويقول: «لن ندخلها ما داموا فيها».

وفي هذه الفترة الحرجة من حياته يقاضيه بنك مصر لدين عليه وتقاضيه

(١) ينظر الفصل الذي عقدناه تحت عنوان ــ «الزيات والرسالة»، ص ٢٤٥.
(٢) زكي مبارك حياته وأدبه، ص ١٧٢.

Twitter: @abdulllah1994

شركة مصر الجديدة وكان قد اشترى منها منزلاً، وتمتنع وزارة المعارف عن دفع إيجار المدرسة المقامة في منزله بسنتريس وتتشعب عليه الهموم من كل ناحية فعيل صبره واستسلم إلى الشراب[1] والاستخفاف إلى أن كانت نهايته الأليمة المرة التي ما كان ينتظرها أحد من المحيطين به. ثم يعود مرة أخرى إلى وزارة المعارف سنة ١٩٥٠ يعيده إليها الدكتور طه حسين وكأنه يستغفره بعدما قارب الستين عما حدث في مطالع الأيام.

حاول الدكتور عام ١٩٤٧ أن يعود إلى الحقل الشعري فجمع أشعاره التي نشرت قبل ذلك والتي لم تنشر وأخرج ديوانه «ألحان الخلود» وقدم له ولكل قصيدة فيه بمقدمات هي غاية في التفسخ والتفكك ورداءة الأسلوب ولعل مرد ذلك إلى أنه أخرج الديوان في الفترة القصيرة التي سبق أن تحدثنا عن جانب منها.

وقد علل الدكتور محمد رجب البيومي ذلك الانحدار الأدبي الذي مني به مبارك في أخريات أيامه فقال:

وأنا حين أعلل ما انحدر إليه الدكتور في خريف حياته من إسفاف أحيل ذلك إلى ما وقر في ذهنه من أن الأدب لا يبلغ ذروته إلا إذا كشف عن النزوات البشرية وجلا للقراء ما يكمن في أعماق الكاتب من رواسب هابطة وشهوات مسفة وذلك مذهب محرج لاحت بوادره بصورة خافتة قبل ذلك في بعض مؤلفات الدكتور ثم اشتعلت على صفحات البلاغ وفي ديوانه ألحان الخلود بنوع خاص[2]. أما أنا فأرى غير ذلك إذ أن السبب الوحيد في مفهومي الذي حدا بالدكتور مبارك إلى إسفافه المريع في السنوات الأخيرة من حياته يرتد إلى كثرة معاقرته للشراب فلقد ذهب الخمر بأكثر عقل الرجل فضلاً عن أنه أطفأ حيويته التي كانت مضرب الأمثال، ولعل السبب في إقباله المريع على الخمر في أخريات حياته هو ما أصيب به من غبن وبغي وعقوق، فقصة حياته كما رأينا معزوفة

(١) ينظر أثر الخمر على أدبه وحياته في هذا البحث.

(٢) الرسالة العدد ٩٧٢ السنة العشرون.

Twitter: @abdulllah1994

ضخمة في الظلم البالغ والآمال المحطمة فلقد تعرض إلى الفصل من الجامعة دون ذنب أو جريرة سوى أنه كافح وناضل في سبيل البحث والعلم حتى وصل إلى أبوابها بشرف وأمانة ثم تعرض للفصل مرة أخرى حينما تولى التفتيش بوزارة المعارف ثم أصيب بالتنكر من الأصدقاء الذين لم يقفوا معه في محنته فهو في كل مرة لا يجد من يقف خلفه ليقول كلمة حق يجب أن تقال وحينما يعود إلى التفتيش في المرة الأخيرة على يد طه حسين يجد الدرجة الثالثة في انتظاره وهي نفس الدرجة التي عينه عليها المرحوم زكي العرابـي باشا سنة **١٩٣٧** وكأن مرور ثلاثة عشر عاماً في العمل والسهر والسفر من أجل أعمال الدولة لا يتيح له الحق في الترقي درجة أو درجتين! وكأن ثلاث إجازات للدكتوراه وأربعين مؤلفاً لا تكفي لأن يتبوأ مكانته الصحيحة في بلده ومجتمعه!.

حقاً لقد عاش غريباً بين أهله مظلوماً بين ذويه فلم لا ينحدر ويسف ولم لا يغير رأيه في الناس الذين سبق أن أشاد بهم في مواضع من كتاباته ومقالاته وبين صفحات كتبه؟.

حادثة واحدة تبين لنا مبلغ الظلم الذي مني به الرجل لقد كان يرجو أن يتحسن وضعه في الوزارة بعد رسالته الثالثة عن التصوف الإسلامي ولكنهم قالوا له في الوزارة لا يمكن أن تحصل على الترقية إلا إذا طبعت الرسالة وقد كلفته الرسالة الضخمة ـ وهي تقع في مجلدين ـ أموالاً كثيرة حين أعد منها خمس نسخ خطية عند مناقشتها فكيف يطبعها وهو الرجل الفقير الذي يعيش من كد قلمه وقروش مرتبه. انظر إليه يقول في التعليق على ذلك: «حالي في مصر حال عجيب فقد عشت دهري مظلوماً وكان الظن أن يخف الظلم أو يزول بعد أن انتزعت الدكتوراه من أنياب الأسود، هل يصدق أحد أن وزارة المعارف المصرية لا تعطيني غير مرتب مؤقت إلى أن يطبع ذلك الكتاب؟ هل يصدق أحد أنني لا أستطيع التعبير عن قيمة ذلك المرتب المؤقت لئلا يعرف الناس أن رجال الأدب في مصر قد يعيشون عيش الفاقة والإملاق[1]؟

---

(١) نقلاً عن أنور الجندي، ص ١٧٥ (زكي مبارك ـ دراسة تحليلية).

Twitter: @abdulllah1994

ما زلنا ننتظر من الرجل أن يقول أكثر مما قال حتى نفسر انحداره المريع الذي اندفع إليه دون عاصم من عقل أو بقية من كياسة فانفجر وتحطم.

الخلاصـــة:

إن الدكتور زكي مبارك ــ رحمه الله ــ كان حركة دائبة ومؤثرة في الأفق الأدبي، وكان بلا جدل صورة مشرقة من صور الكفاح الشريف المثمر فلقد شرب المر من عصير الحياة ليحيله ــ وهذا تعبيره ــ إلى شراب حلو سائغ للشاربين، وهو أيضاً صورة رائعة من صور العصامية الفذة الطموح، اعتصم تجاه قلمه وثقافته ولم يعتمد في بناء حياته على جاه عظيم أو وزير، واعتمد في شق طريقه على ألقابه العلمية التي ناضل من أجلها ولم يعتمد عـلى رتبة أو منصب أو جاه ولو قدر له أن ينهي حياته كما بدأها لأعطى ثماراً أنضج مما أعطى في أخرياته ولكن القدر شاء أن يأسف عليه الناس مرتين مرة لما أصابه في أخريات أيامه من القلق والاضطراب، ومرة لرحيله الصامت المفجع بعد أن غطى صخبه وضجيج قلمه على أعين الناس وآذانهم فأفقدهم حتى معنى الوفاء وعاش الرجل في صخب ومات في ضجيج قلمه، ودفن في سكون ولم يبكه من الأصدقاء إلا قلة تعد على الأصابع.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمـر بمكـة سـامـر

وفي صبيحة الثالث والعشرين من يناير سنة **١٩٥٢** سكت الصوت المجلجل وصمت البلبل الطروب وصوح الغصن الريان وضم السكوت الأبدي في ردائه ذلك الثائر الفلاح الأزهري الجامعي الشجاع.



Twitter: @abdulllah1994

ملامح شخصيته

يستطيع الباحث أن يرسم صورة صادقة للدكتور مبارك من خلال معاركه وكتاباته؛ فالحق أنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة في حياته إلا أحصاها ولقد كان يصارح القارىء بكل ما في قلبه بل إنه كان يصارحه أحياناً بما لا يجب أن يقال ولعله الكاتب الوحيد بين كتاب جيله الذي أضرته صراحته فحطمت قلمه قبل الأوان.

فهو صاحب مذهب الصراحة ومجافاة النفاق في الكتابة بل إنه أولع بمهاجمة المنافقين الذين يظهرون غير ما يبطنون فهو يعلن رأيه في كل إنسان مهما كان هذا الإنسان وفي كل شيء مهما كان هذا الشيء أليس هو القائل «متى أشهد مصرعك يا عصر النفاق»؟ ولعل مرجع ذلك كما أوضحنا آنفاً ــ أنه احتفظ بطبيعة الفلاح في عنفه واندفاعه وحيويته فهو لا يعرف الأمر الوسط وإنما التطرف هو غايته تتحكم فيه عاطفته ومزاجه ويذهب به مذهب الرضا أو النفي ومن ثم جاء أكثر ما كتب ملوناً باللون الوجداني حتى في البحوث العلمية والفلسفية وتدعوه صراحته وشجاعته في الجهر بكلمة الحق أن يتراجع عن بعض مواقفه التي استبان وجه الخطأ فيها. من ذلك نقده لكتابه الأخلاق عند الغزالي. وهو يقول: إنه برأ نفسه عن المجاملة والنفاق المصنوع وأنه ترك لعقله الحرية ــ وهذا حق إلا أنها كانت حرية طاغية لا مهذب لها ولا ضابط وكأنه خلق كما يقول نقاده: (بدون فرامل).

ثم هو يمضي في فهم الحياة على هذا النحو المتطرف فيرى أن الشيطان مخلوق شريف لأنه لا ينافق فهو يعلن في كل وقت أنه من الضالين المضلين ولو

Twitter: @abdulllah1994

كشف كل إنسان عن سريرته كما كشف الشيطان لأصبحنا جميعاً من الملائكة لا من الشياطين.

وهو متهم عند أصدقائه أو أعدائه على السواء بإسرافه في الاتجاه العاطفي وتغليبه على الاتجاه العقلي وحينما يشعر بذلك يدافع عن نفسه بقوله: «أنا رجل مؤمن بأن القلب أدق ميزاناً من العقل ــ وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذ هوايته من الفطرة على حين لا يهتدي العقل إلا بالبراهين، وهي في الأغلب تقوم على مقومات لا تخلو من تضليل».

وهو بطبعه لا يحب الهدوء وإنما ينفر من السكينة ويبحث عن الضجيج يقول «الجنة لا تستهويني لأن الحياة فيها تخلو من المتاعب وأنا أكره الحياة الخالية من المتاعب مضيت مرة للبحث عن مكان هادىء في احد أحياء باريس فوجدت شيئاً كتب على بابه «هدوء مطلق» فانزعجت لأني أعرف أن الهدوء المطلق لا يكون إلا في مساكن الأموات».

ويقول في موضع آخر: «إن الجو الذي يثير الشاعرية في صدري هو الجو الحاد بالبرد أو القيظ أما الجو المعتدل فهو موسم خمود ولعل هذه الطبيعة هي السبب في أن يتسم أدبي بميسم الضعف والجموح.. والواقع أن الهدوء يزعجني والضجيج الخارجي ينبه العواطف».

وهو يعيش في حيرة دائمة كأنما هو غريب يخشى أن يواجه نفسه «ما رجعت إلى نفسي مرة إلا تهيبت اقتحام ما في شعابها من صخور وأشواك وقد وقفت مرة على ساحل النفس في ظلمات الليل فرأيتني عندها من الغرباء وكيف لا أكون كذلك وأنا منها على بعد سحيق».

وتمضي مسيرة غربته الروحية هذه فيشكو نفسه إلى الزمن ويشكو الزمن إلى نفسه فيقول: «أنا لم أنجح في شيء لأن استقلال إرادتي حال بيني وبين الاندماج التام في هيئة من الهيئات وأنا بين المؤمنين ملحد وبين الملحدين مؤمن وأنا بر عند الفجار فاجر عند الأبرار فأنا في كل بيئة أجنبي وفي كل أرض غريب».

Twitter: @abdulllah1994

ثم هو يقول: «أنا أطفىء المصباح بعد منتصف الليل وأفتح النوافذ لأرى كيف يهيم نور القمر فوق رمال الصحراء. . آه ثم آه من حيرة القلب في غفوات الليل».

أيها الليل خذ سوادك من قلبي إن أعوزك السواد خذ الظلام من حظي إن أعوزك الظلام خذ من قلبي ومن حظي ذخيرتك للأحقاب المقبلات ثم هو يقول: أنا أعيش بلا صاحب وبلا صديق، لأني رجل ليس له بخت ولأني رجل أغناه الله عن البخت فيشبع أصدقائي بما عندهم من أطايب البخوت.

أما الخمر فلها أثر خطير لا يستطيع الباحث المنصف أن يغفل النظر عنه فهي التي لونت حياته بلونها المتناقض فأحياناً هو باسم ضاحك يسخر من الناس في فكاهة حلوة وأدب ظريف، وتارة هو عابس يائس يسخر من نفسه ومن الأقدار ومرد ذلك في تصوري إلى الخمر التي كان يعبها عباً غير عابىء بثورة التقاليد أو تحريم الدين أو انتقاد الناس له ــ ولقد حدث معاصروه أنه كان يشرب أنواعاً رديئة من الخمر نظراً إلى ضيق يده وعدم تمكنه من دفع ثمن الشراب الممتاز.

ولقد بدأت قصته مع الخمر عندما شربها مع أحد أصدقائه الأشرار عقب نجاحه في الليسانس عام ١٩٢١ معنى ذلك أنه ظل يشربها أكثر من ثلاثين عاماً ويحسن أن نترك الكلام لزكي مبارك نفسه:

«إن للخمر فضلاً واحداً هو أنها كدرت حياتي، ولو كان الله نجاني من هذا الإثم لكنت اليوم من كبار الوزراء»[١].

وهو يعترف أن لعاب الخمر أخطر من لعاب الأفاعي والأصلال. . ويقول: (شربت الخمر أول مرة بعد أن اجتزت امتحانات الليسانس سنة ١٩٢١ شربتها مع صديق سخيف لا يستحق أن أغضب من أجله صاحب العزة والجبروت شربتها مع مخلوق رقيع يتوهم أن شرب الخمر من علامات المدنية). وأظنه هجرها زمناً أو هو قد تخفف منها فلقد عاد إلى الحديث عنها عام ١٩٣٠[٢] حينما

(١) ليلى المريضة في العراق.

(٢) نقلاً عن أنور الجندي ص ٥٧ (زكي مبارك دراسة تحليلية لحياته وأدبه).

Twitter: @abdulllah1994

أوجز رأيه فيها بقوله: «أنا لا أشرب الراح إلا مشعشعة مقتولة لا ترخي المفصل ولا تزيغ البصر ولا يسري روحها إلى قرارة الأسرار وليس لي منها يعلم الله صبوح أو غبوق إلا حين أبكي عهداً سلف أو أطرب إلى عهد مأمول وقد صحا القلب والحمد لله فلم يبق داع إلى معاشرة الشراب وتذكر الأحباب».

ولكن لم يمض على هذا الكلام غير سنوات قلائل حتى بدأ الرجل في معاقرة الخمر فيكون له فيها صبوح وغبوق.

وتمضي الأيام نحو النهاية وكلما اقترب منها زاد من الجرع وكأنه يتحدى الدنيا فيقترب مسرعاً من الآخرة ولقد جاء الوقت الذي أسرف فيه إسرافاً سريعاً حتى أصبحت ترخي المفصل وتزيغ البصر.

ولقد كتب محمد حمدي في ١٩٥٢/١/٢٩ وهو تاريخ يسبق وفاة زكي مبارك بأسبوعين في مجلة النداء مقالاً تحت عنوان «ثمن العلم» صور فيه حديثاً عجيباً جرى بينه وبين زكي مبارك تصويراً مريراً كان علامة النهاية في حياة خصبة ويعلن انطفاء عبقري نفاذ[١].

والشيء الذي يحيرني وما زلت أعجب منه هو كيف يجرؤ مبارك على أن يشرب الخمر علناً وجهراً أمام الناس جميعاً على قارعة الطريق ـ وإذا فسرنا هذا بأنه كان يتحدى المجتمع الذي تحداه فكيف نفسر كتاباته عن الخمر وتصريحه لقرائه وجلهم إن لم يكن كلهم من المؤمنين الموحدين بالله المعتصمين بهدي رسالاته هل كان يظن الرجل أن في ذلك تبريراً لهبوط أدبه في أيامه الأخيرة؟.

لقد قيل عن شوقي إنه كان ربيب كأس وقد صرحت بعض قصائده بذلك «رمضان ولى هاتها يا ساقي» ولكنه لم يصرح أبداً وهو الفتى الثري صاحب اللقب والجاه وربيب القصر بأنه كان يشربها على العكس كان ينفي ذلك جاهداً وهو الذي لم يثقف ثقافة الأزهر ولم يكن شيخاً مثل (المبارك) في يوم من الأيام ما الذي حدا بمبارك أن يصنع ما صنع؟ وأن يصرح بما ارتكب من آثام تحتاج إلى دراسة نفسية كاشفة؟.

---

(١) المصدر السابق ص ٥٨.

Twitter: @abdulllah1994

أما مرحه فقد ذهب فيه حداً بعيداً جعله يشتهر بأنه من أصحاب القلم المرح الذين يحملون بين طياتهم خصائص الفكاهة وحب النكتة ولعل أقوى مرحه تلك الصورة التي رسمها لنفسه عندما نزل إلى خليج إستانلي بثوب البحر حيث لقي هندياً يقرأ الكف فناقشه في صناعته واستطاع أن يجمع الناس حوله ويجعلهم ينفضون عن الفقير الهندي فقد أعلن لهم أنه يستطيع أن يقرأ الكف وأنه حصل على شهادة في علم الكف من باريس.

ومن أقواله الساخرة المرحة: «لو كانت العيون تقتل لكان لي ضريح يزوره العشاق في باريس».

وعندما عاتبه تلاميذه قائلين كيف تسلم على طه حسين في الجامعة الأمريكية وهو الذي قال عنك وقال. كان رده عليهم ظريفاً إذ قال لهم: انتظروا حتى أخرج فأشتري لكم «بخمسة تعريفة» ذوق وأوزعه عليكم. كيف أجادل طه حسين أمام الناس؟!.

ولقد كان ضعيف الذاكرة ولعل هذا كان سبباً من الأسباب التي ورطته في المتناقضات الغريبة التي وقع فيها فهو أحياناً يمدح إنساناً في مكان ثم يعود إلى ذمه في مكان آخر وإذا برأناه من النفاق والرياء تحتم أن يكون هذا ضعفاً في الذاكرة ــ لذلك فلقد كان أحياناً يرسل الرأي في مكان ثم يعود إلى ضده في مكان آخر وهو يعترف عن نفسه بأن ذاكرته فيها شذوذ فظيع وضعيفة كل الضعف فيما يتصل بالأرقام والأعلام، وهي قوية كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعاني فأنا قد أتمثل حادثة بظروفها وأحوالها في غاية من التوفيق كأني شهدتها ولكني أنسى اليوم الذي وقعت فيه.

وهو بعد هذا كله وقبل هذا كله معتز بنفسه واثق في قدراته بل إننا لا نجد بين كتاب عصره من أعطى نفسه حقها من الإعزاز والتقدير مثلما فعل هو[١] وسطور كتبه بل وكلماته ومؤلفاته كلها شاهد على هذه السمة، أليس هو

---

(١) كان المرحوم الأستاذ العقاد ممن يعتزون بأنفسهم ويقدرونها ولكنه لم يك مبالغاً.

Twitter: @abdulllah1994

القائل: «كان يجب أن يكون في مصر كاتب يفكر وهو متحرر من العبودية لمن في أيديهم الرفع والخفض وأنا ذلك الكاتب».

ولن نمضي معه طويلاً في هذا الباب لأنه يمثل كل ما أنتج ولسنا في موقف تحليل لإنتاجه وإنما نحن بصدد بعض المعارك.

أما المرأة فله فيها رأي تطوى معه من حال إلى حال فهو يعشقها ولقد سبها في أوائل حياته حتى دار أغلب ما كتب في هذه الفترة حولها ـ ولكنه عاد في النهاية فشن عليها هجوماً عنيفاً يحتاج وحده إلى دراسة معمقة تضع النقاط على بعض الحروف الغامضة ولا شك أن هذا الجانب ينتظر الباحث الشجاع الذي يكشف اللثام عما عجزنا نحن عنه.

بقي أن نذكر أنه كان صاحب مبادىء ولم يكن قط من تلك الطائفة التي قال الله فيها ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾[1] وإنما هو نسيج وحده بين كتاب عصره فهو يؤمن أن الكاتب لا يعدو كاتباً إلا إذا استطاع لكل سطر ولكل حرف أن يعرض قراءه إلى الاشتباك في حروب مع المعاني والآراء والأهواء وهو يرى أن الصدق في الدنيا غريب. وأنا في الدنيا غريب.. ويبلغ به الحال إلى أن يقول: «أنا أؤمن بأنه لا يمكن لأحد أن يكون أكتب مني إلا إذا استطاع أن يكون أصدق مني ومن المستحيل أن يكون في الدنيا أحد أصدق مني وبودي أن أقف معه دقيقة هنا لأتبين منه حد الصدق الذي يتوخاه ـ إن في حياة الإنسان من الأسرار ما لو نشره على الملأ لعد مجنوناً رسمياً؛ لأنه بعمله هذا يمهد لدولة الجنون أن تنشر ظلها على الأرض ـ وأشهد الدكتور مبارك على نفسي أني كلما قرأت اعترافات جان جاك روسو أو شارل بودلير أو مدام بوفاري تقززت نفسي وكرهت الإنسان في لحظة ضعفه ـ أما الصدق الذي يجب أن ينشر فهو ذلك الذي يصور اللحظات المضيئة المشرقة لا اللحظات المظلمة الحالكة.. هو ذلك الذي يبرز الثمار الطيبة الناضجة لا الذي يبرز الثمار الفجة العفنة.

---

(١) سورة التوبة الآية ٥٨.

Twitter: @abdulllah1994

ثم هو يؤكد أن غايته في حمل القلم ليست الانتفاع المادي. ولو كان غايتي الانتفاع المادي لسلكت سبيلاً غير هذا السبيل وللأقلام ميادين تصل بأصحابها إلى الثراء العريض. كذلك فهو يؤمن بأن على الكاتب أن يبدل آراءه وأن يطورها مع الزمن بحيث لا تتجمد ولا تتبلد، ولا تتعارض مع الحياة في خطوها إلى الأمام ويرى أن ليس في ذلك عـار أو خطأ يقول: «يجب أن تنظر إلى آرائك كما تنظر إلى أثوابك فالآراء تبلى كما تبلى الأثواب فالذي يعيش على رأي واحد قد يكون أجهل من الذي يعيش بثوب واحد».

ولم يبين لنا الدكتور ــ رحمه الله ــ إلى أي مدى يذهب الكاتب في تعبيره عن رأيه. هل يذهب إلى الحد الذي يجعله أشبه ببندول الساعة لا يكاد يستقر حتى يتحرك. أم إلى الحد الذي توجبه الأمانة العلمية في تغيير النظريات كلما تغيرت الفروض.. إننا لو أطلقنا الحبل على الغارب ــ كما يعبرون لهدم كل باحث ما وصل إليه لمجرد أنه ارتأى رأياً جديداً قد يكون غير صحيح أو قد يكون غير صالح لأن ينشر على الملأ ولنضرب مثلاً:

إذا عاد العقاد فأكد أن كل ما رآه هو ورفاقه في الديوان خطأ من أساسه وأن كل التلاميذ الذين اتبعوه مخطئون واهمون لكان معنى ذلك أنه يهدم أدب جيل كامل كي يرضي نزوة رجل.

الخلاصــة:

إنه أديب صنعه زمنه وكونته تجاربه فهو ابن مصر الخالدة، وهو ابن الأزهر الشامخ، وهو ابن الجامعة البكر وهو تلميذ السربون النجيب، الصامد أمام كل المغريات وهو حبيب بغداد وعاشق العراق ــ وهو بعد هذا ابن سنتريس الفلاح الذكي الذي عاش وفياً لمبادئه فامتاز بالصراحة والوضوح والصلابة والجرأة والعاطفة ــ وكلها صفات تحسب في منابع ثقافته كما أوضحنا فلقد علمه الريف الصلابة والصراحة وشدة الاندفاع وأفاده الأزهر قوة الجدل وشدة العناد وتفريع القضايا وتشقيق الآراء وتفسيخ الكلمات فأضاف ذلك إلى صلابته وعنفه صلابة وعنفاً جديدين. ثم أخذ من الجامعة المنهج العلمي فصوب نحو البحوث

Twitter: @abdulllah1994

العلمية أدبية وفلسفية بعد أن كان في الأزهر شاعراً وراوية للشعر إلى أن تلقفته باريس فأضافت إلى ثقافته الأزهرية الأصيلة لوناً من العلم جديداً، ومنهجاً من البحث يتميز به السربون عن كل جامعات العالم فعاد من هناك مصقولاً مهذباً ــ إلى حد ما وإن كان لم يفقد طعمه السنتريسي الأصيل.

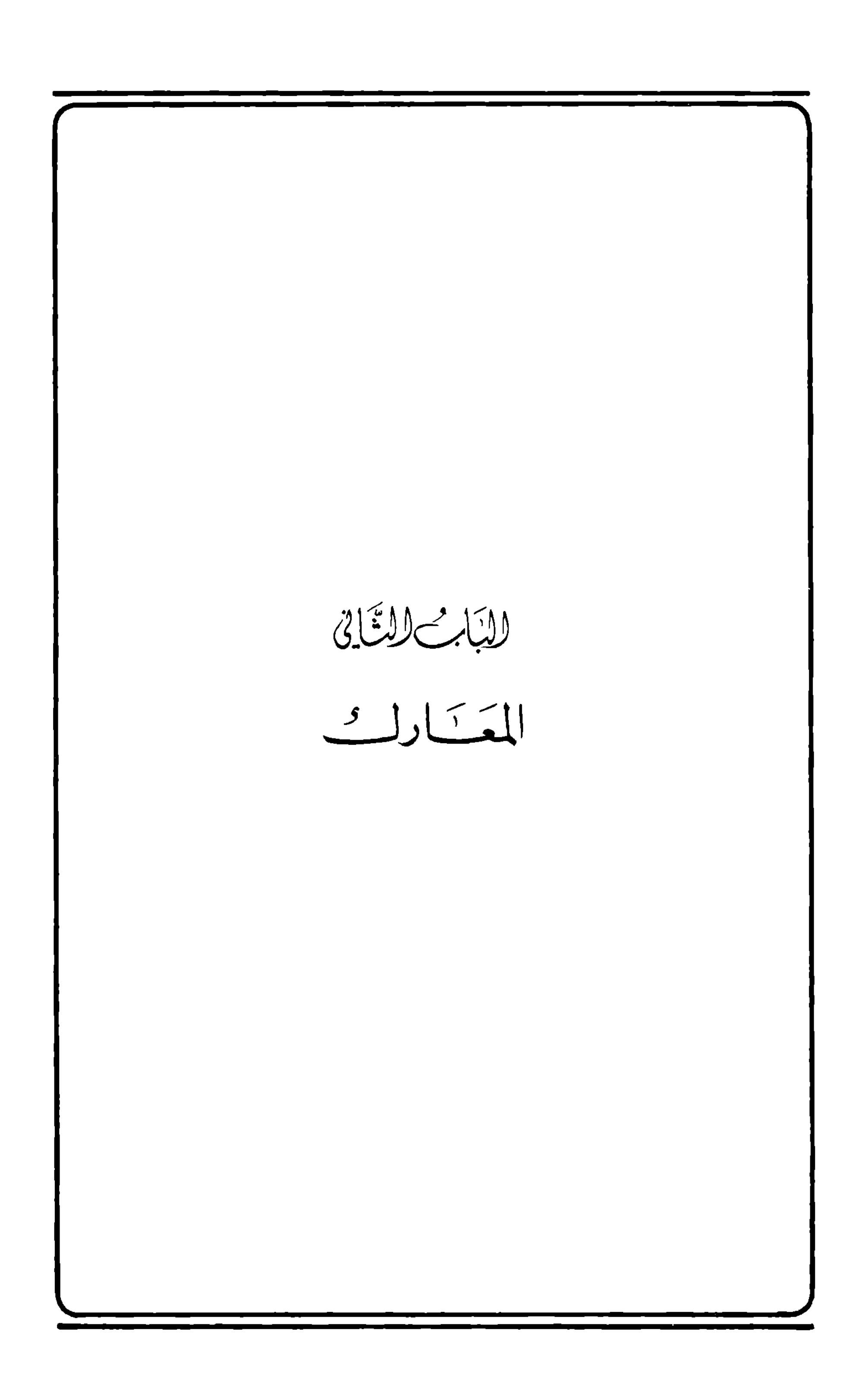
أما العراق فقد أخصب أدبه وأضاف إليه عمقاً وأصالة ولقد كانت بمثابة السماد يزيد الأرض القوية خصوبة ويعطيها قوة، فأفاد منها الكثير مما بـدا بعد في أدبه. ويبدو أنه لقي هناك ــ في الوطن الشقيق ــ ما فقده هنا في الوطن الأم. لقد وجد هناك الحب والتقدير والرعاية بينما لقي هنا صنوف الحرمان والإهمال والظلم ومن أهوال الحرب والنضال في سبيل الرزق ما أفقده الثقة في كل شيء حتى أوشك على قتل نفسه مثلما فعل في أخريات حياته ــ ولقد سبق أن قلت: إن العراق آخر النهاية الأليمة لزكي مبارك ــ فهو إنسان جذوته الحب ووقوده الأمل وويل لنفسه إذا ضعفت الجذوة أو غاب الوقود.

إذا أضفنا هذا إلى طبيعة العصر الذي عاش فيه زكي مبارك وقد وضحنا جانباً منه[1] ــ استطعنا أن ندرس المعارك ونحن على بينة من أمرنا.. نسأل الله التوفيق.

□□□

(١) ينظر الفصل الأول من الباب الأول في هذا البحث، ص ٢٧.

Twitter: @abdulllah1994



الباب الثاني

المعارك

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdullllah1994

خصومات موضوعية

تمهيد:

من العسير إلى حد ما أن يستطيع الباحث «المنفرد» الإلمام برصد معارك زكي مبارك التي دارت بينه وبين معاصريه فلقد كانت جبهات الرجل متعددة وخصوماته متنوعة حتى ليعد بحق من أكثر معاصريه وغير معاصريه ثراء في هذا الجانب.. هذه واحدة.. أما الأخرى فإن أغلب هذه المعارك مشتت بين بطون الدوريات القديمة والتي لا يتيسر اقتناؤها أو الاطلاع عليها بسهولة تساعد على الاستقصاء.. ولذلك اكتفينا في بحثنا هذا بعرض بعض النماذج لأشهر المعارك متوخين من خلال هذا العرض بأن نعطي الملامح النهائية للقضية التي نحن بصددها فليس المراد الاستقصاء وإنما المراد الرصد والتحليل ومعايشة نبض بعض المعارك بهدف تجلية النموذج.

مفهوم المعركة:

والآن يحسن بنا أن نحدد مفهوم المعركة حتى نكون على بينة من أمرنا قبل أن نلتقي بالمتجادلين في ساحة الخصام والعراك.

المعركة الأدبية في ــ مفهومي ــ تختلف عن الحوار العلمي فالحوار العلمي إنما يدور حول مسألة متفق عليها بعض الاتفاق أو بمعنى آخر متفق على الأسس ويدور الاختلاف على بعض التصاريح الجانبية.

أما المعركة الأدبية وكذا المعركة الفكرية فهي تلك التي تختلف حولها وجهات النظر المتعاركة فهذا يرى ما لا يراه صاحبه ولهذا معتقد يختلف كل الاختلاف عن معتقد زميله.

Twitter: @abdulllah1994

كذلك فليس المعارك هو الذي يثير الضجيج حوله وينشر الغبار دون أن يجد لنفسه غاية أو يتخذ لقلمه منهجاً أو يحقق من وراء معاركه هدفاً معيناً ــ تلك ــ في مفهومي ــ طبيعة «المهرج» الذي يبتغي أول ما يبتغي شد الأنظار إليه. . .

والمعارك الحق هو ذلكم الفارس الذي يحرك أفكاره كما يحرك قائد الجيش جنوده ــ والقائد الممتاز في ميدان الحرب يرد امتيازه دائمًا إلى هذه الحيوية ــ التي يجدد بها خططه كي يصل في النهاية إلى ما أراد الوصول إليه بعد أن رسم الخطة وحدد الهدف ــ وكذلك يكون الكاتب الناجح والمفكر ذو البصيرة ــ لا بد من تحديد الهدف ورسم الخطة أو الوسيلة التي تحقق الوصول إلى الهدف المراد.

لا بد من فكرة تدور حولها المعركة، ويعمل المعارك من أجلها وإلا أصبحت كلماته جعجعة لا طحن وراءها أو رياحاً تثير الغبار ولا تنفع الناس.

على هذا المفهوم سنمضي في تحديد وفهم الروح العامة التي كان يصدر عنها زكي مبارك في معاركه.

وعلى ضوء ذلك سنحاول استخلاص النتائج.

أما مفهوم الدكتور زكي مبارك لمعاركه أو للمعارك بصفة عامة على أنها من جملة الفنون التي يمكن أن تشيع النشاط والحيوية في الحياة الأدبية المعاصرة آنذاك ــ والأدب دائمًا ــ كما يرى الدكتور مبارك ــ يحتاج إلى تجديد وحيوية وإشاعة روح الحركة فيه فقد نظر ــ كما قال ــ إلى الحياة الأدبية فوجدها (راكدة) أبشع الركود، وأن الآداب الأجنبية تحتل أفئدة شبابنا احتلالاً أخطر من احتلال الإنجليز للثغور والمطارات، وأن أدبنا في حاجة إلى حياة، وأن الحياة لن يصل إليها إلا عن طريق المشاركة القاسية التي تجمع بين الألم والشقاء ــ ثم يخاطب ــ أدباء عصره قائلاً: «فلا تحقدوا إن دعوتكم للنزال، فقد تأتون بالبدع الطريف حين تغضبون»[1] وعلى الرغم من هذه النظرة المسطحة إلى مفهوم المعركة فلن

---

(١) مجلة الرسالة: ١٠ مارس ١٩٤١م.

Twitter: @abdullllah1994

نتخذها حجة على زكي مبارك مع أنها تحسب في رصيد المآخذ، لأنه ـ رحمه الله وغفر له ـ استطاع في كثير من الخصومات أن يتطرق إلى تصحيح أو تصويب كثير من المفاهيم الخاطئة في مجال ثقافتنا المعاصرة ـ وسيتضح ذلك خلال هذا الفصل الذي نمهد له أيضاً فقد استطاع أن ينافح ويدافع عن كثير من القيم والمبادىء التي ترتكز عليها ثقافتنا التراثية في مواجهة الثقافة الوافدة. . . ويبدو أن غلبة الحماس والفخر وادعاء الأوليات جعل (مبارك) لا يكاد يحفل بتسجيل الهدف الأساسي من معاركه وخصوماته.

أشرنا في الفصل الأول من الباب الأول في هذه الرسالة إلى سيطرة الاتجاه «المعاركي» إن صح هذا التعبير بين حماة القديم ورعاة الجديد ثم بين المحافظين أنفسهم، كما دارت بين المجددين أنفسهم أيضاً[1] ولا شك أن تلك المساجلات الأدبية والفكرية بين عمالقة الجيل ـ جيل زكي مبارك جعلت العصر يحفل بحركة وحيوية ونشاط غير عادي كما أشار إلى ذلك زكي مبارك فيما أسلفناه من كلماته في مجلة الرسالة.

ولقد كانت مساجلات مبارك مع معاصريه ـ من الثراء ـ كما أشرنا سلفاً مما يجعلنا نقتصر على أبرز المعارك ونعرض عن البعض الآخر وحسبنا أن نشير إلى أن المعارك لم تترك مجالاً من مجالات الفكر أو مفهوماً من مفاهيم الثقافة لم يدخل حلبة صراعهم الفكري ـ في الصحافة المصرية ـ بين التأييد والمعارضة، لذا شملت معاركهم أنواعاً عديدة من قضايا الفكر المعاصر مثل القومية العربية واللغة العربية ومناهج الثقافة والأسلوب والمضمون والآراء والمذاهب ونقد الكتب وفكر المجددين والمحافظين والتيارات المعاصرة وما إلى ذلك من قضايا[2].

ومعذرة إذا لم نتتبع الترتيب الزمني في إيراد المعارك فقد جرينا في تناولها

---

(١) ينظر فصل «ملامح العصر الثقافية» من هذا البحث، ص ٢٧.

(٢) ص ٧٦ «زكي مبارك صحفياً» رسالة ماجستير قدمت إلى كلية اللغة العربية بالقاهرة من إعداد محمد عبدالحكيم محمد عبدالجليل (أبريل ١٩٨٤).

Twitter: @abdulllah1994

على ترتيب نوعي خاص إذ قسمناها إلى خصومات موضوعية وخصومات ذاتية ومحاورات هادئة فتداخلت من الوجهة الزمنية مما يجعلنا نعتذر عن الالتزام بالنهج الزمني.

أما الهدف من تقسيم المعارك إلى أقسامها الثلاثة (موضوعية ــ ذاتية ــ محاورات هادئة) فقد أفصحت عن ذلك كاشفاً وموضحاً في فصل المدخل التمهيدي لهذا البحث[1].

□ □ □

(١) تنظر ص ١٥ وما بعدها من هذا البحث.

Twitter: @abdulllah1994

طه حسين والنزعة اليونانية
ومستقبل الثقافة في مصر

تمهيـد:

هذه واحدة من الخصومات الفكرية بين الدكتور طه حسين والدكتور زكي مبارك يرتفع فيها الجدل العلمي الجاد حتى يطغى على الخصام النفسي العنيف ولقد استطاع زكي مبارك أن يقف موقف المدافع الأصيل عن الحضارة العربية وعن الثقافة الإسلامية مستنداً إلى حجج قوية شهدت بصدقه في هذا الدفاع وقوة عارضة أيضاً. . .

بدأ الدكتور طه ــ كعادته في تطعيم ثقافتنا بالجديد من الآراء فحمل الدعوة ــ مبهوراً إلى سيادة النزعة اليونانية في الثقافة والفكر وقال فيما قال: إن الناس في الشرق والغرب وفي جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونـان وقـال كذلك: «إن عقلية مصر عقلية يونانية. . .».

وقـال في مقال له بالهلال: نعتقد ونظن أن غيرنا من مؤرخي الفلسفة الحديثة يعتقد أيضاً أنه لم يكن للشرق في تكوين الفلسفة اليونانية والعقل اليوناني تأثير يذكر وإنما كان تأثير الشرق في اليونان تأثيراً عملياً مادياً ليس غير»[1].

ومعنى ذلك ــ في وضوح ــ أن الدكتور طه حسين ينـظر إلى العقل العربـي والفكر العربـي من زاوية الانهزام أمام غيره من الثقافات القديمة والأوروبية منها بصفة خاصة فهو يتأثر ولا يؤثر ولعله غفل عن عمد عن حضارة

---

(١) مجلة الهلال المجلد ٣٣ عام ١٩٢٥م.

Twitter: @abdulllah1994

الإسلام وما أحدثته في الشرق والغرب من هزة فكرية عنيفة، ثم عاد ـ أعني الدكتور طه ـ وكرر هذا الرأي في كتابه «قادة الفكر» ١٩٢٦ ثم عاد فجدده في مقالات الهلال ١٩٣٩ ثم توسع فيه مرة أخرى في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» والذي طبع عام ١٩٣٨م.

ولكن الأمر لم يسلم له فقد انبرى له رشيد رضا في المنار سنة ١٩٢٦ فرد عليه وعلى الحواريين الذين التفوا حوله فأيدوه وناصروه واتبعوا الرأي الذي جاء به. ومن هؤلاء إبراهيم المصري الذي ذهب إلى تفضيل الشعر اليوناني على الشعر العربي وقال: إن الشعر اليوناني يسبق الشعر العربي بقرون فهو مطعم بفلسفات شهد لها العالم أجمع منذ زمن بعيد.

ورد عليه الأستاذ رشيد رضا على صفحات المنار فأكد له أن الشعر اليوناني دون الشعر العربي في حكمه وسائر معانيه[1].

ويتعقب الدكتور زكي مبارك ـ كدأبه ـ أستاذنا الدكتور طه حسين فيرد عليه في البلاغ ١٩٣١، ١٩٣٢[2] وقتما كان الدكتور طه يبث آراءه. ثم يعود الدكتور مبارك ليجدد الحملة ثانيةً حينما يصر الدكتور طه على آرائه فيخرج كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» بل وقرر كتاب «قادة الفكر» في مسابقة على طلاب المدارس الثانوية وهو محشو بهذه الآراء ممجداً هذه النزعة الفكرية اليونانية. ويجد الدكتور مبارك أن واجبه الفكري يحتم عليه أن يشرح الكتاب وأن يرد على دعاويه ولقد كان موفقاً في العرض الأمين والرد العلمي ـ ولعل الواقع الذي حدا بالدكتور مبارك إلى أن يحتمي بالواجب الفكري الذي دعاه إلى نقد كتاب الدكتور طه هو ما وجده من فرصة طيبة مواتية يستطيع فيها أن يضرب خصمه ضرباته القوية التي كان يظن أنها ستكفل له الفوز في النهاية ما دام الشعور القومي سيؤيده ويقف بجانبه.

---

(١) المنار الجزء الخامس المجلد ٢٧، ص ٣٩٧ (أبريل ١٩٢٦م).

(٢) اكتفينا بتلخيص ما جاء في نقد كتاب «قادة الفكر» المنشور بالرسالة ١٩٤٣.

Twitter: @abdulllah1994

نصوص المعركة:

يقول الدكتور طه حسين في مجلة الهلال (المجلد ٣٣) تحت عنوان «بين الشرق والغرب».

- ١ -

١ ـ يجب أن نلاحظ أن العقل الإنساني ظهر في العصر القديم بمظهرين مختلفين أحدهما يوناني خالص هو الذي انتصر وهو الذي يسيطر على الحياة الإنسانية إلى اليوم وإلى آخر الدهر. والآخر شرقي انهزم مرات أمام المظهر اليوناني وهو الآن يلقي السلاح ويسلم للمظهر اليوناني تسليمًا تاماً.

٢ ـ بينما نجد العقل اليوناني يسلك في فهم الطبيعة وتفسيرها هذا المسلك الفلسفي الخصب الذي نشأت عنه فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس ثم فلسفة ديكارت وكانت وهيجل وسبنسر نجد العقل الشرقي يذهب مذهباً دينياً خالصاً في فهم الطبيعة وتفسيرها فلم يستطع العقل الشرقي أن يظهر شخصية فلسفية قوية في فهم العالم وتفسيره وإنما خضع للكُهَّان في عصوره الأولى وللديانات السماوية في عصوره الراقية.

٣ ـ وهناك شيء آخر نجده عند اليونان ولا نجده في الشرق وهو هذا التطور السياسي الخصب الذي أحدث النظم السياسية المختلفة في المدن اليونانية من ملكية وجمهورية أرستقراطية وديمقراطية معتدلة أو متطرفة والذي لا يزال أثره قوياً في أوروبا إلى اليوم وإلى آخر الدهر والذي أخذ الشرق يتأثر به في نظم السياسة أيضاً.

- ٢ -

ثم يعاود الدكتور طه الحديث عن العقل العربي الحديث في مجلة الهلال[1] فيقول:

---

(١) مجلة الهلال العدد الخاص بالإسلام أول أبريل ١٩٣٩.

Twitter: @abdulllah1994

«الشيء الذي لا أشك فيه وما أظن أحداً يشك فيه هو أن لوناً من ألوان العقل قد ظهر في عصر من عصور التاريخ القديم في بلاد اليونان وتجاوز حدود هذه البلاد في بعض الأوقات حتى كان الإسكندر المقدوني فخرج بهذا العقل فاتحاً للشرق القريب والبعيد محاولاً أن يقره وأن يبسط سلطانه عليه ونجح الإسكندر نجاحاً عظيمًا في مهمته هذه بالقياس إلى الشرق القريب بنوع خاص وقد استطاع العقل اليوناني أن يستقر في هذا الشرق ويمازج نفوس أهله حتى يصبح جزءاً منها ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا العقل مقياس الحضارة في أي أمة من الأمم الشرقية القريبة كما أصبح مقياس الحضارة في الأمم الغربية نفسها فالأمة متحضرة راقية إذا أخذت بتراث العقل اليوناني وشاركت فيه وأضافت إليه. والأمة غير متحضرة أو هي غير مشاركة في الحضارة الإنسانية الممتازة إذا أعرضت عن هذا التراث فلم تأخذ به ولم تلتفت إليه ولم تجعله أصلاً من أصول حياتها المقومة لها وما من شك في أن هذا العقل قد كان مقياساً لحضارة الأمة العربية بعد أن هديت إلى الإسلام وقال التاريخ: إنها بلغت ما استطاعت أن تبلغ من الحضارة الراقية المزهرة أيام بني العباس حين عرفت فلسفة اليونان وعلمهم وفنهم الرفيع وفنونهم التطبيقية أيضاً وحين شاركت في هذا كله نمته وأضافت إليه.

ثم قال التاريخ: إنها أخذت تخلص من هذا الجمود والهمود وتسترد حظها في الحياة والنشاط ونباهة الذكر في هذا العصر الحديث لأنها اتصلت بهذا التراث العقلي القديم الذي أهدته إلى أوروبا وأعرضت عنه وقتاً ما.

ثم يزعم الدكتور أن العقل العربـي لم يثمر ولم ينتج إلا بعد أن اتصل بعد الفتح بالأمم الأجنبية الأخرى.

ثم يقول: ــ مهما يكن من شيء فالعقل العربـي الإسلامي إنما نما وأثمر وأنتج حين اتصل بالعقل اليوناني بل حين امتزج به بل حين أساغه وتمثله وجعله مقوماً لنفسه ومشخصاً لحياته.

وينبري الدكتور مبارك للرد على طه حسين إبان دعوته الأولى لذلك في

Twitter: @abdulllah1994

محاضراته وكتاباته في مطلع الثلاثينيات فيقول في جريدة البلاغ[1] تحت عنوان «نزعة تمجيد اليونان»: «إن العرب لا يزالون أقوياء يخشى شرهم، وذكرياتهم الأدبية والعلمية والتشريعية مقرونة بالإسلام وكل إحياء لذكريات العرب خليق بأن يثير الزهو والكبرياء في نفوس الأمم الإسلامية وهم يعرفون ما صنعت تلك الأمم في الأيام الخوالي، وآثار العرب ترجع في صميمها إلى التشريع وهو من المعاني الجافة التي لا يقبل عليها غير أهل الجد من كبار الباحثين ولا كذلك آثار اليونان؛ فإن معظمها يرجع في جوهره إلى الأدب الصريح الذي يهيج الأهواء ويثير الشهوات حتى يمكن أن يقال: إن جميع الشهوات واللذات الجنسية أخذها الأوروبيون عن اليونان ولذلك يمجد الغرب ذكريات اليونان ولا يمجد ذكريات العرب».

– ٤ –

ثم يعاود الدكتور زكي مبارك الحديث على صفحات البلاغ[2]. قائلاً: «يرى الدكتور طه أن الأدب الذي يحتل المركز الأول في الآداب القديمة هو الأدب اليوناني ثم يجيء الأدب العربي.

ثم يقول الدكتور مبارك: إن من المجاملة المخدرة أن يعلن الدكتور طه أن الأدب العربي أقوى من الأدب الفارسي واللاتيني ويرد قائلاً: وإذا كان الأدب اليوناني في المكان الأول فإن الأدب العربي في المكان الأول أيضاً.

الأدب اليوناني له المكان الأول من الناحية القصصية والتمثيلية» وإنه في هذا الباب يمتاز امتيازاً صريحاً لا يقبل الجدل ولا النزاع.

والأدب العربي له المكان الأول من الناحية الدينية فإن البلاغة الدينية باب مهم من أبواب البلاغات في الأدب القديم والحديث، فقد شغل ثلاثمائة مليون في العالم شغلاً موصولاً بأروع أثر في البلاغة الدينية ممثلاً في القرآن،

---

(١) مجلد ١٩٣١.

(٢) مجلد نوفمبر ١٩٣٢.

Twitter: @abdulllah1994

وعندنا أدب الصوفية. أيستطيع باحث أن يزعم أن اليونان عندهم هذا الصفاء في الجوانب الروحية؟ أما الأدب العربـي فقد سكت عنه الأوروبيون عامدين لأنه يمثل الحضارة الإسلامية وهي حضارة كانت تبغي أوروبا هدمها منذ أزمان ولأنه من جهة ثانية مصبوغ في أكثر موضوعاته بصبغة الجد الرصين وأوروبا فتنت بما في الأدب اليوناني من ترف وطيش وخلاعة، بدليل أن أكبر شاعر شرقي راج في أوروبا هو عمر الخيام؛ لأنه شاعر اللذة والقلق والارتياب ويضاف إلى هذا أن يقظة أوروبا الحديثة اتفق وجودها في أزمان كانت فيها الأمة العربية منحدرة إلى مهاوي الضعف والخمول فلم تستطـع أن تقدم أدبها إلى العالم القديم تقديماً حسناً بقدر ما كان له من روعة وجمال.

ـ ٥ ـ

وحينما يظهر كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» للدكتور طه حسين سنة ١٩٣٨ يهيج الرأي العام المثقف ويعتبر الدكتور كتابه بمثابة غزو ثقافي غربـي للفكر العربـي والمصري على السـواء فتثور ضجـة كبرى ومعـارك متعددة وقد رد ساطع الحصري رداً علمياً مركزاً فنـد فيه مزاعم الدكتور طه واشترك الدكتور محمد كامل حسين وهو الذي طالما وقف إلى جانب الدكتور طه فقال: إن معظم هذه الآراء منقولة من دعاة التغريب الذين يهدفون وفق خطة شاملة إلى تغريب الفكر العربـي وتمزيقه والقضاء على مقوماته ومعالمه وأن طه حسين حاول أن يثبت أن مصر ليست جزءاً من الأمة العربية.

وبودي لو استطعت الوقوف إلى جانب الدكتور طه فنحيت عنه بعض ما رمي به ولكن ماذا أقول أنا الآخر بينما الكتاب قد أشاد من سطره الأول إلى سطره الأخير بتمجيد العقلية اليونانية وتفوقها على كل العقول والثقافات الأخرى أليس هو القائل: «التاريخ يحدثنا بأن رضاها» يعني مصر «عن السلطان العربـي بعد الفتح لم يبرأ من السخط ولم يخلص من المقاومة والثورة؟ وبأنها لم تهنأ ولم تطمئن إلّا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة في ظل ابن طولون فلما كان فتح الإسكـنـدر للبلاد الشرقية واستقرار خلفائه في هذه البلاد واشتد اتصال

Twitter: @abdulllah1994

الشرق بحضارة اليونان اشتد اتصال مصر بهذه الحضارة بنوع خاص. وأصبحت مصر دولة يونانية»[1].

ويحسن أن لا نقحم شيئاً في معرض الدفاع أو الهجوم كما يحسن أن نترك قلم زكي مبارك ليحدثنا مدافعاً ومنافحاً[2].

يا دكتور؛ قلت: إن عقلية مصر عقلية يونانية وصرحت بأن الإسلام لم يغير تلك العقلية في حين أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهي مؤمنة بالعقيدة الإسلامية، والأمة التي تقضي ثلاثة عشر قرناً في ظل دين واحد لا تستطيع أن تفر من سيطرة ذلك الدين. إن الإسلام رج الشرق رجة أقوى وأعنف من الرجة التي أثارتها الفلسفة اليونانية.

إن الديانات تفترق ثم تجتمع وهي في روحها تحدث الناس بأسلوب واحد في أوقات الضعف. ولكن هذا لا يمنع من أن هناك خصائص للعقلية الإسلامية والعقلية المسيحية.

كيف جاز عندك أن تتوهم أن الإسلام لم يغز العقلية المصرية ولم يصبها بتغيير أو تبديل، أنا لا أنكر أن مصر ورثت من علوم اليونان ولكني لا أنكر أن تكون مصر عاشت بعقلية واحدة منذ آلاف السنين إلى اليوم.

في الحق أن المصريين في حياتهم الإسلامية شغلوا أنفسهم بعلوم اليونان أكثر من عشرة قرون، ولكنك وقد جلست على صحن الأزهر كما جلست تعرف أن المصريين لم يتذوقوا تلك العلوم، والأزهر لا يزال باقياً. أنا لا أنكر قيمة التراث الذي خلفه اليونان القدماء ولكن أرتاب في أنه وصل إلى إيقاف العقلية المصرية.

أنت تعرف فيما تعرف أن الفقه الإسلامي نفسه كان يتغير بالانتقال من أرض إلى أرض فكان للشافعي مذهب في مصر ومذهب في العراق ومعنى ذلك أن العقليات تتغير من وقت إلى وقت باختلاف ظرف المكان.

---

(١) نقلاً عن: «المعارك الأدبية» لأنور الجندي، ص ٤١٠ (مصدر سابق).

(٢) الرسالة ٢٣ يناير ١٩٣٩م.

Twitter: @abdulllah1994

والموجة الإسلامية التي طغت على مصر فنقلتها من لغة إلى لغة ومن دين إلى دين والتي قضت بأن تنفرد مصر بحراسة العروبة والإسلام بعد سقوط بغداد، هذه الموجة الصافية لا يمكن أن يقال: إنها لم تنقل مصر من العقلية اليونانية إلى العقلية الإسلامية.

ولكن ما هي تلك العقلية الإسلامية؟ هي لون آخر غير العقلية اليونانية بلا جدال.

أقول هذا وأنا أشعر بأني أزحزحك تماماً عن موقفك ولكني موقن بأني عرضت صدرك لشبهات ستوجب عليك الحذر حين تتكلم في هذا الموضوع مرة ثانية وأنت تعرف ما أعني.

ـ ٦ ـ

وفي سنة ١٩٤٣ قررت وزارة المعارف كتاب «قادة الفكر» لطه حسين على طلابها في مسابقة الأدب العربي التي كانت تنظمها سنوياً، ويعلن الدكتور زكي مبارك عن تقديم تلخيصات لكل كتاب من الكتب المعلن عنها مساعدة منه للتلاميذ وتقريباً للأفهام، وأن ذلك سيكون على صفحات الرسالة، ويتصيد للدكتور طه الغلطات ولكنه والحق يشهد كان منصفاً غاية الإنصاف فلم يبخل عليه بكلمة ثناء اقتضاها موضعها، كذلك فهو يرد رداً علمياً واعياً أميناً على القضايا التي أثارها الدكتور طه بشأن الثقافة اليونانية والتي سبق أن قلنا إنه أغرم بترديدها على صفحات مقالاته وكتبه زهاء عقدين من عقود هذا القرن الذي نحياه وسنحاول أن نجتزىء نتفاً مما قاله مبارك في الرد على الدكتور طه[1].

١ ـساير الدكتور طه الباحثين الأوروبيين في القول بأن الثقافة اليونانية هي مصدر الثقافة الإنسانية وأن الناس في الشرق والغرب وفي جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونان.

---

(١) الرسالة ١٥ نوفمبر ١٩٤٣م.

Twitter: @abdulllah1994

والحق أن للدكتور عذراً في هذه المسايرة فقد قرأ كتباً ترى هذا الرأي، ولو أنه تريث لعرف أن هنالك كتباً أجدر من تلك الكتب بالتلخيص. وهي التي ترى أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية، وأن فلاسفة اليونان لم يكونوا إلا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء.

وأنا لا أسوق هذه المؤاخذة تعصباً لبلادي، فاليونانيون أنفسهم يعترفون بأنهم تلاميذ المصريين وكانت زيارة مصر واجبة على كل يوناني يريد التفقه في أسرار الوجود.

أستاذية مصر الفرعونية لليونانية الوثنية ليست أسطورة من الأساطير بل هي حقيقة من الحقائق وإن أراد الدكتور طه أن يساجلني فأنا حاضر للسجال. وقد سجل في كتابه «مستقبل الثقافة»: إن عقلية مصر عقلية يونانية وأنه لا بد من أن تعود مصر إلى احتضان فلسفة اليونان.

٢ ــ زعموا أن الدكتور طه يعترف بظهور الحضارة الشرقية القديمة التي لا تزال تبهرنا حتى الآن قبل أن تكون الحضارة اليونانية شيئاً مذكوراً، وزعموا أن الدكتور لا ينكر أن الأمة اليونانية من غير شك تأثرت بالحضارات الشرقية المختلفة وأخذت عن الساميين في آسيا وعن المصريين في أفريقيا أشياء كثيرة مختلفة.

٣ ــ يقول الدكتور: «نعتقد ونظن أن غيرنا من مؤرخي الفلسفة المحدثين يعتقد أنه لم يكن للشرق في تكوين الفلسفة اليونانية والعقل اليوناني والسياسة اليونانية تأثير يذكر إنما كان تأثير الشرق في اليونان تأثيراً مادياً عملياً ليس غير».

فقد أخذ اليونان عن الشرقيين أشياء كثيرة ولكنها عملية مادية ــ أخذوا عنهم شيئاً من الموسيقى وتعلموا منهم فنوناً عملية كالحساب والهندسة ولكنهم لم يأخذوا عنهم شيئاً عقلياً يذكر وإن قيادة الفكر اليوناني كان قوامها الشعر والفلسفة. نقول: كيف عرف اليونان الفلسفة؟.

Twitter: @abdulllah1994

هل عرف اليونان الفلسفة والشعر عفواً؟ أم أنهم نقلوها من الأمم التي استعمروها، فإنه لما ضاقت الأرض اليونانية بأهلها ذرعاً لم يجد اليونان أمامهم إلا الهجرة أو الاستعمار فانتشروا في مختلف أقطارها كآسيا وأفريقيا وإيطاليا وصقلية وإسبانيا وفرنسا.

ولا أخال الدكتور يناقضنا إذا قلنا: إن جميع الأقطار الغربية التي استعمرها اليونان في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وصقلية في تلك العصور لم يكن بها حضارة أو مدنية. وإنما كان الجهل فيها طبقات بعضها فوق بعض.

ونريد أن نصل من هذا إلى حقيقة واضحة هي أن اليونان لم يأخذوا عن أهل هذه الأقطار الغربية شيئاً في الحضارة أو المدنية.

والذي لا شك فيه أن العقل اليوناني ارتقى وتطور عندما عرف اليونان الهجرة والحرب والاستعمار، والحقيقة المرة التي يجب أن يعترف بها الدكتور هو أنه لو لم يكن الشرق وحضارته وفنونه لما ارتقى العقل اليوناني ولما انتقلت منارة الفكر من الشعر إلى الفلسفة.

٤ ــ قال الدكتور: إن اليونان لم يأخذوا عن الشرقيين إلا أشياء عملية مادية ليس غير؛ أخذوا عنهم أشياء من الموسيقى ونقلوا عنهم فنوناً عملية كالحساب والهندسة أما نحن فنجاهر بأن الدكتور أخطأ في زعمه.

فما معنى أن اليونان أخذوا عن مصر فناً عملياً كالحساب أليست الموسيقى فناً من الفنون الجميلة؟.

٥ ــ ويقول الدكتور: «فلئن كان البابليون قد رصدوا النجوم ووصلوا من ذلك إلى نتائج قيمة في علم الفلك فهم لم يضعوا علم الفلك وإنما هذا العلم يوناني لم ينشأ عن النتائج البابلية وإنما نشأ عن البحث اليوناني».

والحقيقة أن البابليين عرفوا علم الفلك قبل أن يعرف اليونان هذا العلم وماهيته.

Twitter: @abdulllah1994

وعلم الفلك الذي توصل إليه البابليون هو الذي ندرسه اليوم في جوهره وأصوله.

٦ ـ ينكر الدكتور نبوغ الشرق من الناحية الفلسفية إنكاراً باتاً بكل ما في الكلمة من معنى ولا أدري هل سبب هذا هو أن الدكتور غير ملمّ بالأصول الفلسفية الحقة؟ أم هو ملم بها غير أنه لم يقوَ بعد على تحليل هذه الأصول تحليلاً صحيحاً وتفهمها فهمًا جيداً؟. ونظرة بسيطة إلى الشرق قبل أن يولد سقراط وأفلاطون بل قبل أن يعرف شيء عن اليونان نجد في التحنيط؛ ولا أراني محتاجاً إلى أن أقول: لم حنط القدماء في مصر جثث موتاهم؟.

فهل هناك شك أن هذه العقيدة التي كان يؤمن بها المصريون القدماء وهي خلود النفس نتيجة بحث فلسفي قيم؟.

الحق أن الفلسفة ظهرت في مصر قبل ظهورها في بلاد اليونان بمئات السنين غير أن سوء الحظ الذي يصادفنا اليوم هو الذي أخفى هذه الحقيقة.

ـ ٧ ـ

ويتابع الدكتور مبارك تصحيحاته لآراء الدكتور طه في قادة الفكر فيتساءل:

١ ـ ما الموجب لإثارة هذه المشكلة؟ ثم يجيب قائلاً[1]:

«الموجب هو إصرار الدكتور طه على القول بأن مرجع الفكر في الشرق والغرب إلى القدماء من مفكري اليونان وحرصه على إثبات هذا القول في الكتاب المقرر لمسابقة الأدب العربي، وكان قبل ذلك مقرراً للمطالعة في المدارس الثانوية.

ويضاف إلى هذا أن الدكتور طه «جعل» القيمة الفعلية من حظ الغرب

(١) الرسالة ٢٢ نوفمبر ١٩٤٣م.

Twitter: @abdulllah1994

وجعل البوارق الخيالية من حظ الشرق وانتهى إلى النص بأن الغرب وطن الفلاسفة وأن الشرق وطن الأنبياء.

ما حظ الدكتور طه في أن يقرر أن العقل الشرقي انهزم أمام العقل اليوناني مرات في التاريخ القديم وأنه ألقى السلاح في التاريخ الحـديث؟ ما الغرض من الإصرار على أن العقل الشرقي يذهب في فهم الطبيعة وتفسيرها مذهباً دينياً قانعاً بدليل أنه خضع للكهان في عصوره الأولى وخضع للديانات السماوية في عصوره الراقية.

لا بد من نقض هذه الآراء قبل أن يفتن بها التلاميذ لأنها مسجلة في كتاب رقم عليه اسم وزارة المعارف العمومية.

٢ ــ والظاهر أن الدكتور طه يتوهم أن الكهانة ظاهرة شرقية لا غربية وذلك توهم طريف لأن الدكتور طه نفسه يشهد بأن سقراط قد استلهم الكهان مع أنه في زعم الدكتور طه أول محرر للعقل الإنساني من أغلال الأضاليل. وأقول بعبارة صريحة إن الكهانة لم تصر مهنة مقدسة إلا في عهود الوثنية اليونانية فقد كانت لها معابد وكان لمعابدها سدنة وأمناء وكان المصير لكل معضلة فردية قومية رهيناً برأي (الصوت المتنكر) في زوايا الظلام المنشور فوق معابد اليونان.

أما كهان الشرق فقد كان مركزهم في المجتمع أيسر وأخف لأن الشرق سبق الغرب إلى استيحاء العقل وهل يستطيع مكابر أن ينكر فضل الشرق في السبق إلى رفع القواعد عن الحضارة الإنسانية؟.

٣ ــ وأقول إن النبوات في الشرق دانت الإنسانية بديون يراها الحاضر ويذكرها التاريخ.

إن الشرق لن يتخلى عن السيطرة الروحية وإن عجز عن السيطرة المدنية ولن يوهن من قوة الشرق أن يقرأ أبناؤه كلاماً منقولاً عن أحد الأجانب ولو كان الناقل طه حسين[١].

---

(١) أنور الجندي «المعارك الأدبية»، ص ١٤٤ (المصدر السابق).

Twitter: @abdulllah1994

تعقيب:

وتنتهي واحدة من أضخم المعارك الفكرية التي ثبت فيها قلم زكي مبارك ثبوتاً راسخاً لم يزعزعه شيء عن وجهته ولم يخفه بريق المنصب أو ترهبه صولة السلطان وإنما ترك لقلمه العنان في نقد آراء الدكتور طه حسين الذي نشك ولا نجانب الرشد إذا شككنا في أنه جار عن الطريق العربـي الإسلامي زمناً ليس بالقليل وإن كنا نلتمس له عذراً في أنه أراد وهو في مكان الريادة أن يطعم ثقافتنا الناهضة بما يراه من آراء الغرب المتحضر وثقافته، ولكن الذي لا نشك فيه أن الرجل عاد إلى تمجيد العقل العربـي والفكر الإسلامي كأحسن ما يكون التمجيد في أخريات حياته ولكن بقيت كلمة في النفس أحب أن أسوقها قبل إنهاء هذه المحاورة.

وذلك أن الدكتور طه حاول أن ينكر ما أثبته غيره من مفكري الغرب وعلمائه من أن الثقافة المصرية غزت الثقافة اليونانية التي هي مجال فتنته ومحل إعجابه فقد تعرض لهذه القضية (لإميل بريه) الفرنسي في كتابه «تاريخ الفلسفة» وأنا هنا أنقل عن الدكتور زكريا إبراهيم[1] فذكر أن الباحثين تساءلوا: هل كانت الفلسفة شيئاً استحدثه اليونان؟.

أم ترى أنه انتقل إليهم من «البرابرة» بيد أن النتائج التي انتهى إليها الباحثون أخيراً قد رجحت الرأي الثاني إذ أن الكشف عن حضارات سابقة للحضارة اليونانية كالحضارة العراقية (فيما بين النهرين) والحضارة المصرية والتحقيق من أن مدن (أيونيه) وهي مهد الحضارة اليونانية قد كانت على اتصال بهاتين الحضارتين. كل هذا ساعد على الرأي القائل: بأن الشرق هو أصل الحضارة اليونانية. وإذن فلم يزد الفلاسفة اليونان الأولون أن يكونوا مجرد منظمين ومعدلين لا مخترعين ومبتدعين.

ولا يهمنا القول المنسوب إلى أرسطو من أن طاليس هو الفيلسوف الأول

---

(١) تاريخ الفلسفة لإميل بريه ترجمة الدكتور زكريا إبراهيم.

Twitter: @abdulllah1994

الذي نشأت على يديه في القرن السادس قبل الميلاد أول فلسفة عرفها التاريخ فقد عارضه (ايجانوس اللاترس) في كتابه الموسوم «بحياة الفلاسفة».

وقرر أن فلسفتهم مدينة لفلسفة سابقة عن الفرس والمصريين(*).

□ □ □

(*) نستطيع العودة بنصوص هذه المعركة إلى مجلات: الهلال ـ والبلاغ ـ الرسالة.
الهلال: مجلد ١٩٣٣، مجلد ١٩٣٩.
البلاغ: مجلد ١٩٣١، مجلد ١٩٣٢.
الرسالة: المجلد الحادي عشر ١٩٤٣، العدد السابع، «مستقبل الثقافة في مصر وقادة الفكر للدكتور طه حسين».

Twitter: @abdulllah1994

طه حسين والقومية العربية

تمهيــد:

كان من الأولى أن تجمع المعارك التي أثيرت مع الدكتور (طه حسين) أو (ضده) والتي اشترك فيها (زكي مبارك) في صعيد واحد ولكننا رأينا أن المذاق يختلف، فمرة تهدأ المناقشة وتبرز معالمها فإذا هي موضوعية فيها إثارة من علم وتتغير تارة وتشتعل وتبعث الدخان والإعصار الذي فيه نار دون جذوة أصيلة أو بذور طيبة كالزبد الذي يذهب جفاء ولا يتبقى ما ينفع الناس وإن كان فيها ما يفيد التاريخ الأدبي من صور الجهاد العلمي في حقبة من الحقب التي عاشها شعبنا العظيم.

ولذلك فصلنا المعارك ــ مع طه حسين ــ وشققناها فلا عجب أن تراها في أكثر من موضع.

لم يكن (زكي مبارك) هو وحده كما سبق أن[1] ذكرنا المصارع الوحيد الذي يؤجج المعارك ويوقد نارها ويجر الناس إلى ساحات القتال وإن كان هو أبرز جنود الكتيبة بلا جدال.

ولقد ظل الدكتور طه حسين حيناً من الزمن يشعل نيران المعارك ثم يتركها ويمضي دون أن يرد في أغلب المرات حتى إذا تطوع بالرد جاء رداً متيسّراً ولكن الحق يقال يمتاز بالفهم والموضوعية بخلاف زكي مبارك الذي كان يشعل

---

(١) انظر الفصل الأول من هذا البحث «ملامح العصر الثقافية»، ص ٢٧ وما بعدها.

Twitter: @abdulllah1994

الحرب ثم يحمل سلاحه ويقف دون رأيه مجاهداً ومدافعاً بحق أو (بغير) حق وإن فاتته الموضوعية في أكثر الأحيان.

وعلى الرغم من أن هذه المعركة فكرية الطابع إلا أنها تعطي الملامح العامة لأسلوب الجدل والمناظرة لدى زكي مبارك.

وقد جرنا إلى هذا التمهيد للمعركة التي أثارها الدكتور طه حسين حينما نشر رأي له في جريدة «كوكب الشرق» سنة ١٩٣٣[١] يقول فيه:

«إن المصريين قد خضعوا لضروب من البغض وألوان من العدوان جاءتهم من الفرس واليونان وجاءتهم من العرب والترك والفرنسيين».

وكان طبيعياً أن تهب العاصفة وأن تكون سورية هي مصدر الهبوب حتى أن جريدة المقطم تنشر في عددها الصادر يوم ٦ سبتمبر ١٩٣٣ بأن أعضاء الجمعيات الثقافية والأدبية في دمشق بعد أن درست مقال الدكتور طه قررت «أن تنتهج حيال الدكتور طه نهج النازي الألماني وأنهم قرروا دعوة الجمعيات العربية الأدبية والسياسية في العراق وفلسطين وجميع الأقطار العربية إلى مقاطعة كتب الدكتور وأن هذه الطريقة ستتبع أيضاً مع كل كاتب مصري يطعن في القومية العربية ويشجع الروح الشعوبية».

ويعلن المقطم في اليوم التالي[٢] «لسنا من موافقي الدكتور طه حسين على ما يرى في بحوثه ونظرياته ولكن مع هذا لا يسعنا إلا أن نقول لإخوتنا أدباء دمشق وأعضاء جمعياتها الثقافية أن روح الإكراه الذي يشتم من قرارهم لا يطابق الرغبة البادية في جميع البلدان إلى التعاون والإقناع وبيان فوائد التضافر ولم يفتقر الأمر إلى الصحف المصرية وإنما تعدى إلى الصحف السورية فكتبت جريدة «فتى العرب» ترمي المصريين جميعاً على قتل الروح القومية بين الشعوب العربية وترد جريدة البلاغ على جريدة فتى العرب وتقول: كنا نحب للزميلة ألا يزلّ قلمها

(١) نقلاً عن المعارك الأدبية لأنور الجندي (مصدر سابق).

(٢) جريدة المقطم ٧ سبتمبر ١٩٣٣.

Twitter: @abdulllah1994

كالذي قالته في تحرير العنصر المصري من هبات الفاتحين فإن السخط على زلة الدكتور طه حسين لا تحوج قذف الأمة المصرية في وجهها بهذه العبارة على أننا نؤثر أن نغض عن ذلك.

وكادت تكون فتنة بين البلاد العربية حينما لقف الخيط كاتب ممن يحبون أن تشيع التفرقة بين صفوف الأمة العربية فوقف (سلامة موسى) إلى جانب الدكتور طه يدافع ويؤيد ويقارع، كذلك وقف إلى جانبه حسن صبحي ومحمد حسين ووقفت طائفة أخرى من الكتاب الذين يغارون على العروبة وعلى القومية فأعلنوا غضبهم وناقشوا الدكتور وأنصاره في ادعاءاتهم الفرعونية والشعوبية التي قالوا بها وكان من هذا الفريق (عبدالرحمن عزام) و(محب الدين الخطيب) و(عبدالله عفيفي) و(فتحي رضوان) و(زكي مبارك) و(زكي إبراهيم) و(علي الجندي).

وليس من شأننا أن نتتبع كل ما قالوه فلذلك موضعه أما الذي يعنينا فهو أن نستطلع رأي الدكتور زكي مبارك.

نصوص المعركة:

كتب الدكتور زكي مبارك مقالاً في البلاغ تحت عنوان «الثقافة العربية والثقافة الفرعونية»... ويبدو أن سلامة موسى كان قد شقق الموضوع ووسع دائرته فقاد الدعوة إلى إحياء الفرعونية ونبذ العربية أو على الأقل التغاضي عنها.

يقول زكي مبارك..[1] «مصر اليوم لغتها العربية ودينها الإسلام، فمن يدعوها إلى إحياء الفرعونية ويدعوها أيضاً إلى نبذ اللغة العربية ويدعوها إلى اعتقاد أن اللغة العربية لغة دخيلة ويدعوها أيضاً إلى أن تذهب مذهب الفراعنة في فهم الأصول الدينية»؟.

نحن اليوم في عهد انتقال ومن الواجب أن تكون خطواتنا رشيدة موفقة وليس من الرشد والتوفيق أن نمكن المترددين من المضي في غيهم ـ والمترددون في

(١) البلاغ: ٢٢ سبتمبر ١٩٣٣م.

Twitter: @abdulllah1994

مصر ـ وهم الحيارى الذين لا يدرون مكان القومية المصرية فهم تارة فراعنة وتارة عرب.

واللغة العربية هي لغة المصريين وكيف لا تكون كذلك؟ وقد كانت أداة التفاهم في وادي النيل نحو ثلاثة عشر قرناً وقد يصعب على الباحث أن يثبت أن المصريين في عهود التاريخ ظلوا يتكلمون لغة واحدة في مثل هذا المدى من الزمان.

ونحن حين نتكلم العربية وندين بالإسلام لا نحتاج إلى من يذكرنا بأننا عرب لغة وديناً ولكننا مصريون وطناً والذي يطالبنا بغير ذلك إنما يكابر في الواقع وقد كان مفهوماً منذ أزمان طويلة أن مصر لها وجود خاص وتاريخ العرب حافل بشواهد هذا القول، والمصري لا يمتنع من القول بالوحدة العربية.

وهذه الوحدة تتمثل اليوم في الصلات الأدبية التي تجمع بين مصر وبين المغرب والشام والحجاز واليمن والعراق أما الوحدة السياسية فأمل ضعيف.

وليس من النافع أن نسير في البقاع المصرية لنستبقي ما بقي من الموسيقى الفرعونية فهذه رجعة ضائعة النتائج وإنما الواجب أن ندرس الموسيقى الحاضرة موسيقى الغرب المثقف ثم نضيف إلى أصواتنا وألحاننا ما يزيدها قوة إلى قوة.

بينت أنه لا يربطنا بالعرب غير اللغة والدين ونحن فيما عدا ذلك أبناء هذا الزمان. أي والله نحن أبناء هذا الزمان فلتكن ثقافتنا موجهة إلى الأصول الحديثة في العلوم والآداب والفنون ولقد كان الفراعنة من أعرف أهل زمانهم بالطب ولكن من الخرق أن نفكر اليوم في تجربة وصفات المصريين إن التطلع إلى الوراء محنة وصرف الوقت في التشبث بالمدنيات البائدة خسارة وضلال ولا ينبغي لنا أن نفكر في الحضارة القديمة إلا بقدر ما يوقظ العزة القومية.

ومن الخرافات التي يرددها شباب اليوم أن مصر قد تكون عربية ديناً ولغة ولكنها فرعونية دماً. وهذه فكرة وهمية فإن مصر كانت قد اندمجت في القومية الإسلامية وصاهرت الناس من جميع الأجناس وهي بطبيعة موقعها الجغرافي

Twitter: @abdulllah1994

ملتقى لأهل الشرق والغرب فليس فيها دم خالص إلا في القرى السحيقة التي حرمها الجهل والفقر من الاتصال بالوافدين إلى البلاد من مختلف الجنسيات وبعد فنحن نعيش في مصر نتكلم لغة العرب وندين بالإسلام.

وهكذا يتأكد لنا أن الدكتور مبارك كان من حماة القومية العربية وإن لم يكن من روادها الأصلاء.

وهكذا يتأكد لنا كذلك أن معركته هذه كانت إحدى المعارك المشرفة التي خاضها بأمانة فلم يرم حجراً ولم يفتح جرحاً وإنما سدد ضرباته في وعي مستنير وليته ظل على هذا النهج في معاركه كلها وحتى أخريات حياته (رحمه الله وغفر له) وإذا جاز أن نعقب مرة أخرى لقلنا أن هذه المعركة كما أسلفنا وإن كانت غير أدبية فهي تنبىء عن الموقف الصلب الذي وقفه الدكتور زكي مبارك أردنا من خلال إيراد المعركة ومن خلال التأكد على إبراز هذا الموقف المشرف أن نعطي نموذجاً ـ مجرد نموذج ـ لمواقف مبارك واتجاهاته الفكرية وهل الأدب في جملته إلا موقف(*)؟.

□□□

(*) نجد نصوص هذه المعركة في جريدة كوكب الشرق ١٩٣٣ والبلاغ ١٩٣٣ والمقطم ١٩٣٣ وغير ذلك من المجلات العربية التي ذكرناها.

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdullllah1994

غاية الأدب وسلامة موسى

تمهيــد:

دأب سلامة موسى منذ اشتغل بالصحافة والتأليف والكتابة على مهاجمة كل القيم الأدبية والعلمية والدينية حتى عُد مخالفاً للمسلمين وللمسيحيين على السواء، وكانت أشد معاركه عنفاً تلك المعارك التي أثارها حول اللغة العربية والأمة العربية والدين عامة، والإسلام بخاصة، بل إنه حاول هدم كل القيم والمثل العليا والأمجاد التي عرفتها الأمة العربية وأقامت عليها كيانها.

وقد جاهد حتى عُد في طليعة المجددين وهو بلا شك مجدد مجتهد ولكنه لم يقتصر في حملاته تلك على المحافظين وحدهم وإنما تعداهم إلى المجددين من رفاقه فأخذهم في الركاب، ومن ثم فقد سقط في هوات مثيرة وفجوات متعددة جعله مكروهاً بين أدباء الجيل ومفكريه والأدباء يعدونه في زمرة المتطفلين على موائد العرب ويقولون ليس منا. والمفكرون يعدونه أديباً متصعلكاً لا شأن له بقضايا الفكر فهو مذبذب بين هؤلاء وهؤلاء اللهم إلا طائفة ممن كانت ترى رأيه وتسير سيرته.

على أني بهذا التقديم لا أكاد أزعم أن الرجل كان شراً كله مثلما بدا للناس جميعاً.

إنه برغم شطحاته كان كاتباً موضوعياً واعياً في بعض الأحيان كما كان له شطحاته غير الواعية أيضاً في معظم الأحايين. ولقد أثار حوله من الغبار ونثر وراءه من الآراء ما جعل طائفة من الأدباء وطائفة من المفكرين يجردون أقلامهم

Twitter: @abdulllah1994

لحربه فكتب العقاد، وكتب الرافعي، وكتب طه حسين وكتب المازني، وكتب محمد فريد وجدي وكتب محب الدين الخطيب وزكي مبارك وكتب غيرهم كثيرون ولكنه كان قوي العارضة قلّما ينثني عن عزمه ولم يتخل عن موقفه حتى مات سنة ١٩٥٨. على أنه في النهاية كان يمثل خطراً في الثقافة العربية والإسلامية ما في ذلك شك.

وكانت معركته مع زكي مبارك من أبرز المعارك حينما رأى[١]:

ـ أن غاية الأدب هي توجيه الحياة الاجتماعية.

ـ وأن الأدب الحديث أنفع من الأدب القديم.

وانبرى زكي مبارك للرد عليه بالرغم من أنه يذكر له بالحمد والثناء موقفه فيه يوم أخرجه طه حسين من الجامعة ووقوفه إلى جانب الحق للدفاع عنه.

يرى زكي مبارك ـ لوجه الحق لا لحب النزاع ـ أن الأدب وثيقة تسجل فيها مظاهر الحياة الاجتماعية. وقد تصير دستوراً تخضع له هذه الحياة، كما يرى أن لا بد من المحافظة على تراثنا العربي القديم. ويحسن بنا أن نترك له الصفحات ليكمل رأيه ويوضح وجهته. كتب في الأسمار والأحاديث[٢] يقول: كنت بينت للخصم الشريف سلامة موسى وجه الخطأ فيما ذهب إليه من الدعوة إلى الإقلال من العناية بالأدب العربي. وكانت حجتي أنه يعنى بالأدب الفرعوني مع أنه أدب موغل في القدم، وأن الأستاذ عبدالقادر حمزة يبذل جهوداً عنيفة في شرح الأساطير الفرعونية، ولم يقل أحد إنه يضيع وقته فيما لا يفيد.

فكيف يلام رجل مثلي إذا قصر عمره على درس الأدب العربي مع أنه أدب حي لا يزال يسيطر على أذواق الناس في المشرق والمغرب، وهو فوق ذلك يفسر غوامض النفس العربية التي تلقت الإسلام ونشرته في العالمين.

---

(١) معذرة لعدم ذكر المصدر الذي اشتمل على نص سلامة موسى فقد اكتفينا بالأسمار والأحاديث لزكي مبارك، ص ٣٨٧.

(٢) الأسمار والأحاديث لزكي مبارك، ص ٣٨٧ وما بعدها (مصدر سابق).

Twitter: @abdulllah1994

وأعود فأقرر أن لدراسة الأدب العربي غايات أخرى غير تلك الغايات الدينية وأبدأ فأنقض حجة الأستاذ سلامة موسى إذ يرى أن غاية الأدب هي توجيه الحياة الاجتماعية وأن الأدب الحديث أنفع دائمًا من الأدب القديم.

وعندي أن الأدب كما يكون ضرباً من الإصلاح يكون نوعاً من الوصف. وهو وثيقة تسجل فيها مظاهر الحياة الاجتماعية وقد يصير دستوراً تخضع له الحياة الاجتماعية. فإن كنت في ريب من ذلك فراجع كتب الأدب في القديم والحديث تراها سجلات دونت فيها أزمات القلوب والنفوس والعقول.

والكتّاب الاجتماعيون يعيشون في عالم الواقع كما يعيش رجال القوانين ولذلك نراهم يهتمون بشؤون لا يلتفت إليها أحد من الشعراء. والأستاذ سلامة موسى كاتب اجتماعي وليس بأديب واللغة عنده ليست إلا أداة تفاهم وكل تأنق في العبارات يبدو لعينيه وكأنه لغو وإسراف.

والأدب القديم لا يمكن أن يحتل رأساً مثل رأس الأستاذ سلامة موسى أما الأديب ــ وارحمتاه للأديب: ــ فهو إنسان لا يعرف غير عالم المعاني وليس للدنيا في نفسه حدود ولا تواريخ فهو يلتمس الحكمة حيث وقعت الحكمة الجميلة التي تحمل طابع الحق والخير أو: والخيال.

الذي يهمني أن أقرر أن الأديب لا يشوقه غير المعاني، وهو من أجل ذلك لا يتقيد بالحدود التاريخية ولا الجغرافية وهو لا يعني بالمشاكل إلا من الوجهة الإنسانية ــ أما الأوضاع الاجتماعية فموقفه منها موقف الوصاف الذي يشرح المحاسن والعيوب.

وهذا لا يمنع أن يكون الأديب من أجل الكفاح، وهو حين يكافح يصبح قوة خطرة في الحياة الاجتماعية لا يحلق دائمًا في الأجواء العالية ولا يقنع بالقليل. قد يكون سلامة موسى في دينه أصدق مني في ديني والله أعلم بالسرائر.

ولكن من المؤكد أني أصدق منه في الوطنية فأنا أحرص على اللغة العربية والإسلام خدمة لوطني. وأنا أغض النظر عن هفوات كبيرة لرجال الدين لأنهم

Twitter: @abdulllah1994

على أي حال من الشواهد على أن وطني له سلطة روحية، وقد تطوع المسلمون في مصر لمعاونة الأحباش أيام محنتهم بعدوان الطليان بغرض وطني هو الشعور بأن الكنيسة القبطية لها سلطات روحية على عقائد الأحباش.

فهل يغار الأستاذ سلامة موسى على الأزهر الشريف كما أغار على الكنيسة القبطية وهل من الكثير أن يكون بنا عشرة أوعشرون أوثلاثون يقضون أعمارهم في دراسة ماضي اللغة العربية؟، وهي اللغة القومية في مصر منذ ثلاثة عشر قرناً بغير درس الذخائر من الأدب القديم عند اليونان والرومان وفي العرب: نصارى ويهود ومسلمون لأن العروبة هي مصدر هذه الديانات الثلاث، ولو كان سلامة موسى من أرباب المآرب المادية لعذرناه وقلنا إنه رجل ينتفع من مؤازرة خصوم العروبة والإسلام.

ولكن سلامة رجل عفيف القلب والجيب ولن يترك لأطفاله غير ما ورث عن أبويه الكريمين فكيف يستبيح لنفسه أن يسيء إلى سمعة مصر العربية الإسلامية بلا جزاء؟

إن اهتمام الأستاذ سلامة موسى بالكلام عن الحرمان وتفاوت الطبقات فتات خطفه من موائد الأجانب الذين كتبوا في الاشتراكية فليس فيه أصالة فكرية أما أعمالنا نحن في درس أسرار اللغة العربية فهي الأساس لزعامة مصر في الشرق فمؤلفاتنا في الأدب هي المظهر لمجد مصر.

إن تجني سلامة موسى على مؤرخي الأدب العربي بغير حق دليل على أنه جاهل وجهول وجهالة ومجهال.

إنه يعادي لغة العرب لسبب بسيط وهو أنها لغة القرآن المجيد. وهكذا استطاع زكي مبارك في النهاية وبموضوعية مطلقة أن يلقم سلامة موسى حجراً أسكته.

□□□

Twitter: @abdulllah1994

أحمد أمين وجنايته على الأدب العربـي

تمهيـــد:

ما زال تاريخ الأدب المعاصر يفتقر إلى كثير من التحقيق والتدقيق، وما زالت بعض المواقف فيه تحتاج إلى تجلية فلقد توارت الأسباب الحقيقية لبعض الوقائع بينما برزت إلى السطح أسباب وهمية ظنها مؤرخ الأدب الحديث نقطة البداية فانطلق من عندها.

نقول بمناسبة ما أثير حول السجال الذي دار من طرف واحد بين أحمد أمين وزكي مبارك، وبداية القضية أن أحمد أمين بدأ عام **١٩٣٩** في كتابة سلسلة مقالات في الثقافة تحت عنوان «جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربـي» تخللها مقال «أدب الروح وأدب المعدة» وقبل أن تنتهي سلسلة المقالات هذه لأحمد أمين خرجت مجلة الرسالة على جمهور المثقفين مستهلة سلسلة من المقالات لفارسها المصارع الدكتور (زكي مبارك) في الرد على (أحمد أمين) وهدم ما كتب وجاء ذلك تحت عنوان «جناية أحمد أمين على الأدب العربـي» وعجب الناس وحق لهم من ذلك التوقيت الغريب وتلك المفاجأة العجيبة فأحمد أمين والزيات أصدقاء، لأن الأول كان من العمد الأساسية في مدرسة الرسالة الأولى وكلاهما صاحب مجلة أدبية تتصارع من أجل البقاء والكسب ولكنها لا تتصارع من أجل الموت فضلاً عن أن أحمد أمين كان ذا منصب جامعي خطير فهو أستاذ بكلية الآداب وهو من هو في الحياة الأدبية لذلك الوقت.

وقال القائلون وأرجف المرجفون: الزيات هو الذي أغرى مبارك بأن يأكل

Twitter: @abdulllah1994

لحم أحمد أمين حياً حتى يعاتبه على ترك الرسالة وحتى يسدد لكمته إلى الثقافة وهي في المهد وليدة.

وأنكر الزيات ذلك الذي قيل وبادر إلى إنكاره زكي مبارك في إحدى مقالاته ـ أما أحمد أمين فقد لزم الصمت حتى قرب النهاية وأعلن تراجعه عن بعض مواقفه (سيأتي ذلك في موضعه من هذا البحث).

والسؤال الذي يبرز الآن ـ لوجه الحق والتاريخ ـ هل صحيح أن الزيات أغرى زكياً مباركاً بأحمد أمين؟ أم أنها طبيعة مبارك التي تبحث عن أسباب جديدة للعراك والسجال مهما كلفه ذلك من ثمن أو أفقده من أصدقاء أو أكسبه من أعداء جدد، لأنه لا يحيا إلا في مثل هذا الجو المشحون بالغبار من أثر المعارك وهو دائمًا يعيش إما في معركة أو في التمهيد لأخرى كعادته؟ كل الدلائل تشير إلى أن الزيات بريء مما رمي به من قبل النقاد المحدثين وإن كنا لا نبرئه من أن نشوة الكسب الصحفي جعلته يحنو على قلم مبارك ويمهد له الطريق ويوسع له من صدر الصفحات حتى أمكنه من تسديد ضرباته لخصومه جميعاً وأحمد أمين من بينهم دون سابق قصد أو ترتيب.

الأستاذ الزيات نفسه يقول[1]: إن النقاد الذين قالوا إنني أوغرت صدر مبارك على أحمد أمين مخطئون وهم أنفسهم يعلمون أني بريء من هذا الظن لسببين:

أولهما: أن أحمد أمين ـ رحمه الله ـ كان صديقي في الحياة وزميلي في الأدب ورفيقي في الجهاد بينما لا يعدو زكي مبارك عن كونه محرراً في الرسالة وكان رأيي فيه دائمًا على غير ما يحب ـ لأني كنت أجور على ما يكتب حينما يجور هو على الآخرين فكيف أوغر صدره على من أحب؟.

ثانيهما: أن مبارك كتب الكثير في نقد طائفة من الأدباء على صفحات

---

(١) اعتمدت على ما قاله لي الأستاذ الزيات ـ يرحمه الله ـ كمصدر حي من مصادر الدراسة وذلك بعد اللقاء الذي أجريته معه كما ورد في مقدمة البحث.

Twitter: @abdulllah1994

الرسالة فهل أغريته بهم في كل مرة؟ هل أنا الذي أغريته بطه حسين والخصام بينهما جلي مشهور؟.

وما القول في أني تركت المرحوم أحمد أمين ينقد بعض كتب مبارك مثل «النثر الفني» على صفحات الرسالة فهل كنت وقتها أغري أحمد أمين بزكي مبارك؟.

وأنهى حديثه معي بقوله: لا إن هذا غير صحيح[1].

وحينما سألت الأستاذ الزيات عن السبب الحقيقي الذي يفسر حملة زكي مبارك على أحمد أمين.

قال: وهل مثل هذا يحتاج إلى سبب؟ لقد كان مبارك «كتلة من الشر» لم يترك أحداً من أبناء جيله «تقريباً» إلا اشتبك معه ونال منه، ولقد كنت أهذب من طباعه وأبتر من كلامه على قدر ما أستطيع.

وإذا ارتضينا هذا التفسير استطعنا أن ننظر إلى قلم مبارك في ضوء جديد، فهو كما أسلفنا يتحين فرص العراك وينتظر مناسبات الخصام كالذين ينتظرون مواسم الأمطار لأن فيها حياتهم.

على أية حال لقد ظلت المعركة على صفحات الرسالة ما يقرب من الشهور الستة فقد بدأت في يونيو ١٩٣٩ لتنتهي في نوفمبر من نفس السنة واستمرت حتى بلغت اثنتين وعشرين حلقة.

ولم يشترك أحمد أمين في السجال ـ كما قلنا ـ مما يجعلنا نتردد في تسميتها بالمعركة إلا أن الأستاذ عبدالمتعال الصعيدي والأستاذ عبدالوهاب عزام وغيرهما من الباحثين والأدباء قد أدلوا بدلوهم في الدلاء بين مؤيد لمبارك ومؤيد لأحمد أمين مما يجعلنا نعود فنؤكد أنها معركة حقيقية وإن فقدت الخصم الأول.

ولا جدل أن هذه المعركة نجدها ونراها تمثل جانباً هاماً من جوانب حياتنا

---

(١) تقتضينا الأمانة أن نقول: إن المعنى للأستاذ الكبير وإن الصياغة في أغلبها لنا.

Twitter: @abdulllah1994

الفكرية في العصر الحديث فقد اختلفت المدرسة الحديثة على نفسها ووقف أحمد أمين الأزهري الذي لم يدرس في جامعات الغرب موقف التطرف في ترديد بعض الآراء المتطرفة بينما وقف زكي مبارك خريج السربون ـ والمتهم عند أكثر الباحثين «بتحلله» وعدم حفاظه على القيم موقف الاعتدال والدفاع عن التراث والقيم ـ وعندي أن هذه واحدة من المعارك التي خاضها زكي مبارك بأمانة وشرف وهي أيضاً واحدة من المعارك الموضوعية الدسمة لولا ما كان يتخللها أحياناً من الهجوم التقليدي على طه حسين برغم أنه لم يكن خصماً في النزاع.

كما أني أعتقد ـ مخلصاً ـ أنه كان في هذه المعركة بالذات يصدر عن نفس نقية من الخصومات الشخصية اللهم إلا إرضاء شهوته ـ أحياناً ـ وترضية لتلك النزعة العدوانية التي ركبت فيه حينما كان يلون المعارك بلون الدم الذي يجري في عروقه مهما كانت موضوعيتها.

ويحسن بنا قبل أن نلتقي بالنصوص التي سجلت ملامح المعركة أن نبدأ بتلخيص آراء الأستاذ أحمد أمين التي دار حولها السجال.

دارت المقالات الست التي كتبها الأستاذ أحمد أمين في مجلة الثقافة في الفترة ما بين ٩ مايو إلى ٦ يونيو **١٩٣٩** حول هذه النقاط[١]:

- «المدح والهجاء» هما أظهر الفنون في الأدب العربي، وبذلك يكون الأدب العربي في أغلب أحواله أدب معدة لا أدب روح.
- أدب المقامات في العصر العباسي أدب معدة.
- نزعة القرآن روحية لا حسية.
- توضيح الفرق بين أدب المعدة وأدب الروح.
- علماء العرب رفعوا من كل شيء جاهلي وغلوا في تقديره.
- علماء العرب لا يرون أي يوم من أيام المسلمين يعادل أي يوم من أيام الجاهلية.

---

(١) يراجع في ذلك (الثقافة والرسالة) في الفترة الزمنية التي أشرنا إليها.

Twitter: @abdulllah1994

- الشعر العربي يخلو من خصائص الإقليمية فإذا ما قرأناه لا نعرف إن كان هذا الشعر مصرياً أم عراقياً أم شامياً.
- الشعراء المصريون «لا شخصية إقليمية لهم» فما هم إلا مقلدون لشعراء الشام.
- الأدب العربي القديم لا يصلح لتربية الأذواق في الجيل الجديد.
- الأدب العربي على اختلاف عصوره ليس فيه سوى كاتب واحد يهتم بتحليل المعاني هو ابن خلدون.
- العرب في جاهليتهم لم تكن لهم وثنية تبدع الأساطير على نحو ما كان الحال عند اليونان وذلك يشهد بأن الجاهليين من أهل الخيال.
- إن الأدب يجب أن يرفع نفسية الأمة ويدلها على مواطن الضعف والقوة عن هدى وبصيرة.

نصوص المعركة:

ويحسن بنا كذلك قبل أن نلم بالرد على هذه القضايا الموضوعية أن نتبع المقال الأول الذي يمهد للدخول في المعركة وسنجعل أنفسنا في حل من إسقاط كل ما جاء في ذم أحمد أمين وطه حسين لأن ذلك في معتقدنا غير موضوعي ولن يفيدنا بشيء. والآن إلى النص لنتبين الملامح الصادقة إلى هذا السجال. يبدأ زكي مبارك مقاله الأول قائلاً: لصديقنا الأستاذ أحمد أمين مؤلفات جيدة قامت على أساس المنطق والعقل وهو من كبار الباحثين في العصر الحديث ولكنه على أدبه وفضله لا يجيد إلا حين يصطحب الروية ويطيل الطواف بالموضوع الواحد عاماً أو عامين وذلك سر توفيقه فيما نشر من البحوث والتصانيف.

أحمد أمين باحث كبير بلا جدال ولكنه ليس بكاتب ولا أديب وإن كان من أساتذة الأدب بالجامعة المصرية، ولم يستطع أحمد أمين على كثرة ما كتب وصنف أن ينقل القارىء من ضلال إلى هدى أو من هدى إلى ضلال وإنما كانت مؤلفاته وبحوثه ضرباً من التقرير الذي يخاطب الآذان ويعجز عن مخاطبة العقول والقلوب.

Twitter: @abdulllah1994

وحياة أحمد أمين تؤيد ما نقول: فهو رجل لا يعرف الخلوة إلى الفكر والعلم ولا يتسع وقته لدرس ما في الوجود وما في الأخلاق من مشكلات ومعضلات وإنما يقرأ ويسمع، بدون أن يتغلغل إلى أسرار المجتمع أو سرائر القلوب.

ولكن ما الذي نقل ذلك الرجل الفاضل من حال إلى أحوال؟ وحوله من الروية إلى الارتجال؟ لقد أصبح الرجل صحفياً وكان أستاذاً ولكنه لم يراع أدب الصحافة؛ لأن الصحافة تقف عن المشاهدات وهو يهيم بأودية الفروض.

ابتدأ الرجل مقالاته في مجلة الثقافة بتلخيص بعض الكتب الأدبية فكان من الصحفيين الأدباء ثم رأيناه يتحول فجأة فيلخص الأدب العربي في جميع صوره تلخيصاً يقوم على أساس الخطأ والاعتساف ويعوزه تحرير الحجة وتصحيح الدليل.

فهل يظن أنه سينجو من عواقب ما يصنع؟.

هل يتوهم أن التجني على الأدب العربي سيمر بلا اعتراض ولا تعقيب؟ فما رأيه إذا أقنعناه بأن للأدب العربي أنصاراً يغارون عليه أشد الغيرة ويقفون لخصومه بالمرصاد[1]؟

ـ ٢ ـ

ويبدأ زكي مبارك مقاله الثاني بالعجب من الذين يتساءلون عن سر الخصومة بينه وبين أحمد أمين ويزعم أنه ليس بينهما من الخصومة ما يوجب أسباب النزاع بل على العكس بينهما من الصداقة ما يكفي لإسكات المتقولين ثم يؤكد أن هذه المعركة خالصة لوجه البحث، تعود الناس أن يسألوا «ما الذي بين فلان وفلان، حين يرون غبار المعارك الأدبية». وقلّ من الناس من يتصور أن تقوم معركة أدبية في سبيل الحق بين صديقين متصافيين كالذي أصبح اليوم في الهجوم على الأستاذ أحمد أمين.

---

(١) العدد ٣١٠ من مجلة الرسالة ـ المجلد السابع.

Twitter: @abdulllah1994

ثم يعرج على خصمه فيفرش له طريق الصراع حتى يجر قلمه إلى المعركة فيتهمه بتهم منها النقص من قيمة الأدب العربي ثم يقول: «فإن بدا لهذا الصديق أن يغضب من هجومنا فأمامه طريق الخلاص وهو الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية إلى أن يعرف أن الأدب لا يؤرخ على طريقة الارتجال».

ويواصل الحملة عليه بقصد تهديده وإلقاء الرعب في قلبه قبل بدء المعركة فيزعم أنه لم يخلق أديباً ولا كاتباً وأنه لم يفكر في دراسة الأدب دراسة جدية إلا بعد أن جاوز الأربعين ولو رجع إلى نفسه لعرف أنه لا يجيد إلا حين يشغل وقته بتلخيص المذاهب الفقهية والكلامية وأنه لم يوهب الحاسة الفنية ثم يصيح صيحته العنترية: أحمد أمين ليس بكاتب ولا أديب وإن سوّد الملايين من الصفحات.

ويبدأ الدخول على الموضوع قائلاً: «هذا الرجل ينظر إلى الأدب وإلى الوجود نظرة عامية فهو يقسم الأدب إلى قسمين: أدب معدة وأدب روح والسخرية من المعدة لا تقع إلا من رجل يفكر كما يفكر الأطفال فالمعدة التي يحتقرها هذا الرجل العاتي هي سر الوجود وعن قوة المعدة تنشأ قوة الروح إن المباعدة بين المعدة والروح عقيدة هندية وتلك المباعدة هي التي قضت بأن يعيش الهنود فقراء، ولو احترم الهندي معدته كما يحترم الإنجليزي معدته لما استطاع الانجليز أن يكونوا سادة الهنود».

وبعد تقديم البيانات التي تقنعه بأنه يجني على الأدب العربي أشنع الجنايات يقول: «وسنريه أن جنايته على نفسه أبشع وأفظع وسنروضه على الاعتصام بحبل الصبر الجميل فليس من سيف الحق خلاص ولا مناص».

ثم يقرر أنه بدأ الهجوم على أحمد أمين خدمة للأدب العربي الذي يؤمن بأنه أدب أصيل وأن من الواجب أن يدعو جميع أبناء العروبة إلى الاعتزاز بذلك الأدب الأصيل ثم يحدد الغرض من الحملة فيقول «تورط أحمد أمين في أحكام جائرة وهو يلخص تاريخ الأدب بطريقة صحفية».

ثم يقول معللاً للأسباب التي أوقعت أحمد أمين في الخطأ: ونسارع فنقرر

Twitter: @abdullllah1994

أن أحمد أمين سليم من الوجهة الأخلاقية فهو يكتب ما يكتب ويقول ما يقول عن اقتناع.

وإنما يصل إليه الخطأ من طريقين: الأول عدم تمكنه من تاريخ الأدب العربي والثاني عدم تعمقه في درس السرائر النفسية والوجدانية ومن هنا كثرت أغلاطه في فهم أصول الأدب وأصول الأخلاق[1].

- ٣ -

ويجيء المقال الثالث في صفحات أربع من صفحات الرسالة[2] ليرد على القضية التي أثارها أحمد أمين بأن أدب المديح والهجاء أدب معدة وليس أدب روح. ولكنه يبدأ المقال بالقسم على أنه يهجم على هذا الرجل «يعني أحمد أمين» وهو كاره لما يصنع «فأحمد أمين رجل محترم وقد وصل بكفاحه إلى منزلة عالية في الحياة الأدبية» وأن الذي دفعه إلى الهجوم عليه (وهكذا لا يدعنا زكي مبارك نهدأ ففي كل مقال يضيف سبباً جديداً) هو «أن هذا الرجل يؤرخ الأدب بالجامعة المصرية وهو بذلك قدير على تكوين الاتجاهات الأدبية عند شبان هذا الجيل فتصحيح أغلاطه لا ينفعه وحده إنما ينفع معه ألوفاً من الذين يدرسونه في كلية الآداب من مصر وأقطار الشرق».

ثم يعود إلى شغاف القضية فيقول: «يرى هذا الرجل أن «المديح والهجاء» هما أظهر الفنون في الأدب العربي، وبذلك يكون الأدب العربي في أغلب أحواله أدب معدة لا أدب روح».

ولو كان هذا الرجل يدقق لعرف أن المديح والهجاء هما السجل الصحيح لأخلاقه العربية؛ فمن المديح نعرف كيف كان العرب يمثلون المناقب، ومن الهجاء نعرف كيف كانوا يتصورون المثالب، ومن المحاسن والعيوب يعرف الباحث صور المجتمع في الحياة العربية والإسلامية.

---

(١) الرسالة العدد ٣١١ المجلد السابع.

(٢) العدد ٣١٢ المجلد السابع.

Twitter: @abdulllah1994

ولو ضاعت قصائد المديح والهجاء لضاع بضياعها أعظم ثروة يستعين بها علماء النفس لفهم تطورات الأفكار والأذواق فيما سلف من عهود التاريخ .

يضاف إلى ذلك أن المادحين والهاجين لم يكونوا جميعاً طلاب أرزاق وإنما كان أكثرهم أصحاب مبادىء وعقائد، وكانوا يؤدون في خدمة الدولة ما تؤديه الصحافة في هذه الأيام وهي تؤرخ الصراع بين أحزاب اليسار وأحزاب اليمين.

لو كان أحمد أمين يدقق لعرف أن شيوع المديح والهجاء في البيئات العربية يدل على خلق عظيم من أخلاق العرب وهو النخوة، فالعربي يسره أن يذكر بالجميل ويؤذيه وأن يذكر بالقبيح ومن هنا كانت المدائح والأهاجي لا توجه في الأغلب إلا إلى عظماء الرجال.

وما رأي أحمد أمين في حسان بن ثابت؟ .

ما رأيه إذا حدثناه أن الرسول كان يرى المدح والهجاء بابين من أبواب الجهاد؟ .

ما رأيه إذا حدثناه أن الرسول كان يرى حسان بن ثابت جندياً نافعاً لأنه كان يخوّف خصوم النبوة بأشعاره في الهجاء؟ .

أتكون أشعار حسان في الهجاء من أدب المعدة؟ .

قل بذلك يا أحمد أمين، إن استطعت، ولن تستطيع .

وما رأي أحمد أمين في مدائح الكميت وأهاجيه؟ ما رأيه في قصائد الفرزدق وقصائد دعبل في القضاء على أهل البيت؟ ما رأيه في الشعراء الذين أوقدوا نار الحرب بين بني أمية وبني العباس؟ ما رأيك في قصائد مسلم بن الوليد في الثناء على بعض الأبطال؟ .

ما رأيه في قصيدة أبي تمام يوم فتح عمورية؟ .

ما رأيه في مدائح البحتري وهي تسجيل للشمائل العربية؟ أيكون عيب أولئك الشعراء أنهم كانوا يعيشون في ظلال الأمراء والخلفاء؟ وما العيب في ذلك؟ .

Twitter: @abdulllah1994

ألم يكن شعراء المشرق والمغرب يعيشون في ظلال الأمراء والملوك؟ وكيف يعاب على أمثال البحتري والمتنبي ما استباحه أمثال (فولتير) و (لافونتين)؟ إن أولئك الشعراء كانوا يؤدون لدولهم خدمات اجتماعية وسياسية ومن حقهم أن يعيشوا بفضل تلك الخدمات لأنهم لم يخلقوا بلا معدة كما خلق الأستاذ أحمد أمين الذي يخدم الأمة المصرية بالمجان، لأنه لا يتناول من الجامعة في كل شهر غير مبلغ ضئيل لا يتجاوز الستين ديناراً ولا يتناول من الأعمال الأدبية في كل شهر غير دنانير لا تعد بغير العشرات.

ما الذي يعيب الشاعر والأديب حين ينتفع من الشعر والأدب؟ ما الذي يعيبه وهو من جنود المعامع السياسية والاجتماعية؟ ما الذي يعيبه حين يطمع في أموال الملوك والخلفاء وكان شعره السناد لدول الملوك والخلفاء وهل يعاب (جوبلز) لأنه يعيش بفضل الدعاية للسيطرة الألمانية؟ هل يعاب الصحفيون الذين يعيشون بفضل الدفاع عن الحكومات والأحزاب؟ إن الشاعر القديم هو نموذج للصحفي الحديث وكلاهما يؤدي مهمة اجتماعية وسياسية.

وما رأي صاحبنا في (هتلر وموسوليني)؟ وهما يرهبان العالم بالأقوال قبل الأفعال؟ وما رأيه إذا علم أن هتلر يهمه أن يكون لأقواله ومؤلفاته قيمة مادية؟ بل ما رأيه إذا علم أن العراك حول مشيخة الأزهر له أسباب دنيوية؟.

ما رأيه إذا علم أن (البابا) يجتذب مريديه بثمرات النخيل والأعناب ما رأيه إذا عرف أن الغمط من قيمة المعدة ليس إلا رهبانية نهى عنها الإسلام؟ ما رأيه إذا عرف أن من يحتقرون الأمعاء كانوا كتبوا مرة أو مرتين في تأثير النهضة على العقول؟ نحن لا نريد مؤرخاً للأدب يفهم الدنيا بالمقلوب وإنما نريد مؤرخاً يفهم أن الأدب صورة الحياة ويعرف أن شعر ابن الرومي في وصف «الرقاق» لا يقل شرفاً عن شعر ابن المعتز في وصف «مداهن الطيب»؛ لأن الشاعر لا يطالب بغير إجادة الموقف لما تراه العيون وما تحسه القلوب.

نريد مؤرخاً للأدب يدرك أن من حق الأديب أن يصف ما يرى ويسمع. نريد مؤرخاً للأدب يدرك الفروق بين الأشياء ويتأثر بجميع المناظر، ويطرب

Twitter: @abdulllah1994

لجميع ما في الوجود، ويتابع النبرات الموسيقية في نقيق الضفادع على نحو ما يضع وهو يتسمع لأسجاع الحمائم. وذلك يوجب أن يكون رجلاً له ذوق وإحساس.

نريد مؤرخاً للأدب يعلل أسباب الحسن وأسباب القبح مع العطف على جميع مظاهر الوجود.

نريد مؤرخاً للأدب يرى السخرية من العيوب ويرى مكر الثعلب لا يقل جمالاً عن بلاهة الغزال.

ثم يعرج على قول أحمد أمين الإحصائي فينقضه:

أحمد أمين يقول: «نرى في العصر العباسي طغيان أدب المعدة على أدب الروح، هذا البارودي (رحمه الله) اختار لثلاثين شاعراً من خيرة شعراء الدولة العباسية... وكانت مختاراته في أربعة أجزاء كبار فكان ما اختاره من المديح ٢٤١٨٥ بيتاً. ومن الأدب ١٦٩٧ بيتاً، ومن الغزل ٤٦١٦ بيتاً، ومن الهجاء ١٢٢٩ بيتاً ومن الوصف ٣٩٩٣ بيتاً، ومن الزهد ٤٧٣ بيتاً. ونظرة واحدة إلى هذا الإحصاء تدهشنا أشد الدهشة، إذ تبين لنا طغيان أدب المعدة ــ وهو المديح والهجاء ــ على أدب الروح طغياناً كبيراً.

ذلك هو أحمد أمين بقضه وقضيضه كما كانوا يعبرون ذلك، هو أحمد أمين الذي يدرس الأدب بالإحصاء، والذي يقيس الدواوين الشعرية بالمتر والباع والذراع.

لقد كنت أحفظ أكثر مختارات البارودي لم يخطر ببالي أن أعدها. فهل أستطيع اليوم أن أقول للأستاذ أحمد أمين: «أفادك الله».

هل بلغت المدائح في مختارات البارودي ٢٤١٨٥ بيتاً؟.

ذلك (إحصاء) أحمد أمين ولا موجب لمراجعته، لأنه من النوابغ في الإحصاء. هل ذكر في إحصائه الأغراض المبثوثة في تلك المدائح؟ هل يظنها جميعاً من قبيل «أنت شمس أنت بدر»؟.

Twitter: @abdulllah1994

ألم يكن أكثرها تسجيلاً لوقائع حربية ومواسم تشريف؟ هل خطر بباله أن يحصي ما في تلك المدائح من الأوصاف والحكم والأمثال.

هل خطر بباله أن يلتفت إلى القصائد التي استوجبت عنايـة النحاة واللغويين فأمدت اللغة العربية بفيض من الحيوية لا ينضب ولا يغيض؟.

أحمد أمين يرى أن محصول المدائح في العصر العباسي أكبر محصول. ويرى محصول الزهد أصغر محصول فهل استطاع هذا الرجل أن يستخلص العبرة من الموازنة بين النسبتين؟.

لو كان أحمد أمين يدقق لعرف أن طغيان المديح على الزهد كان من علائم الحيوية في العصر العباسي فهو الشاهد على أن العرب كانت حياتهم تزدحم بالأخطار الدنيوية وهو الشاهد على أنهم كانوا أهل نخوة وأريحية.

هو الدليل على أنهم كانوا يحيون حياة تفيض بحياتي الأفراح والأحزان. وتتسم بعلائم القوة والكفاح.

وما كانت الأهاجي أقل قيمة من المدائح في الدلالة على هذه الشؤون. فالأهاجي كانت في الأغلب تمثل صوت المعارضة السياسية وكان لها تأثير شديد في كبح الطغيان، وبفضل الأهاجي قلمت أظفار الاستبداد، وخشي الطغاة بأس القلم واللسان.

هل تفرد العرب بالهجاء؟.

ألم يكن الهجاء فناً ظاهراً في جميع الآداب الشرقية والغربية؟ وهل خلت الكتب المقدسة من الهجاء حتى تعده من السيئات؟.

ثم يختم مقاله قائلاً:

إن الملائكة يرضون ويغضبون ويفرحون ويحزنون وكل ما في الوجود من طبائع وأرواح يدرك معاني الرضا والغضب والانبهاج والابتئاس فكيف يعاب علينا أن نكون صبحاً يتنفس وليلاً يتمرد من حين إلى حين؟.

Twitter: @abdulllah1994

ـ ٤ ـ

وتتباعث النقود الموضوعية حول القضايا التي تناولها بالبحث الأستاذ أحمد أمين وإن كانت بعض المقالات قد جارت عن القصد فانحرفت نحو الخصام الذاتي ومن ثم فلا ضير علينا إذا نحن طوفنا حول بقية المقالات فاجْتَزَأنا منها ما ينفع ويمس قضايانا التي نبحثها ثم طرحنا الزبد.

كان أحمد أمين قد كتب مصوراً الفرق بين أدب الروح وأدب المعدة: أدب الروح هو الأدب الذي يتصل بالعواطف السامية عند الإنسان فيهذبها ويغذيها. القرآن أدب روح لأنه يسمو بالإنسان عن عالم المادة ويأخذ بيده إلى السماء. وباب الحماسة من ديوان الحماسة أدب روح، وغزل جميل وكثيِّر والعباس بن الأحنف أدب روح. والأدب الفاجر أدب معدة. وأدب الطبيعة أدب روح.

وقال أحمد أمين: «إن أدب المعدة هو ذلك الأدب الذي يدور حول ملء المعدة واستدرار المال وتحصيل القوت. ومثل لذلك بالغزل الفاجر ومقالات الكتَّاب التي هدفها الأول ملء الأعمدة والاستيلاء على الرواج.

ويرد عليه زكي مبارك قائلاً:

إن القرآن على هذا الأساس أدب معدة لأنه ذكر الحور العين كما وأنه لا يمكن للمرأة أن تكون مصدر وحي وإلهام للرجل إلا إذا اشتهاها بشهوة حسية ومن قال بغير ذلك فهو رجل ضعيف لا يدرك الفرق بين جوهر الصلات بين الرجل والمرأة وإن رجال الأخلاق لم يستنكروا الشهوات إلا بسبب الإسراف؛ أما الشهوات في حد ذاتها فهي دليل العافية. وإن فضيلة العفاف لا يقام لها وزن إلا حين تصدر من رجال مزودين بحيوية الشهوات.

ـ ٥ ـ

يتابع الدكتور مبارك رده على أحمد أمين بعد أن ينقل قوله عن المقامات.

يقول أحمد أمين:

Twitter: @abdulllah1994

«ثم انظر بعد الفن المبتكر في العصر العباسي. وهو فن المقامات فقد ابتدعها بديع الزمان الهمذاني فلم يجعل محورها حباً ولا غراماً كما يفعل الروائيون ولم يجعل محورها شيئاً يتصل بأدب الروح ولكنها كلها «أدب معدة» فأبو الفتح الاسكندري بطل المقامات كلها: رجل مكر واحتيال يصطنع جميع المهن لابتزاز الأموال، تراه مرة قراداً يسلي الناس ويضحكهم ومرة واعظاً مزيفاً يعظ وينصح ثم تنكشف حيله فإذا هو مهرج.

وجاء الحريري فجعل مكان أبـي الفتح الاسكندري أبا زيد السروجي وهو كصاحبه دناءة نفس وخساسة حرفة».

ويتساءل مبارك مستنكراً:

أبهذه الجرأة يحكم أحمد أمين على فن المقامات؟.

يلاحظ أولاً أن أحمد أمين لم يفهم أغراض الحريري وبديع الزمان فهو يتوهم أنهما يحاولان إغراء الجماهير بالإقبال على ما في تلك المقامات من شمائل وخصال بينما الغرض من نظم المقامات عند بديع الزمـان هو نقـد الحياة الاجتماعية والأدبية في القرن الرابع.

وغفل أحمد أمين أن الفن غاية أخرى: وهي النظرية التي تقول بأن للفن والأدب غاية أصيلة هي الصدق في وصف ما ترى العيون وما تحس القلوب وما تدركه العقول.

ثم يقول: هل يطلب من الكـاتب أن يغفل وصف الطفيليين لئلا يقال: إن أدبه أدب معدة؟.

أتحبون أن تعرفوا من أين وصل الخطأ إلى الأستاذ أحمد أمين وصل إليه الخطأ من التلمذة للأستاذ الكبير الدكتور طه حسين، فقد حكم الدكتور طه بأن العصر العباسي عصر شك ومجون لأن فيه عصابة مشهورة بالزيغ والفسق وهي جماعة أبـي نواس ومطيع بن إياس. مع أن العصر المدني عرف أمثال هذين

Twitter: @abdulllah1994

الرجلين وهو نفس العصر الذي نبغ فيه كبار الفقهاء والنساك والزهاد وهو الذي بلغ فيه الفكر العربي غاية الغايات في فهم أصول الفلسفة وأصول الأخلاق[1].

- ٦ -

لا بأس أن ننقض عهدنا وأن نخلف وعدنا فننظر إلى هذا المقال في ذم أسلوب أحمد أمين لما فيه من طرافة قد تخفف عنا دسامة الموضوع. بعد أن عرض زكي مبارك ما ورد في كتاب الأستاذ أحمد الشايب «الأسلوب» عن أحمد أمين والذي قرر فيه الشايب بأن أحمد أمين له أسلوب ذو مزايا وخصائص تساءل قائلاً:

«هل لأحمد أمين أسلوب حتى يخلق لأسلوبه مزايا وخصائص؟ ثم قال: إن الدكتور طه وقف في قصر الزعفران سنة ١٩٢٧ فألقى كلمة في مهرجان شوقي» فقال:

إن الجامعة لا تؤرخ الأحياء. ثم هو الذي ارتضى لنفسه أن يدرس أسلوب أحمد أمين بكلية الآداب.

ثم قال: أتريدون الحق. إن أحمد أمين لم يكن له أسلوب يدرس في كلية الآداب إلا أنه أستاذ في كلية الآداب. وإلا فكيف غابت قيمة أسلوبه عن أساتذة الأزهر وأساتذة دار العلوم؟

إن الرجل لا يكون له أسلوب إلا يوم يصح أنه يحسن الثورة على ما يكره والأنس بما يحب، فعندئذ تعرف نفسه معنى الانطباعات الذاتية ويعبر عن روحه وعقله وقلبه بأسلوب خاص.

لقد اشتغل أحمد أمين بالقضاء الشرعي بضع سنين فهل قرأتم له مقالاً أو قصة تدل على أنه توجع مرة واحدة لآلام الإنسانية؟.

لقد عاش أحمد أمين بالواحات فهل سمعتم قبل أن تسمعوا مني أنه قد عاش بالواحات؟.

---

(١) الرسالة العدد ٣١٣ المجلد السابع.

Twitter: @abdulllah1994

ولكن أحمد أمين لم يكن أديباً، وإنما كان موظفاً مخلصاً لواجب الوظيفة لا يرى ما عداها من الشؤون ثم قال له طه حسين: كن أديباً فكان!...

إن هذا الرجل أراد أن يؤرخ العصر العباسي من الوجهة الأدبية فجعله عصر معدة لا عصر روح وشاء له أدبه أن يختص البصرة بحكم من أحكامه القاسية فزعم أنها عرفت «نقابة الطفيليين» فهل خطر في بال الباحث المفضال أن البصرة عرفت أكرم أنواع نكران الذات حين كانت مهداً لإخوان الصفاء؟.

لو أن أحمد أمين كان يدقق لعرف أن البصريين لم يصلوا إلى ذلك إلاّ بقوة الروح فكيف شاء له هواه أن يجعلهم أصحاب معدات، لو أن معدتي كانت كما أحب من القوة والعافية؛ لأكلت لحم الأستاذ أحمد أمين وأرحت الدنيا من أحكامه الجائرة في الأدب والتاريخ.

ولكن الدهر حكم بأن أكون من أصحاب الأرواح فلم يبق لي في محاسبته غير شيطنة الروح وفي الأرواح شياطين[1].

- ٧ -

ثم ينبري الدكتور مبارك للرد على زعم أحمد أمين بأن الأدب العربي يخلو من الإقليمية.

يقول أحمد أمين:

«أين الشعر العراقي الذي نجد فيه الشعراء يتغنون بمناظر العراق الطبيعية ويصنعون فيه أحداثهم الاجتماعية. وأين الشعر الشامي أو المصري أو الأندلسي الذي يشيد بذكر مناظر الطبيعة وأحوال الاجتماع للشام ومصر والأندلس»؟

إنك تقرأ الشعر العربي فلا تعرف إن كان هذا الشعر مصرياً أو عراقياً

(١) الرسالة العدد ٣١٤ «المقال الخامس» المجلد السابع.

Twitter: @abdulllah1994

أو شامياً إلا من ترجمة حياة الشاعر أما القالب كله فشيء واحد. والموضوع كله واحد مديح أو رثاء أو هجاء أو نحو ذلك مما قال الجاهليون.

يعتقد أحمد أمين أن شعراء العراق لم يصفوا مناظر بلادهم الطبيعية ولم يصفوا أحداثهم الاجتماعية ولو أنه كان اطلع على الشعر العراقي في عهوده الماضية. وهي التي تعنيه لعرف أن شعراء العراق لم يفرطوا في الحديث عن أنهارهم وبساتينهم ولم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من شؤون المجتمع إلا أفردوها بحديث خاص.

الشعراء المصريون في نظر أحمد أمين لم يكونوا إلا مقلدين لشعراء الشام والعراق.

ولأحمد أمين في هذا الحكم الجائر عذر معقول، لأنه لم يدرس الشعر المصري دراسة تمكنه من الحكم له أو عليه فلو كان من المطلعين لعرف أن الشعراء المصريين وصفوا بلادهم وتحدثوا عنها بأقوى العواطف وتغنوا بمحاسن بلادهم أجمل غناء.

ولنا على هذه القضية تعليق بسيط اضطررت إليه بعد أن رأيت (مبارك) يقصر في الرد على الأستاذ أحمد أمين ويبدو أنه انشغل بهجومه التقليدي على طه حسين وفضل أن يملأ الصفحات المخصصة لنشر مقاله بالرسالة في قضاء وطره.

وبودي أن أقول إن الإقليمية ظهرت في الأدب العربـي عامة وفي الشعر خاصة لأن لكل إقليم خصائصه التي لا تتوفر لسواه ولا تكون أبداً في غيره ولعل من سمات هذه الإقليمية ما انطبع به الأدب عامة والشعر خاصة في عصر الفاطميين من أسلوب الدعاية ومدح الفاطميين وحكمهم مما هو تجاوب واضح مع ارتياح الشعراء بالعطاء والجزل والمثوبة الخصبة، ومما هو صدى لأعياد الفاطميين ومواسمهم فقد انطبع الشعر الفاطمي بالصبغة التعليمية التي روجت لهذا المذهب الفاطمي فساق الشعراء حججاً وبراهين قد لا تتحملها طبيعة الشعر ويأباها روح الشاعر. ورأينا ابن هانىء يؤيد في شعره عقائد

Twitter: @abdulllah1994

الإسماعيلية ويلهم الشعراء كيف يمدحون الخلفاء الفاطميين من ناحية عقائدهم وهو الذي يقول:

أنت الـورى فاعمـر حيـاة الـورى بـاسم من الـدعـوة مشتق

وهو الذي يقول:

قد كان ينذر بالوعيد لطول ما أصغى إليك وعلم التأويـلا

فابن هانىء بهذا إنما يؤكد عقيدة الفاطميين الشيعيين في أن للشريعة ظاهراً وباطناً وأن التأويل لا يعلمه إلا الله ورسوله وخلفاؤه المنصبون من قبله إماماً بعد إمام إلى آخر الأئمة المعصومين فهل يخلو هذا الشعر من روح الإقليم؟ ما أظن هذا ولا أعتقده.

كذلك فالعصر المملوكي يضج بوفرة الأدب الإقليمي خاصة في الشعر حتى أن النقاد ومؤرخي الأدب رموا هذا العصر بالانحطاط والإسفاف. وقد بدت الإقليمية فيه ممثلة في الهندسة اللفظية الزخرفية والتحلية وحشد ألوان من الصناعة كالثورية والاستخدام والتلويح والإشارات والنكت. ولعل مرد ذلك ــ كما أوضح المؤرخون للأدب ــ يعود إلى ما انطبعت به نفوس الشعراء والأدباء بما حولهم من مرائي الزينة والمباني والمساجد والقصور وغيرها فكانت إقليمية في أدب المماليك وشعرهم لا يغيب عن الذواقة أن يميزه عما سواه من أدب العصور وما لنا نذهب بعيداً وأمامنا المثل الواضح الذي لا يحتاج إلى كثير برهان.

أدب مصر والشام في ظل السلاجقة الأتراك. ماذا يرى فيه الباحث؟.

مظهر الشكوى وآهات الأنين تغطي على سمع الشعراء وأبصارهم حتى ليبـدو شعرهم وكأنه سجل حافل بمظالم هذا العصر وصورة صادقة للحرمان الذي عاشه الشعب حتى أنه لو ألقى هذا الشعر لنسب دون مشقة إلى عصر السلاجقة.

ثم ماذا نفعل في الشعر الأندلسي؟ هل ننسى طعمه الفريد بين شعر

Twitter: @abdulllah1994

العربية طراً. وماذا نقول في عبث بغداد إبان الحكم العباسي لها؟ هل يختلط بشعر السلاجقة مثلاً أم أن له طابعه الخاص[1]؟.

إنها إقليمية في أدبنا العربي عامة وفي شعرنا خاصة تكاد تسفر عن نفسها بما لا تحتاج إلى مزيد بيان وهذا باحث فاضل من مؤرخي الأدب المعاصرين يقول في الحديث عن الحواضر التي صارت بعد الانقسام مزاحمة لبغداد وكان أن توزع الشعراء على الأقاليم أكثر مما توزع الأدباء والعلماء فصار لشعراء كل إقليم من المزايا والخواص ما لم يكن لسائر الشعراء.

ـ ٨ ـ

ثم يعود الدكتور زكي مبارك بعد غيبة طويلة مع طه حسين وما أدراك ما طه حسين عند زكي مبارك فيمسك بزمام الموضوع فيرد على أحمد أمين زعمه بأن الأدب العربي لا يصلح لتربية الأذواق ولست أدري كيف تورط في هذا الزعم وهو صاحب فجر الإسلام وضحاه وظهره. لن أورط نفسي في التعليق بل سنترك «فارس حلبتنا» يتولى الرد.

يقول مبارك:

«نحن أمام فتنة جديدة: هي فتنة القول بأن الأدب العربي لا يصلح لتربية الأذواق في الجيل الجديد. وهذه الفتنة ليست من مخترعات أحمد أمين فقد ذرَّت قرونها منذ أكثر من خمسين سنة حين أراد المستعمرون والمبشرون أن يوهموا أبناء الأمم العربية بأن الصلة بين ماضيهم وحاضرهم لم يبق لها مكان، وأن المصلحة تقتضي بأن يوضع الأدب القديم في المتحف وألا يدرسه غير المختصين على نحو ما يصنع الأوروبيون في الآداب اليونانية واللاتينية. ثم تقبل كل أمة على لغتها المحلية فتجعلها لغة التخاطب والتأليف. وبذلك تكون اللغة الفصيحة أُماً واحدة للغات الشعوب العربية. كما صارت اللاتينية أماً واحدة للغات الشعوب اللاتينية وقد صرح بذلك (المسيو ماسينون) في خطبة ألقاها في بيروت سنة ١٩٣١ ونقدتها يومذاك بمقال أرسلته إلى البلاغ من باريس.

(١) الأستاذ السباعي بيومي في تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، ص ٤٢٤.

Twitter: @abdulllah1994

والحق أن الفتنة التي أذاعها المستعمرون والمبشرون كانت فتنة براقة جذابة تزيغ البصائر والعقول وقد انخدع بها من انخدع من الأعوام الماضية فكانت المفاضلة بين الفصيحة والعامية من المشكلات التي تقام لها المناظرات في المعاهد والأندية الأدبية وقد وصل صدى هذه الفتنة إلى المجمع اللغوي بالقاهرة فانقسم الأعضاء إلى فريقين: فريق يقول بدراسة اللهجات المحلية وفريق يقول بأن الأفضل إنفاق المال في إحياء الأدب القديم وقامت بسبب هذه المشكلة مساجلات فوق صفحات الجرائد بين الدكتور منصور فهمي والدكتور طه حسين والظاهر أن الأستاذ أحمد أمين من أنصار القول بإحياء اللهجات المحلية فهو يدرس على صفحات مجلة الراديو المصري ألفاظ اللهجات المصرية باهتمام يدل على تأصل تلك الفتنة في نفسه الواعية[1].

- ٩ -

وفي مقال الرسالة (٢١) يرد زكي مبارك على أحمد أمين ويكشف سرقاته (معاذ الله أن نقول ذلك فقد تكون من توارد الأفكار ولكنه تعبير مبارك ولا شأن لي به فيرد على الزعيم بأن العرب في جاهليتهم لم تكن لهم وثنية تبدع الأساطير على نحو ما كان الحال عند اليونان) الدكتور طه حسين قد زعم أن أحمد أمين لم يكن يعرف نفسه فهداه إليها وأنا أيضاً أزعم أن أحمد أمين لم يكن يعرف نفسه وسأهديه إليها وفرق بين الهدايتين، شغل الأستاذ أحمد أمين نفسه بأن الجاهليين لم يكونوا من أهل الخيال. أخذ هذا من الدكتور أحمد ضيف. «وقد قال بعض المستشرقين مثل (رينان) ومن جرى على مذهبه: إن العرب ككل الأمم السامية ليس لها أساطير في شعرها ولا في عقائدها. وإن هذا يدل على ضيق الخيال لديهم لأن الأساطير والخرافات إنما هي نتيجة سعة الخيال. ونتيجة الخبرة والبحث وحب الاطلاع، وكل ذلك يظهر أثره في بلاغات الأمم. من نظم ونثر كما هي الحال عند الأمم الأوروبية كاليونان وغيرهم وقالوا: سعة الخيال

(١) الرسالة: العدد ٣١٨ المجلد السابع.

Twitter: @abdulllah1994

ولا يقصدون بالخيال ما نقصده نحن في المجاز والتشبيه وإنما يقصدون سعة الخيال في تصوير الحقائق وفي إدراك الموضوعات المختلفة».

إن الدكتور أحمد ضيف لم ينكر هذا الكلام ولكنه راعى الأمانة العلمية فذكر مصدره من كلام المستشرقين أما الأستاذ أحمد أمين فقد انتهب ما قاله الدكتور أحمد ضيف عن المستشرقين ثم ادعى أنه من مبتكراته.

- ١٠ -

ثم يرد زعم أحمد أمين القائل بأن الأدب العربـي على اختلاف عصوره ليس فيه إلا كاتب واحد يهتم بتحليل المعاني هو ابن خلدون... وإن كان الرد في معتقدنا ليس موضوعياً، وإنما كان في أغلبه هروباً إلى الصيد الثمين دائمًا طه حسين ـ ولو أنصف زكي مبارك لرد على أحمد أمين قائلاً وماذا نقول في شيخ كتَّاب العربية أبـي عمرو بن بحر الجاحظ؟ وماذا نقول في المسعودي صاحب التاريخ العظيم مروج الذهب؟ وماذا نقول في الغزالي المفكر الكاتب الأديب؟ وماذا نقول في الإمام الشافعي الإمام المفكر الشاعر الأديب؟ وماذا نقول في الطبري صاحب التفسير والتاريخ؟.

ولكننا حرصاً على الأمانة العلمية سننقل جزءاً مما قاله الدكتور في رده على أحمد أمين.

ويقول أحمد أمين أن الأدب العربـي على اختلاف عصوره ليس فيه إلا كاتب واحد يهتم بتحليل المعاني هو ابن خلدون ولا شك أن إعجاب أحمد أمين بابن خلدون يرجع إلى أن الدكتور طه حسين شغل به.

إن بعد الدكتور طه حسين عن مصر في أيام الصيف عرض الأستاذ أحمد أمين للمعاطب. فلو أن الدكتور طه بقي في مصر لكان من الجائز أن يعلن إعجابه بكاتب آخر غير ابن خلدون.

فهل نرجو أن يتلطف الدكتور طه حسين فيقول: إنه لا يعقل ألا ينبغ في

Twitter: @abdulllah1994

الأدب العربـي غير كاتب واحد في ذلك الأمد الطويل الذي سيطر فيه على أقطار آسيوية وأفريقية وأوروبية.

إن الدكتور طه لو قال هذه الكلمة ــ وهي حق ــ لسرت عدواها إلى الأستاذ أحمد أمين فاندفع يثني على الأدب العربـي بما هو أهله. ولكان من الممكن أن يصرح بأن الأدب العربـي نبغ فيه من الكتاب عشرات أو مئات.

ولكن طه يترفق بأصدقائه أشد الترفق ويحرص على ستر ما يقعون فيه من أوهام وأضاليل وقد يقدمهم إلى الجمهور في جلبة وضوضاء. فكيف ينتظر أن يقول في الأدب العربـي كلمة حق تشجع رجلاً مثلي على مهاجمة رجل يستبيح في الغض من أدب الغرب ما لا يباح؟.

إن الـدكتور طه حسين هو المسؤول عن أحمد أمين فهو الذي قال: «إن أحمد أمين لم يكن يعرف نفسه فهديناه إليها» ومعنى هذا أن أحمد أمين لم يكن يعرف أنه أديب قبل أن يدله الدكتور طه على الكنز المدفون في صدره!!.

ـ ١١ ـ

ثم يجيء إلينا بعد طول غيبة مقال الختام[١] وفيه ينهي مبارك المعركة بعد تركه لأمـين دون سجال طوال هذه الشهور الستة وفي هذا المقال الأخير يضيف أسباباً جديدة ويشرح جو المعركة ويصور ظروفها ويتهم الأستاذ أحمد أمين بالإغارة على مؤلفاته وأفكاره هو وأستاذه طه حسين. وينهي الخصام قائلاً: ــ في طيبة قلب ــ انتهيت من محاسبة أحمد أمين الباحث أما أحمد أمين الصديق فله من قلبـي أكرم منزلة وأرفع مكان.

ويحسن بنا أن نلم بمقتبسات من الموضوع:

يقول بعد أن يحدث القارىء عن بعض مكاره النقد الأدبـي وكيف أن الأستاذ أحمد أمين وهو المدرس وقتها بكلية الآداب كان قد أغار على رأي يتصل

---

(١) المقال الثاني والعشرون العدد ٣٣٢ مجلة الرسالة السنة السابعة.

Twitter: @abdulllah1994

بمسألة نحوية فأخذه من الأستاذ إبراهيم مصطفى، وكيف أغار عليه هو فسرق منه رأياً في مسألة تتصل بتاريخ التشريع أودع ذلك جزأه الثالث من ضحى الإسلام. وكيف أن الأستاذ إبراهيم مصطفى قد لجأ إلى ضحى الدكتور صائحاً إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فكيف يسرقها مني؟ إنه لطماع.

«كانت الصداقة بيني وبين الأستاذ أحمد أمين قد بلغت أقصى حدود المتانة والصدق وما كان ينتظر أن يرى مني غير ما يحب. وكنت والله خليقاً بالتجاوز عن سيئاته لو لم يسرف في الإساءة إلى ماضي اللغة العربية في وقت يرضي فيه العرب على تفهيم أبنائهم أن أجدادهم كانوا من أصحاب المنازل الرفيعة في العلوم والآداب والفنون وأنهم كانوا في ماضيهم من أقطاب الزمان.

وكذلك وقعت الواقعة وكان ما عرفه القراء من تمزيق الأوهام التي اعتز بها ذلك الصديق، إن الفخر بغيض ممقوت وقد عابه علي الأصدقاء قبل الأعداء ولكن ماذا أصنع وأنا أشهد آرائي تنتهب بلا تحرز ولا ترفق وبها يرد على خصومي حين يشتجر القتال؟.

اهتم الأستاذ أحمد أمين بالنص عن أن الشعر العربي كان في أغلب أحواله أدب معدة لا أدب روح وحجته في ذلك أن التكسب بالشعر كان عادة غالبة على أكثر الشعراء.

وقد طنطن بهذه المسألة وأخذ يعيدها في كل مكان وهذا الكلام وارد في البدائع ج ١ ص ٩٩. عاب أحمد أمين على العرب أن يلتزموا افتتاح القصائد بالتشبيب وأن يتصلوا بهذه العادة من جيل إلى جيل في حين أن الشاعر قد لا يكون مشبوب العاطفة في كل حين. وهذا الكلام مسروق من مقال أرسلته من باريس سنة ١٩٣١.

اهتم الأستاذ أحمد أمين بتوكيد القول بأن نزعة القرآن روحية لا حسية فنال بذلك ثناء الأستاذ محمود على قراعة الذي عد كلامه من المبتكرات فهل

Twitter: @abdulllah1994

يعلم أن هذا الكلام مسروق من قول صاحب «التصوف الإسلامي» (ج ٢ ص ٧) ويتابع الدكتور مبارك قائلاً:

«إن الفخر بغيض ممقوت وقد عابه علي الأصدقاء قبل الأعداء ولكن ماذا أصنع وأنا أشهد آرائي تنتهب بلا تحرز ولا ترفق وبها يرد عليَّ خصومي حين يشتجر القتال وكأنها مما ابتكرت أفكارهم الثواقب وألسنتهم النواطق».

يقول أحمد أمين وطه حسين: إن الأدب يجب أن يرفع نفسية الأمة ويدلها على مواطن الضعف والقوة لتواجه الحياة عن هدى وبصيرة فهل أستطيع أن أقول إن هذه الآراء منهوبة من قول صاحب رسالة اللغة والدين والتقاليد (ص ٤٦، ٤٧).

أما بعد فقد أنهيت القول عن محاسبة الأستاذ أحمد أمين بعد أن أرقت جفونه خمسة أشهر عنده كألفي سنة مما تعدون.

انتهيت من محاسبة أحمد أمين الباحث أما أحمد أمين الصديق فله في قلبي أكرم منزلة وأرفع مكان ولن يراني إلا حيث يحب في حدود المنطق والعقل. فما أرضى له أن يكون من الساخرين بالأدب العربي وماضي الأمة العربية. وسأبدأه بالتحية حيث ثقفته فلا يزور عني وجه أراه أهلاً للكرامة والحب وسلام عليه من الصديق الذي لا يغدر ولا يخون.

وهكذا تنتهي واحدة من أضخم معارك نضال الدكتور زكي مبارك والتي استطاع فيها أن يقهر خصمه قهراً موضوعياً وإن كان قد تخلله أحياناً بعض «المهاترات».

ويتدخل الأستاذ عبدالمتعال الصعيدي[1] إلى جانب الأستاذ أحمد أمين متهمًا الدكتور مبارك بأنه مغرض في حملته وأنها ليست خالصة لوجه الحق لأنه عدو للأدب العربي منذ ألف كتابه «النثر الفني» وأنه دافع عن أستاذه طه حسين الذي يشاركه نفس التهمة ـ حينما ألف كتابه «في الشعر الجاهلي» الذي

---

(١) الرسالة العدد ٣٣٦.

Twitter: @abdulllah1994

أعلن فيه عداءه للأدب العربـي، ويذكر الدكتور مبارك بمقاله المنشور في جريدة البلاغ (٣ ديسمبر ١٩٢٦) وكيف أنه عد كتاب طه حسين عن الشعر الجاهلي فتحاً جديداً في الأدب العربـي. . .

ويتدخل الدكتور عبدالوهاب عزام[١] مفنداً بعض آراء أحمد أمين في قوة وموضوعية عهدت من الدكتور عزام ـ ولكن والحق يقال لم يدخل المعركة إلى جانب الدكتور مبارك وإنما دخلها وهو في بغداد حينما نبهه إلى ما كتب الأستاذ أحمد أمين أحد الأدباء العراقيين.

وكان طبيعياً وقد نالت الضربات من صدر أحمد أمين فحطمت خطوطاً عريضة في جبهته يسارع بالهروب من ميدان السجال فينشر في الثقافة مصححاً موقفه متخلياً عن بعض مواقفه التي كان يحرص عليها ولقد كتب ما كتب دون أن يشير إلى السجال الذي كان يدور وقتها فيقول[٢]: «أردت أن يتحرر الأدب من قيوده التي تثقله وأن يكون الحكم في أدبنا أذواقنا لا أذواق غيرنا وأن يكون أدبنا معتمداً على شيئين: خير ما في الماضي مما يتناسب مع حاضرنا، ويبعث على تحقيق أملنا في مستقبلنا، ودراسة حاضرنا واستقامة أدبنا لا أن نعيش في أدبنا على الماضي وحده.

ولا يتم شيء بعد ذلك إذا نظرنا إلى الخلف فقط وإلى الخلف دائمًا. ولا يكون شيء من ذلك إلا إذا كسرنا عمود الشعر الـذي وضعه الأدب الجاهلي، إنما يكون يوم نزن الأدب العربـي ككل أدب بموازينه الصحيحة من غير عصبية ونصرح بالنقص من غير خجل ـ ونبني الجديد في غير هوادة، ونكسر قيود القديم في غير رفق»[*].

---

(١) الرسالة ١٥ نوفمبر ١٩٣٩م.

(٢) مجلة الثقافة: ١٥ أغسطس ١٩٣٩م.

(*) نستطيع أن نراجع نصوص هذه المعركة في مجلتي الثقافة والرسالة:
أعداد الثقافة: ٩، ٢٣ مايو ١٩٣٩؛ ٤، ٦ يونيو ١٩٣٩؛ ٤، ١٥ أغسطس ١٩٣٩.
أعداد الرسالة: من العدد ٣١٠ في العدد ٣٣٢ من المجلد السابع ١٩٣٩.

Twitter: @abdullah1994


Twitter: @abdullah1994

أسلوب طه حسين والأنات الحائرة

تمهيـــد:

فارسنا المغوار زكي مبارك مغرم أشد الغرام كلف غاية الكلف بتتبع آثار الخصم اللدود «طه حسين» فإذا ما ارتأى الرجل رأياً سارع فارسنا إلى هدمه وإذا ألف كتابـاً بادر إلى نقده وذمه، وإذا قال قولاً هرول إلى تفنيده، وإذا خاصم أحداً جرى إلى عراكه ــ حتى ليهيأ إليَّ أنه إذا كان قد سمع الرجل يقول «أنا طه حسين» لبادر فقال للناس: لا تصدقوه إنه (حسين طه) ــ هو مشغول ــ كما قـلت بمشـاكستـه وحربه وتأليب الناس جميعاً ضده. وهذه المعركة شاهد على ما نقول فلقد انحشر فيها دون أن يدعوه أحد المتخاصمين أو حتى أحد القراء لإبداء رأيه ــ استغفر الله ومنذ متى كان يحتاج مبارك إلى دعوة من أحد كي يدخل عراكاً ــ أليس هو الذي لام المجلة «الفلانية» حينما دعته إلى محاكمة العقاد على صفحاتها[1].

ويبدو أنه في هذه المعركة التي لم يدع إليها يرد ديناً كان في عنقه للمازني يوم أن وقف إلى جواره ليقول لطه حسين لقد ظلمت (زكي مبارك) بعد أن أخرجه من العمل في الجامعة[2] بدليل أنه في نهاية المحاكمة التي عقدها للفصل بين الخصمين قال عن المازني الذي تحيز معه ضد طه حســين: والمازني من أمجاد مصر الأدبية وصفحة واحدة من أصغر كتاب ألفه أبقى على الزمن من جميع

---

(١) زعم هذا الزعم في أحد أعداد الرسالة.

(٢) ينظر هذا المقال في موضعه من هذا البحث ص ٢٠٠ «معركة لقمة العيش» ص ١٨٣.

Twitter: @abdulllah1994

المناصب. إلى أن يقول: وكأنه يذكر المازني بما قاله عنه في محنته «اقترحت مرة على صفحات الرسالة أن تقرر الدولة معاشاً للأستاذ المازني بحجة أنه أدى للأدب خدمات لم يـؤدها من تمتعوا بكرم الدولة باسم الأقدمية في الوظائف. وأنا في هذه اللحظة أسحب ذلك الاقتراح، فلن يجوع المازني وفي يده قلمه، ولن يشيخ قلم المازني ولو صار صاحبه في ضمور طيف الخيال».

نعود إلى المعركة التي بين أيدينا فنلخص ما حدث... عندما أصدر الشاعر عزيز أباظة ديوانه «أنّات حائرة» الذي كتب مقدمته طه حسين بادر المازني إلى تقديم الديوان على صفحات البلاغ[1] وتعرض لطه حسين بالهجوم وكان مما قال «إن الدكتور طه خسره الأدب ولم تربحه الحكومة» وتثور ثائرة الدكتور طه فكتب مقالاً أراد به دفع هجوم المازني فجاء أقسى من الهجوم فقد سخر من المازني سخرية مرة وألب عليه حادثة السـرقة من آثـار الشعراء الإنجليز[2].

وإلى هنا صمت المتخاصمان. ولكن الدكتور مبارك يصر على أن ينقل المعركة بتمامها إلى صفحات الرسالة بحجة أن القراء لم يلتفتوا إلى ما يكتب في الصحف اليومية من المصاولات الأدبية ويعقد محكمة على صفحات الرسالة ويتخذ من نفسه الخصم والحكم فيتحيز تحيزاً واضحاً إلى جانب الأستاذ المازني ـ لما سبق أن أوضحنا ـ وإن كان قد أوهمنا فأنصف طه حسين في بعض العبارات قال في الرسالة[3] مخاطباً القراء:

ولأجل أن يدرك القراء حيثيات الحكم في هذه القضية أسوق إليهم كلمات الخصمين قبل الشروع في الحساب.

قال الأستاذ المازني بعد التمهيد «وتوكلت على الله فقرأت التصدير الذي كتبه الدكتور طه حسين بك فقلت لنفسي لا حول ولا قوة إلا بالله! هذا طه

---

(١) البلاغ ٢٥ يونيه ١٩٤٣.

(٢) اتهم بعض النقاد المازني بسرقة قصائد بعض الشعراء الإنجليز.

(٣) العدد ٥٢٧ المجلد الحادي عشر.

Twitter: @abdulllah1994

حسين يخسره الأدب ولا تكسبه الحكومة فما خلق لها بل للأدب وإنه ليضيع نفسه في هذه المناصب التي تشغله وتستنفد جهده ووقته، فإذا كتب جاء بماذا؟ جاء بمثل هذا الكلام الذي لا محصول وراءه، ولا أعرف له رأساً من ذنب ــ فلماذا لا يستقيل ويريح نفسه من هذا العناء الباطل ويتفرغ للأدب؟ فماذا يفتنه من هذا العرض الزائل؟

كيف يستطيع بالله أن يواظب على التحصيل وتغذية عقله ونفسه ــ وهو ما لا غنى بأديب عنه ــ وكيف يتسنى له التجويد حين يكتب وهو مشغول في ليله ونهاره بهذا الذي لا آخر له من شؤون الوظيفة واللجان وما إليها وهو يتولى أعمالاً كل واحد منها كاف للإرهاق؟ فمن جامعة فاروق إلى منصب المستشار الفني إلى وزارة المعارف إلى عشرات من اللجان يشارك فيها وتأبى له كرامته أن يكون صفراً، ولو اقتصر على الجامعة لكان خيراً له ولو نفض يده من هذا كله لكان أفضل.

ثم يلخص عناصر الهجوم في المقال فيقول: وخلاصة هذه الكلمة:

١ ــ أن الدكتور طه خسره الأدب ولم تكسبه الحكومة ومعنى ذلك أنه يتولى عملاً لم يخلق له وسنرى كيف ثار الدكتور طه على هذه العبارة وعدها تحدياً لقدرته على الأعمال الحكومية.

٢ ــ وان الدكتور يضيع نفسه في مناصب تشغله وتستنفد جهده ووقته، فإذا كتب جاء بكلام لا محصول من ورائه ولا يعرف له رأساً من ذنب.

٣ ــ وان الأفضل للدكتور طه أن يستقيل ويريح نفسه من العناء الباطل (وهو عمله في الحكومة) ويتفرغ للأدب.

٤ ــ وأنه لا يمكن للدكتور أن يزود نفسه بالتحصيل أو يتفرغ للتجويد حين يكتب وهو مشغول ليله ونهاره بأعمال كل واحد منها كاف للإرهاق.

ثم يسوق الدكتور مبارك كلمة الدكتور طه مثلما ساق كلمة المازني فيقول:

Twitter: @abdulllah1994

وجه الدكتور كلمته إلى صاحب البلاغ ثم قال بعد التمهيد[1]:

«أؤكد للأستاذ المازني أني آسف أشد الأسف لأن الأستاذ عزيز أباظة لم يطلب إليه هو كتابة هذا التصدير إذن لكان له المحصول كل المحصول ولكان له رأس كقمة الجبل وذنب كالذي خوف به المنجمون المعتصم حين هم بفتح عمورية وأسف أشد الأسف لأن الحكومة لم تكل إلى الأستاذ عملاً في وزارة المعارف وفي جامعة فاروق إذن لكسبته الحكومة والأدب جميعاً والأستاذ المازني يعرف أن لأبي العلاء قصة مع الشريف الرضي، وأظنه يأذن لي في أن أسرق من هذه القصة شيئاً فالسرقة في الأدب مباحة ولا سيما حين تكون في العلن لا في السر وهي حينئذ أشبه بالسطو ولست أسرق من قصة أبي العلاء أو لست أسطو عليها إلا بمقدار.

فأنا أرجو أن يقرأ الأستاذ سورة الفلق وأن يقرأ مطولة لبيد ومطولة طرفة وعينية سويد بن أبي كاهل التي مطلعها:

بسطت رابعة الحبل لنا فبسطنا الحبل منها ما اتسع

ورائية الأخطل التي مطلعها:

ألا يا أسلمي يا هند هند بني بدر وإن كان حيًّانا عدى آخر الدهر

ولامية المتنبي التي مطلعها:

بقائي شاء ليس هم ارتحالاً وحسن الصبر ذاقوا لا الجمالا

وسيقول القراء إني ألغز بهذا الكلام ولكني أعتذر إليهم فإني لا أكتب للأستاذ المازني وأنا أسلك في ذلك طريقة الأستاذ نفسه، فمن المحقق أنهم لم يفهموا عنه ما قال أمس لأنهم لم يقرأوا التصدير الذي لا محصول وراءه والذي لا رأس له ولا ذنب...

وأحبب إلي بأن أستقيل وأفرغ للأدب، ولكني أود أن أستيقن قبل ذلك

---

(١) جاء تعقيب الدكتور طه حسين في جريدة البلاغ ٢٦ يوليه ١٩٤٣.

Twitter: @abdulllah1994

بأن الحكومة ستضع الأستاذ المازني مكاني لنرى أيكتب كلاماً كالذي أكتبه أم يكتب كلاماً خيراً منه؟ . . . أما بعد فأنا ضامن للقراء إحدى الحسنيين: فإما أن يسكت الأستاذ المازني فيستريح من هذا السخف الذي نحن فيه وإما أن يكتب الأستاذ المازني فيجدوا شيئاً يرفه عليهم من هذا الغيظ المهلك، ويقرأوا كلاماً له الرؤوس والأذناب كل الأذناب».

ثم يبدأ في حل الألفاظ التي ساقها الدكتور في ذم صاحبه. وبهذا تنتقل المعركة إلى نوع من الأدب طريف:

«ونسارع فنذكر أن الإشارة إلى سورة الفلق منصبة على آية ومن شر حاسد إذا حسد» وأن الإشارة إلى مطولة لبيد تتجه إلى هذين البيتين:

فاقنع بما قسم المليك فإنما ... قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت في معشر ... أوفى بأعظم حظها قسامها

وأنه يريد من مطولة (طرفة) هذين البيتين:

فلو كنت وغلاً في الرجال لضرني ... عداوة ذي الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عني الأعادي جرأتي ... عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي

ومن عينية (سويد) أشار الدكتور طه إلى هذين البيتين:

رب من أنضجت غيظاً قلبه ... قد تمنى لي موتاً لم يطع
وتراني كالشجا في حلقه ... عسراً مخرجه ما ينتزع

وأراد من رائية (الأخطل) هذين البيتين:

تنق بلا شيء شيوخ محارب ... وما خلتها كانت تريش ولا تبرى
ضفادع في ظلمات ليل تجاوبت ... فدل عليها صوتها خشية البحر

ومن لامية المتنبي أراد هذين البيتين:

أرى المتشاعرين غروا بذمي ... ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مراً به الماء الزلالا

Twitter: @abdulllah1994

وما أردت تبليغ هذه التعاريض إلى الأستاذ المازني وإنما أردت منفعة القراء والشر يتسم بالخير في بعض الأحايين.

ثم يستل غمزات الدكتور طه للمازني من بين سطور المقال فيقول[1]:

١ ــ كان يستطيع أن يقول إنه «يستعير» قصة أبي العلاء مع الشريف «ويستعير» هي اللفظة المطلوبة في هذا الموقع ولكنه قال إنه «يسرق» ليندد بالأستاذ المازني وطه لم يكتف بذلك بل جعل سرقته علنية وهي «حينئذ أشبه بالسطو» كما قال.

٢ ــ صور الأستاذ المازني بصورة الحاسد لمن كتب تصدير الديوان.

٣ ــ وصوره بصورة من يعجز عن عمل المستشار الفني بوزارة المعارف ومن يعجز عن إدارة جامعة فاروق.

ثم يتولى فصل القضية بين المتخاصمين فيقرر لأول مرة منذ بدأ الهجوم على الدكتور أنه يصلح لكل شيء حتى للأعمال الحكومية.

«لقد فصلنا الخصومة بين الرجلين بوضوح ولم يبق إلا أن نكف شر الأستاذ المازني عن الدكتور طه وشر الدكتور عن الأستاذ المازني لأننا نكره أن تختل الموازين في هذه البلاد.

وإذا كان الأستاذ المازني هو البادىء بالظلم فأنا أبدأ بالدفاع عن الدكتور طه والهجوم عليه ذو شعب فهو تارة أديب أضاع نفسه بالأعمال الحكومية وتارة موظف لا يحسن إدارة الأعمال وتارة حائر لا يهتدي إلى ساحل الأمان.

وأشهد أن الدكتور طه من أقدر الرجال على إدارة الأعمال الحكومية فما تولى عملاً إلا أقبل عليه بهمة وقوة ولا سما إلى مطلب إلا وصل إليه بأيسر أو أعسر مجهود والدكتور طه مثال نادر من أمثلة البراعة في الشؤون الإدارية وهو مقدور على سرعة التصرف وأخطاؤه القليلة أو الكثيرة لا تقاس إلى صوابه الملحوظ في الابتكارات الديوانية.

---

(١) ص ٢٣٦ المعارك الأدبية في مصر منذ ١٩١٤/١٩٣٩ لأنور الجندي ١٩٨٣ مصدر سابق.

Twitter: @abdulllah1994

وما الذي يمنع من الحكم بأن الدكتور طه دفع عن رجال الأدب مقالة من أسوأ المقالات فقد مرت أزمان والناس يتوهمون أن رجال الأدب لا يصلحون للأعمال الإدارية وكان من أثر هذا التوهم أن لم نر لأحدهم مكاناً في المناصب العالية من الوجهة الرسمية فجاء نجاح الدكتور طه رداً حاسمًا على أوهام أولئك المتوهمين. وكذلك يقال في تولي الدكتور طه إدارة جامعة فاروق فذلك مغنم عظيم لرجال اللغة العربية وكانت الحكومة لا تكل إلى أحد منهم إدارة مدرسة ابتدائية وهل ننسى أن مدرسة دار العلوم ظلت آماداً طوالاً تحت نظارة رجال من غير أبنائها مع أن منهم كثيراً من الأكفاء؟.

ويسرني أن تشهد البواكير بأن الدكتور طه سيفلح في إدارة جامعة فاروق كما أفلح من قبل في إدارة كلية الآداب بجامعة فـؤاد وكما أفلح في أعماله بوزارة المعارف.

أما قول الأستاذ المازني بأن شواغل الدكتور طه تصرفه عن تزويد عقله بالمطالعات والمراجعات فهو قول صحيح ولكنه لا يـؤذي الدكتور طه في شيء لأن الدكتور قد اختار نفسه أن يكون من رجال الدولة لا من رجال الأدب وهو لن يزاحم أحداً من الباحثين. ولن يقول اني أوحد الناس في جميع الفنون. فما يجوز لمن يكون في مثل حصافته أن يتناسى أن الأستاذية في الأدب توجب الانقطاع إلى الأدب وتفرض الخلوة إلى النفس ساعات من كل يوم. وذلك لا يتيسر لمن تكون الأعمال الإدارية عناءه بالنهار وهمه بالليل.

أما المازني فلن يموت أبداً وهل يموت رجال الأقلام والآراء؟

المازني من أمجاد مصر الأدبية وصفحة واحدة من أصغر كتاب ألفه المازني أبقى على الزمن من جميع المناصب. والله عز شأنه أقسم بالقلم ولم يقسم بالجاه ولا بالمال.

وهل كانت مصر ترضى أن يصير المازني إلى وظيفة تقبره كما قبرت الوظائف مئات من المفكرين بهذه البلاد؟

Twitter: @abdulllah1994

ويتابع الدكتور زكي قائلاً:

اقترحت مرة على صفحات الرسالة أن تقرر الدولة معاشاً للأستاذ المازني بحجة أنه أدى للأدب خدمات لم يـؤدها من تمتعوا بكرم الدولة باسم الأقدمية في الوظائف.

وأنا في هذه اللحظة أسحب ذلك الاقتراح، فلن يجوع المازني وفي يده قلمه، ولن يشيخ قلم المازني ولو صار صاحبه في ضمور طيف الخيال...

وعلى الرغم مما رأينا من الدفاع عن الدكتور طه وإنصافه في بعض المواطن إلا أن ذلك يبدو وكأنه من وراء القلب. بينما كان دفاعه عن المازني يصدر حلالاً من القلب على أن ذلك كله ليس بسبب موقفه من الحكومة الأدبية التي زعمها. والتي ارتآها لنفسه دون أن يدعوه إلى ذلك أحد وإنما هي الخصومة القديمة المتجددة ولو سألنا الدكتور عن قوله: إن المازني من أمجاد مصر الأدبية وإنه لن يموت لأن رجال الأقلام والآراء لا يموتون؟ إلى أي حد ينطبق هذا القول على الدكتور طه لصاح من فوره قائلاً: هذا الوصف لا ينطبق عليه؛ لأنه من رجال الحكومة ولا ينفع إلا في إدارة الأعمال.

لقد عاش زكي مبارك معاركاً «فضولياً» يغشى المعارك دون أن يدعوه أحد وكأنه من الجند «المرتزقة» ــ ولكن بدون أجر ــ الذين يجلبون في عصرنا هذا لغزو الأوطان وإثارة القلاقل.

وعلى أية حال فقد كانت معركة طريفة فيها الكثير من الموضوعية وإن افتقرت افتقاراً شديداً إلى انطباق وصف المعركة عليها فقد دارت كأغلب معارك أو بمعنى أدق «خصومات» زكي مبارك من طرف واحد(*).

□ □ □

(*) نستطيع أن نجد نصوص هذه المعركة في أعداد البلاغ ١٩٤٣؛ الرسالة ١٩٤٣. وللمعركة بقية في كتاب «قبض الريح» لإبراهيم عبدالقادر المازني وقد لخصها الأستاذ أنور الجندي في كتابه المعارك الأدبية «مصدر سابق».

Twitter: @abdulllah1994

الكاتب المجهول وإعجاز القرآن

كما سلط الدكتور زكي مبارك على طه حسين قيض الله للدكتور مبارك من ينتقم منه فهناك ثأر دائم ونار مشتعلة الأوار بين الدكتور زكي وخصمه الدكتور محمد أحمد الغمراوي فما يكاد الأول يخرج بفكرة أو ينشر مقالاً أو يطرح بحثاً إلا تعقبه الثاني بالمآخذ. وإذا كان ولا بد وأن يذكر الحق فإن الغمراوي كثيراً ما كان يفحم الدكتور ويسكته لأن الحق والموضوعية والحيدة في البحث كانت دائمًا في جانبه.

والحوار الذي نعرضه الآن هو من قبيل المناورات التي كتبت الهزيمة فيها سطورها السوداء على جبين الدكتور حتى أنه فر هارباً من ميدان السجال منذ الضربة الأولى ـ وهي بلا شك ـ معركة طريفة.

صدرت الرسالة[1] وبين سطورها مقال تحت عنوان «أعوذ برب الفلق من شر ما خلق» وقيل انه للكاتب المجهول[2] قال فيه صاحبه ـ ذلك المجهول ـ: «أما بعد فإني لا أعوذ برب الفلق من شر ما خلق وإنما أعوذ برب الفلق من خير ما خلق وهو الجمال».

وانتهزها الغمراوي فرصة ليكيل بسببها لخصمه الضربات الموجعات فبعث إلى الرسالة بمقال نشر بالعدد (٥٥٤) تحت عنوان «من إعجاز القرآن» وفيه

---

(١) العدد ٥١١، المجلد الثاني عشر.

(٢) دأب زكي مبارك في بعض مقالاته على تذييلها بعدة ألقاب مثل «الكاتب المعروف» «والدكتور بديع الزمان» و«الفتى الأزهري» و«الأستاذ الجامعي».

Twitter: @abdulllah1994

يندد تنديداً جارحاً بدكتورنا العملاق ويسفه آراءه وأفكاره السابقة واللاحقة بل ومعانيه كلها نثراً وشعراً ثم يضرب ضربته فيكشف الستر عن الكاتب المجهول ويقول: إنه الدكتور زكي مبارك. ويمضي في مقاله ساخراً فيقول:

«ولعلك لو فتشت في قلبه حين كتب هذا لوجدته مسروراً به، ويرى أنه جاء بطريف وهذا خذلان الله لكل من يلحد في آياته، يخفى عنه الغلطة المنكرة لا تخفى على العامي من الناس ــ والغلطة المنكرة هي جهله أن كلمة (شر) في الآية الكريمة اسم لا أفعل تفضيل وأن الفرق بين معنى الآية كما فهمها وبين معناها كما أنزلت كالفرق بين الجماد والحي، والإعجاز وغير الإعجاز.

ثم يتابع قوله: «وإذا أدرك زكي مبارك غلطته فحاول أن ينكر أن (شر) في جملته أفعل تفضيل كذبته كلمة (خير) في نفس الجملة، إذ لا شك مطلقاً في أن (خير) في جملته تلك أفعل تفضيل جاء في مقابلة (شر) أفعل التفضيل الآخر من أول الجملة.

ثم يمضي في التدليل على حجته فيقول: «إن كلمة شر إذا كانت اسمًا مضافاً إلى ما الموصولة كما هي في الواقع في قوله تعالى: ﴿من شر ما خلق﴾ في السورة الكريمة المعروفة شملت كل شر لكل مخلوق فالاستعاذة بالله من شر ما خلق على هذا الوجه هي استعاذة تامة كاملة لم تدع موضعاً لاستدراك مستدرك ولا لعب لاعب فإذا أراد مغرورِ أن يلعب باللفظ تظرفاً واستطرافاً سقط سقطة الدكتور زكي مبارك.

وينهي المقال كما بدأه بالطعن في كفاءة الدكتور العلمية وعدم إحاطته بالإعجاز الفني للقرآن الكريم.

ولو سكت الدكتور فلم يرد لكان خيراً له ولوفر على نفسه عناء كبيراً ولمرت المعركة كما مر غيرها من المعارك التي حمل سكوت الدكتور فيها على محمل غير الهزيمة كأن يقال: إنه استهان بمن كتب أو إنه يرحمه من سخط قلمه أو غير ذلك من التعاليل والتفاسير.

Twitter: @abdulllah1994

ولكن شاء الله أن ينكشف الأمر وينجلي الستر فكتب معقباً على ما كتبه الأستاذ الغمراوي في الرسالة[1] وفيه (أعني فيما كتب) تبرأ من المقال «قل أعوذ برب الفلق» والذي نشر منسوباً إلى الكاتب المجهول فقال «قضيت ما قضيت من زماني وأنا نهبة للنمائم». ولم يبق من البلية إلا أن ينم على أسلوبي، وكنت أظنه يحفظ أسراري عفا الله عنك يا أسلوب المبارك.

أقول هذا وقد حاول ناس أن يقلدوا أسلوبي ليؤذوني كالذي يصنع الكاتب المجهول والكاتب المعروف والدكتور بديع الزمان، والسيد فلان، والفتى الأزهري، والأستاذ الجامعي. وهي أسماء رجال من تلاميذي. وأنا لن أخذل تلاميذي ولن أنهاهم عن تقليد أسلوبي لأني دعوتهم أن يكونوا صورة من روحي وعقلي وبياني.

ولكن من هذا الكاتب الذي يتبهنس في العدد السالف من مجلة الرسالة فيحمل الدكتور زكي مبارك جرائر الكاتب المجهول؟

من هذا الكاتب وهو لا يمضغ إلا كلاماً حاورني به منذ عشرين سنة في بيت القاياتي؟

إنه يتمسح بالدين لينتصر علي وليس هناك. فالإسلام لا يعرف أمثاله لأنه دين حقائق لا دين أباطيل.

ثم يكاد يفصح عن نفسه دون أن يدري حينما يقول:

ولو كان مسلمًا صحيح الإيمان لستر أخطائي إن كنت من المخطئين، ولكنه مسلم بالصورة لا بالحقيقة ولن يقام لتحديه ميزان لأنه أضعف من أن يقام لتحديه ميزان.

ويبتهج الأستاذ الغمراوي لهذا الخذلان المباركي الذي أعلن عنه صاحبه

(١) العدد ٥٥٥، المجلد الثاني عشر.

Twitter: @abdulllah1994

دون أن يدري، فيكتب تعقيباً في بريد الرسالة[1] يهدد فيه وينذر بإعلان الحرب والتي أعلنت فعلاً فيما بعد[2]. فهو يقول فرحاً مبتهجاً:

ينكر الدكتور زكي مبارك أنه الكاتب المجهول وليس في الناس من يصدقه في ذلك ولا زكي مبارك نفسه.

ويقول: إني أحاوره بكلام حاورته به في بيت القاياتي منذ عشرين سنة وليس يدري.

إنه بقوله هذا يعترف على نفسه بإنكاره إعجاز القرآن واتهامه بالتشكيك فيه في كتابه «النثر الفني» ونثره الفني لا يزيد عمره عن بضع سنين.

ـ ثم هو لا يدري أنه بقوله ذلك أبطل أيضاً ما زعم من صورية إسلامي لأني لم أستر أخطاءه إن كان من المخطئين، أليس يكفيه ستر تلك الأخطاء قرابة عشرين سنة حتى كان هو الذي فضح نفسه بما كتب في كتبه وفي مقالاته؟

ـ لقد أسندت إلى زكي مبارك تهمًا معينة تحديته بها كما يقول لينكرها إذا استطاع فلم يفعل ولو استطاع لفعل، لكنه يعلم أن مجرد الإنكار لا يغني. وكلامه شاهد عليه ثم عز عليه أن يتبرأ من كلامه ذلك بعد أن طال افتخاره به، فجمجم يقول إني أتمسح بالدين لأنتصر عليه ودمدم يظن أنه يستطيع أن يخدع الناس عن ضعفه متظاهراً بالقوة. ولست أبغي إلا أن يعرفه الناس فيحذروه.

ثم ينذر ويهدد بإعلان الحرب وإشعال نارها الضروس إن لم ينته الدكتور عما هو فيه ولننظر إليه يقول:

«فإذا هو لم يخرج عما دخل فيه بالتبرؤ منه والرجوع عنه فسنخرج نحن مما دخلنا فيه بإيراد الدليل عليه من كلام زكي مبارك نفسه وحسبنا الله ونعم الوكيل».

---

(١) العدد ٥٥٦، المجلد الثاني عشر.

(٢) ينظر في ص ١٥٧ من هذا البحث عند الكلام على تجديد حملات النثر الفني.

Twitter: @abdulllah1994

ولو انتهى الأمر عند هذا الحد لانتهت المعركة بثمرتها الفجة في انتصار الدكتور الغمراوي على الدكتور مبارك لأنه الدكتور «أبو المعارك» تبرأ من كلمته التي نشرها مستعيراً لقب الكاتب المجهول.

إلا أن قلم التحرير في مجلة الرسالة ــ لأمر يعلمه الله ــ أراد أن يفصح عن الأمر بما لا يدع مجالاً للشك في أسلوب الدكتور فخرج العدد (٥٥٦) من الرسالة[١] المجلد الثاني عشر يحمل بين مقالاته مقالاً بعنوان «لقد هان هذا الخطب» ذكر في فهرس العدد منسوباً إلى الدكتور زكي مبارك بينما ذيل ووضع داخل العدد بلقب وإمضاء «الكاتب المجهول» وكأن المحرر يريد أن يقول للقارىء ــ في لف ودوران ــ إن الكاتب المجهول هو نفسه (زكي مبارك) فلا تصدقوه إن زعم غير ذلك.

وبتلك الخدعة الصحفية وضح الصبح لذي عينين وانكشف للناس أمر «الكاتب المجهول» وانفضح «سر الدكتور الذي ظن أن الأمور تعاونه في كل الأحايين وكانت هذه المعركة مقدمة طبيعية لتجديد المعارك حول «النثر الفني» وسيأتي ذلك في موضعه.

عفا الله عن الدكتو لقد فاتته الحيطة في بعض الأمور فاستهلك قلمه وحيويته في بعض المعارك الخاسرة[*].

□ □ □

(١) نفس العدد الذي نشر به تعقيب الدكتور الغمراوي الأخير.

(*) يستطيع الباحث أن يجد نصوص هذه الخصومة في مجلة الرسالة المجلد الثاني عشر الأعداد ٥٥١، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، (١٩٤٤).

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdulllah1994

حول كتاب النثر الفني (المعارك الأولى)

تمهيـــد:

كتاب النثر الفني هو الدعامة الأولى التي بنى عليها الدكتور زكي مبارك مجده الأدبـي، ولعل مؤلفه عن ألتصوف الإسلامي وهو رسالة الدكتوراه الثالثة هو الدعامة الثانية لهذا المجد ولقد ظل مؤلفه عن النثر الفني وهو رسالـة الدكتوراه من جامعة السربون **١٩٣١** يحتل مكان الصدارة من نفسه فلقد قال عنه سنة **١٩٤٧** في مقدمة ديوانه «ألحان الخلود»:

«ستبيد أحجار الجامعة المصرية ويبقى كتاب النثر الفني» ثم برهن على ذلك بقوله: «والفكرة صحيحة فقد بادت المدرسة النظامية التي تعلم فيها الغزالي وبقيت مؤلفات الغزالي لأن الفكر صـورة من صور الله والله حي لا يموت».

ولقد ظل النثر الفني أيضاً موضع جدل طويل ونزاع استمر قرابة العشرين عاماً بين باريس ومصر وذلك لجرأة الآراء التي دار حولها والتي وردت فيه حول النثر الفني عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام وكيف أنه وجد في الجاهلية نثر فني وكيف أن القرآن شاهد من شواهد النثر الفني في صدر الإسلام، وهو بهذه الدعوى الأخيرة يناقض طه حسين في دعوته التي أنكر فيها كل شيء يتصل بالجاهلية وهو بهذه الدعوى أيضاً يفتح باباً للنقاش لم يهدأ إلا بعد مـوته واحتجاب الكتاب عن أنظار النقاد ثم هو يزعم في مؤلفه هذا أن العرب كانوا على قدر من الحضارة والعلم فلما جاء الإسلام لم يزد عن كونه دفعهم فاندفعوا.

Twitter: @abdulllah1994

ولسنا بصدد مناقشة هذه الآراء فيكفيها ما قوبلت به في الأوساط الأدبية هنا وهناك بالنقض والتحليل والأخذ والعطاء وإنما سنكتفي بالتعليق المجمل إذا استطعنا إلى ذلك سبيلاً. ويجبرنا الإنصاف على أن نقول إن الدكتور مبارك وقف بكتابه هذا موقفاً مشرفاً من ثقافته العربية على الرغم مما جاء في الكتاب من آراء اشتجرت حولها وجهات النظر مما جعل التاريخ الأدبي ينظر إليها بمنظار غير منظار (المبارك).

فما زال التاريخ الأدبي الحديث يروي كيف استطاع الدكتور مبارك أن يرفض الثقة الفكرية بعلماء الغرب ومستشرقيه فقد تعرض كتابه هذا لتفنيد آراء مسيو مرسيه رأس المستشرقين الفرنسيين في السربون والذي خالفه الدكتور مبارك مخالفة صريحة كادت تودي بآرائه التي بناها حول النثر الفني عند العرب مما جعل «المسيو مرسيه» يغضب لذلك أشد الغضب ويأمر ــ بوصفه المشرف على الرسالة ــ بحذف الفصلين اللذين عارض فيهما مبارك آراءه بحجة أنهما لون من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسي في البحث، ولكن الدكتور مبارك يصر ــ بعناده المعروف ــ وصلابته المشهورة على إبقاء الفصلين بحجة أنهما العماد الذي تنهض عليه نظريته في نشأة النثر الفني ويلاقي الدكتور مبارك في سبيل ذلك ما يلاقي من عَنَت وظلم.

ولعل التاريخ الأدبي الذي لامه على آرائه المتطرفة في النثر الفني لا ينسى أن أحد المستشرقين[1] اعترف ببراءة زكي مبارك من التبعية الفكرية للغرب بينما تورط غيره في هذه التبعية وذلك حين قارن بين آراء طه حسين في الشعر الجاهلي وآراء زكي مبارك في النثر الفني ولنستمع إليه يقول: «إذا قرأنا أفكار طه حسين قلنا هذه بضاعتنا رُدت إلينا».

«وحينما أقرأ أبحاث زكي مبارك أشعر أنني أواجه شخصية جديدة، ومن الإنصاف أن نذكر أن الدكتور مبارك نقد نفسه ــ كما تعود في نقد مؤلفاته ــ فقال: إن من أهم عيوب الكتاب:

---

(١) مسيو ماسينون أحد أساتذة السربون حين ذاك.

Twitter: @abdulllah1994

١ ـ غلبة النزعة الوجدانية في الرسالة العلمية.

٢ ـ اختلاف منهج التأليف في الكتاب.

ثم دافع عن نفسه فقال:

«وهذا يرجع إلى أنه لم يؤلف في عام واحد وإنما كتبت فصوله في خلال سبع سنين تحول فيها الأسلوب والذوق من حال إلى حال».

وإن كان هذا عندي ليس مبرراً كافياً لما أخذه الدكتور على نفسه فهذه رسالة علمية تقوم على البحث المجرد وليست مجرد كتاب. وفرق واضح بين الكتاب المؤلف للعرض في السوق والرسالة العلمية وقد كان أولى بالدكتور مبارك وهو الذي درس في جامعات الغرب أن يتبع المنهج العلمي السليم وأن لا يترك الثورات العاطفية تسيطر على قلمه في مثل هذا الموقف. ويقتضينا الإنصاف أيضاً توضيح أن الدكتور مبارك قدم كتابه هذا بمقدمة ضافية تحدث فيها كما هو دأبه عن نفسه وأعلن فيها عن أدبه ودافع عن آرائه التي تهجم عليه بسببها المتهجمون قال: «هذا كتاب النثر الفني في القرن الرابع الهجري وهو كتاب شغلت به نفسي سبع سنين فإن رآه المنصفون خليقاً بأن يغمر قلب مؤلفه بشعاع من النشوة والاعتزاز فهو عصارة لجهود عشرين عاماً قضاها مؤلفه في دراسة الأدب العربي والأدب الفرنسي وإن رأوه أصغر من أن يورث المؤلف شيئاً من الزهو فليتذكروا أني ألفته في أعوام سود لقيت فيها من عنت الأيام ما يقصم الظهر ويقصف العمر فقد كنت أشطر العام شطرين أقضي شطره الأول في القاهرة حيث أؤدي عملي وأجني رزقي، وأقضي شطره الثاني في باريس كالطير الغريب أحادث العلماء وأستلهم المؤلفين إلى أن ينفد ما أدخرته أو يكاد ثم صممت على أن انقطع للدرس في جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت ولست بصدد استكشاف حالة الرجل النفسية أو استطلاع جوانب حياته الوجدانية ولست في مقام الدفاع حتى أبسط رأيي فيه ولكني أحب أن أقول أن مجهود الرجل جدير بأن يحمد وجدير بأن ينظر إليه بعين الإكبار والإجلال ولكن ليس معنى ذلك أن نترك له الطريق الممهد للهجوم على الحقائق التعليمية الثابتة بحجة التذرع إلى فرض رأي جديد ولنستمع إلى رأي النقاد في كتابه بعد أن

Twitter: @abdulllah1994

استطلعنا الظروف التي أحاطت به[1] ولعلي سأضطر من جديد إلى إعادة النقاط التي صارت محل خلاف وهي التي دارت حولها المعركة:

١ ـ كان العرب على قدر من الحضارة والعلم قبل الإسلام ولم يزد الإسلام عن كونه دفعهم إلى الأمام فاستجابوا إلى الدفع.

٢ ـ النثر الفني كان موجوداً عند العرب قبل الإسلام.

٣ ـ القرآن شاهد من شواهد الشعر الجاهلي.

٤ ـ العرب في جاهليتهم مروا بتطور دام ثلاثة قرون قبل البعثة.

ولعله ليس من الغرابة أن تدور المعارك حول هذا الكتاب في ميادين مختلفة فلقد دار شق منها على صفحات البلاغ ودار شق آخر على صفحات الرسالة عدا ما دار على صفحات الجرائد والمجلات الأخرى والتي لم نوفق إلى الحصول عليها وكان في مكنة الدكتور مبارك أن يبدل ويغير في آرائه بعد أن استبان أفق المعركة التي دارت حول آرائه والتي بدا فيها كثير من الشطط ولكنه جرياً على مألوف عادته لم يوافق على الحذف أو التعديل وحسبه أنه لم يستجب إلى (مسيو مرسيه) فكيف يستجيب لأقلام أقل ما يقال فيها في نظره إنها مأجورة لتحطيمه والنيل منه.

نصوص المعركة:

ـ ١ ـ

لعل الأستاذ الشيخ عبدالمتعال الصعيدي هو أول من بدأ النقاش حول

---

(١) لقي الدكتور مبارك من ألوان التكريم ما أثلج صدره وأبهج فؤاده عندما نال إجازة الدكتوراه عن النثر الفني من السربون فلقد أقامت له الجمعية الإسلامية بباريس حفل تكريم بعد أن أقام له أستاذه في السربون حفلاً تكريمياً بمعهد الدراسات الإسلامية.

وعندما ظهر الكتاب في طبعته العربية أقيم له حفل تكريم بالقاهرة تكلم فيه كثير من رجال الأدب في مصر.

قدمت الرسالة باللغة الفرنسية إلى جامعة السربون سنة ١٩٣١م ثم ترجمها الدكتور مبارك إلى العربية أو لعلها كانت مترجمة قبل مناقشتها فقد ظهرت مقالات البلاغ قبل طبع الكتاب عام ١٩٣٤م.

Twitter: @abdulllah1994

بعض الآراء التي اشتمل عليها النثر الفني فقد نشر في سنة ١٩٣١ جملة مقالات في البلاغ يهاجم فيها الدكتور زكي حول هذه الآراء.

فهو مرة يقول[١] متهمًا الدكتور زكي بالشعوبية.

«إن هذا الشك وتلك الشعوبية التي يجاري فيها زكي مبارك الأستاذ طه حسين قد فرغنا من أمرها معه منذ سنين وعندنا ما هو أهم منها مما لا نحب أن نقطعه إلى إعادة الكلام فيها.

إن إعجاز القرآن وإعجاب العرب به كان يرجع إلى بلاغته وإنشائه كما يرجع إلى روحه ومعناه.

ثم يتساءل[٢]:

ـ هل القرآن الكريم من شواهد النثر الجاهلي؟ ويرد قائلاً: إن عند زكي مبارك مقياساً قريباً من كلام البشر أنفسهم في عصر القرآن الكريم وعنده خطب الرسول وخطب أصحابه فلماذا لا يأخذ منها شاهداً على النثر الفني ويعقد المشابهة بين كلام البشر في العصرين ويترك كلام الله تعالى».

ويبدو أن الشيخ الصعيدي كان محقاً في هذا الاعتراض لأن الدكتور زكي بدعوته المتطرفة من أن القرآن شاهد من شواهد النثر يعرض القضية كلها لخطر جسيم هو الطعن في كتاب الله بما لا يليق.

ـ ٢ ـ

ولا يلبث الدكتور أن يرد ـ هادئاً ـ وكان ذلك طابعه إبان مطالع الثلاثينيات من هذا القرن ثم لم يلبث أن تحول عن هذه الوجهة إلى ضدها ـ ولنستمع إليه يرد على الصعيدي قائلاً[٣]:

---

(١) البلاغ: ١٠ أغسطس ١٩٣١.

(٢) البلاغ: ١٦ أغسطس ١٩٣١.

(٣) البلاغ: ٢٨ أغسطس ١٩٣١.

Twitter: @abdulllah1994

«أما أنا فأمثل مدرسة ثانية هي المدرسة التي تحكم العقل في كل شيء، وتفرض على الباحث أن ينقد أولاً المصادر التي يعتمد عليها وتروضه على إدراك الفرق بين الأذواق والأحاسيس في مختلف العصور الأدبية. ولهذه المدرسة الجديدة أشياع عديدون ولكني أستاذ من بينهم تميزه ظاهرة هي أنني لا أعرف ما هو الحقد وما هو الضغن. ولا أفهم مطلقاً كيف تنقلب الخصومات العقلية إلى خصومات شخصية يقال فيها هذا لله وهذا للشيطان ـ وخلاصة القول أني لا أتفق مع الأستاذ على الأساس الذي بنى عليه ما ينشىء من النظريات والفروض وأرى أن المدرسة التي يمثلها لا تتناسب مع الجيل الجديد».

ـ ٣ ـ

وما يكاد يفرغ الدكتور زكي مبارك من مساجلة الشيخ الصعيدي حتى ينبري له خصم عنيد طالما عاركه وطالما أذاقه من قلمه الكثير فيكتب الأستاذ لطفي جمعة ساخراً من الدكتور على صفحات البلاغ[١] فيقول:

«ألا فليعلم الدكتور زكي أن العرب كانوا في جاهليتهم أميين إلى درجة ذات فضول، فلم يحفظوا عن طريق الكتابة شيئاً يستحق الذكر. ويبتعد عن الحقيقة بعداً شديداً كل من يقول إن الإسلام كان نتاجاً لنهضة علمية وافية وإسلامية وأخلاقية واجتماعية فقد أثبتنا من التاريخ والعلم أن العرب قبل الإسلام لم يكونوا على شيء من مؤهلات المدنية والنهضة بل كانوا على العكس في حضيض من العصبية الحمقاء والمطامع الأشعبية وحب الانتقام والتفريق بين القبائل والاستهزاء بروابط الألفة القومية.

ـ ٤ ـ

وما يكاد ينتهي الأستاذ لطفي جمعة من مقاله حتى يلقاه زكي مبارك صاخباً مجلجلاً محاولاً التجريح إن لم يصب مقتلاً فيقول في البلاغ[٢]:

---

(١) البلاغ: ٦ سبتمبر ١٩٣١.
(٢) البلاغ: ٤ سبتمبر ١٩٣١.

Twitter: @abdulllah1994

١ ـ قد جدت الحرب بكم فجدوا.

همت أن أسوق إلى الأستاذ ألواناً مما جرى به قلمه من التهكم والسخرية والاستخفاف ولكني بعد لحظات تذكرت أنه كاتب سبقني إلى خدمة اللغة العربية أكثر من عشرين عاماً. وليس من البر ولا المروءة أن نتعالم على رجال كانوا أساتذة يوم أن كنا طلاباً وتذكرت بعد ذلك أن قراء كراماً يراقبونني مراقبة شديدة فيحاسبونني على صغار الهفوات. ثم يتابع الدكتور رده الهادر ليقول للأستاذ جمعة[1]:

٢ ـ إن كنت ريحاً فقد لاقيت أعصاراً.

إننا لا نستبيح لأنفسنا تحويل الخصومات العقلية إلى خصومات شخصية ولكن الأستاذ لطفي جمعة عاد فملأ مقاله بعبارات يعرف هو كيف صيغت وكيف بنيت على روح الغدر وأنا عائد إليه وماض في منازعته ليعلم أنني أصلب عوداً من أولئك الرجال الذين استلانهم فصال في نقدهم وجال وألف على حسابهم الأسفار الطوال (يقصد طه حسين).

ولقد استطاع الأستاذ أن يباهي بأنه شغل بهذه الموضوعات قبل اليوم وله فيها أبحاث ودراسات فإني سأريه أن الأدب أصعب مرتقى وأعز منالاً من أن يمتلك ناصيته من يقرأونه في أوقات الفراغ ولست بهذا أغض من قيمة الأستاذ فهو رجل قانون ويعرف كما أعرف.

إن الأدب يقتل من يفرغ له قتلاً ذريعاً لا يبقي له من الوقت ومن المال ما يتفوق به في القانون أو غير القانون. وقد تكون حرفة الحياة قد علمت الأستاذ كيف ينقل مذاهب مهنته إلى الدراسات الأدبية التي يحاول أصحابها أن يصبغوها بالصبغة العلمية ويبعدها عن مداورات المحامين الذين يصورون الباطل بصورة الحق حين يشاؤون.

وهكذا نسمع جعجعة من الدكتور مبارك ولا نرى طحناً لعل هذا كان

---

(١) المصدر السابق ١١ سبتمبر ١٩٣١.

Twitter: @abdulllah1994

ردأبه حينما يحاول الهرب من المعارك القاسية وكان الأولى به أن يرد رداً علمياً بدل النقاش الشخصي. لقد فكرت طويلاً أن أنقل هذا الحوار إلى فصل المعارك اللاموضوعية لولا ما رأيته من موضوعية في كلام الأستاذ لطفي جمعة.

ـ ٥ ـ

وهكذا يخرج الدكتور من معركة إلى معركة ومن نقاش إلى نقاش فما يكاد يفرغ من مناقشة الأستاذ لطفي جمعة حتى يبرز إليه العلامة محمد فريد وجدي ليقول له في حيدة وموضوعية[١]:

١ ـ إن استدلال الدكتور زكي مبارك على وجود ذلك النثر الفني عند العرب بالقرآن لا نزال نراه معلولاً ولا يصح الإصرار عليه فإنه إن كان القرآن وحياً سماوياً أوفيضاً وجدانياً من أية طريق روحانية فلا يجوز الاستدلال به على ما يظهر أن لدى الجاهليين من نثر لانقطاع الصلة بين ما هو إلّهي وما هو بشري. وإن كان ليس بنثر ولا بفيض وجداني من طريق روحانية تميزه فلا يجوز الاستدلال به أيضاً في هذا الموطن؛ لأن هذا الكتاب اعتبرته أمة بأسرها كتاباً إلّهياً معجزاً للإنس والجن مجتمعين وبشيء لا يعتبر إلّهياً ومعجزاً إلى هذا الحد إذا كان فوق قدرة الذين يدينون بهذه العقيدة على الأقل.

كيف يفترض أن يكون للأميين نثر فني وهو نقيض الكتابة والتميز أليس لو كان لهم شيء من ذلك لكان كتاباً يعتبرونه أساساً لديانتهم يقدسونه ويحتفظون به ككل أمة متدينة في الأرض؟ إن الأمة التي ليس لها كتاب مقدس لا يعقل أن يكون لها شيء مكتوب على الإطلاق وإذا عدم المكتوب فقد عدم النثر الفني ولا يجوز السؤال عنه ولا البحث فيه.

٢ ـ إني لمعجب بتمسكه بالأسلوب العلمي الدقيق وبمهارته في نقل المباحث الأدبية من مجال الظنون والأوهام إلى مجال النظر المباشر المجرد من الملابسات الدينية والتقاليد.

---

(١) البلاغ، ١٨ أكتوبر ١٩٣١م.

Twitter: @abdulllah1994

ولسنا ننكر أن سلوك هذه المادة على وضوحها واستقامتها لا تخلو من الخصال التي تستدرج الباحثين إلى ما لا يتفق والأسلوب الذي يحرصون على تطبيقه فيضربون في متاهاتها بمعزل عن الأعلام العلمية ويكـون مثلهم في تصرفهم في تطبيق الأسلوب كمثل خصومهم الذين يتخبطون في بحوثهم بغير دليل.

٣ ــ إني أوافق الدكتور زكي مبارك على أن حقيقة الحياة الأدبية عند العرب الجاهلين لا يصح أن تؤخذ عن الذين كتبوا فيها من المؤلفين الذين تأثروا بالروح الدينية في وضعها على نحو لا يتفق وروايات رجال ليس مرماهم تقرير الحقائق ولكن الاقتراب والزلفى من الحاكمين.

٤ ــ رأي زكي مبارك أن العرب الجاهليين كانوا قد دخلوا في تطور نحو ثلاثة قرون قبل البعثة؟ عارضناه فيه وأثبتنا له أن ثلاثة قرون تمضي في التطور ولا تثمر لذويه توحيد كلمتهم وتعين غايتهم ولا تبعث فيهم داعياً يهيب بهم إلى الأخذ بالأسباب وهو شرط لا محيص من وجوده، إن مثل هذا التطور المجرد من جميع مميزاته المعروفة لا يصح القول به في عرف علم الاجتماع فإن من شروط الافتراضات العلمية أن تكون مرجحات وأعلام وإلا لفظت إلى عالم الأوهام.

ــ ٦ ــ

ويمضي الدكتور مبارك في رفع الخصومة حول كتابه فيقول في الرد على العلامة فريد وجدي قائلاً على صفحات البلاغ: يرجع أصل الخلاف إلى رغبتي في نقض ما أصر عليه فريق من المستشرقين وشايعهم عليه الدكتور طه حسين من أن النثر الفني عند العرب لم يعرف إلا في أواخر العصر الأموي حين اتصل العرب بالفرس واليونان، فهو فن اكتسبه العرب بعد الإسلام، ومن رأي (المسيو مرسيه) أن العرب يدينون في نثرهم إلى اليونان وحجة هؤلاء الباحثين أن العرب قبل الإسلام لم يكن لهم وجود أدبـي ولا عقلي وانه يمكن فقط الاعتراف بأنه كان عندهم شعر لأن الشعر فن ساذج يوجد عند الأمم الهمجية. ولا كذلك النثر

Twitter: @abdulllah1994

فإنه لغة العقل، والعرب في رأيهم كانوا قبل الإسلام يعيشون عيشة أولية لا يعرف فيها كيف تكون طرائق البيان، تلك حجتهم وذلك أصل الخلاف.

أما أنا فقد تطلعت إلى تحقيق هذه المسألة منذ سنوات فقد نشر الدكتور طه حسين في مجلة المقتطف سنة ١٩٢٦ مقالاً عن النثر في الخمسين سنة الماضية فقد تكلم عن بداية النثر العربي وتكلم عن ابن المقفع وكيف كان يلحن ويحرف الكلم عن مواضعه لأنه في ظنه كان أول الفائزين ولا يخلو مبتدىء من تغيير واضطراب.

فلما ذهبت إلى باريس سنة ١٩٢٧ وجدت المستشرقين يبدئون ويعيدون في هذه الرسالة وعرفت أن المسيو مرسيه هو صاحب الرأي القائل بأن العرب أخذوا مناهج النثر عن الفرس لأن أول ناثر عند العرب هو ابن المقفع وكان فارسي الأصل وبعد تأملات طويلة اهتديت إلى أن للنثر العربي أصولاً أخرى عن الأصول الفارسية. وتلك الأصول هي النثر عند الجاهليين وبذلك يكون النثر الأموي نثراً متطوراً عن النثر الجاهلي فلم ينقل نقلاً من نماذج النثر الفارسي ثم بحثت عن الشواهد فرأيت القرآن أفصح شاهد وأصدق دليل.

ولما اطمأننت إلى نظريته أعلنتها للدكتور طه حسين سنة ١٩٢٨ على أنها محاولة فراعه ذلك ورأى أن نظريته أو نظرية المسيو مرسيه أصبحت في مهب الأعاصير ثم قال في انفعال: «أنت عاوز تكفر» هناك ابتسمت وقلت لا بأس من أن يكفر زكي مبارك بسبب نظريته عن النثر الجاهلي فقد كفر أستاذ له من قبل بسبب نظريته عن الشعر الجاهلي وتلك ظاهرة طبيعية فإن الشعر أقدم من النثر كما ان الأستاذ أقدم من التلميذ والكفر درجات بعضها مركب وبعضها بسيط.

وكانت بيننا محادثات طويلة حول هذا الموضوع ستنشر بعد حين. وإن كان الدكتور طه حسين غير رأيه قليلاً لأن تلميذه أثر فيه أثراً غير قليل. وهذا كلام يشرف الأستاذ أضعاف ما يشرف التلميذ.

ثم رجعت إلى المسيو مرسيه فقارعته في باريس مقارعة عنيفة انتهت بإصراره على حذف الفصول التي كتبها عن نظرته للنثر الجاهلي في الرسالة التي

Twitter: @abdulllah1994

قدمتها إلى السربون، وانتهت من جانبي إلى الإصرار على بقاء تلك الفصول والدفاع عنها أمام هيئة الامتحان وكان ذلك يوماً مشهوداً.

وهي نظرية إيمان لا سلبية سيقف مؤرخو الآداب العربية منها موقف التأمل والبحث كلما بدا لهم أن يدرسوا أصول النثر وأنا مطمئن إلى صحة هذه النظرية واثق بأنها ستجذب إليها كل خصومها ولو بعد حين.

يرى خصوم نظرية النثر الجاهلي أن العرب قبل الإسلام لم يكونوا أهل معارف ولا أهل تفكير، وإنما كانوا قوماً يعيشون عيشة فطرية لا تساعد على إنشاء النثر الفني الذي يخاطب العقل وإن أمكن أن يكون لهم شعر وأن يكون لهم خطب صغيرة وأسجاع وأمثال فلذلك لا يستلزم أن يكونوا عرفوا النثر وتخاطبوا به مسترسلين.

ونحن ننقض هذا الاعتراض ونعلن أن الإسلام كان نتاجاً لنهضة أدبية وعقلية واجتماعية عند العرب، ونرى أن العرب أعدتهم الأيام للملك والفتح في تطور طويل لا يقدر بأقل من ثلاثة قرون. وفي تلك المدة نشأت عند العرب فنون أدبية منها الشعر والخطابة وهما ليسا موضع جدال ومنها النثر وشاهده القرآن الذي نزل بلغة الجاهليين ليهديهم إلى الصراط المستقيم.

ارتضينا لأنفسنا أن نخرج الدين من هذه الهيجاء لنظل في حدود البحث العلمي الدقيق الذي يفرض علينا غض النظر عن الأديان والتقاليد.

ـ ٧ ـ

وتهدأ المعارك زمناً تسكت فيه الأقلام الهاجمة وإن كان قلم الدفاع لم يهدأ في يد صاحبه مبارك فهو أبداً ينذر ويهدد ويتوعد أولئك الذين تسول لهم أنفسهم بالاعتداء على حماه.

ولا ننكر أن بعض المناوشات البسيطة دارت في خلال فترة الركود من ١٩٣٤ حينما ظهر الكتاب وتعرض للهجوم على صفحات البلاغ في ١٩٣٥ وهو العراك الذي أدركنا طرفاً منه وبين العودة إلى تجدد الحملات في الرسالة على

Twitter: @abdulllah1994

يد زعيمها الغمراوي وسنلمّ بها فيها بعد. ولكن قلم مبارك كان كفيلاً بإسكات هذه المناوشات فلقد كان يعيش فترة الازدهار من حياته.

من هذه المناوشات ذلك النقد الذي كتبه الأستاذ أحمد أمين على صفحات الرسالة ناقداً الكتاب وها نحن أولاء نلخص النقاط التي بني عليها المقال[1]:

١ ــ بدأ فحمل على مبارك وعاب عليه كثرة ثنائه على نفسه معدداً أولياته وقال إن هذا لما لا يسيغه النقد الأدبـي.

٢ ــ ثم قال: «إن المؤلف قد خانه التوفيق في المقدمة مع أن الكتاب نتيجة مجهود صادق وبحث طويل شاق أتى فيه بمقدمة في الموازنة بين الشعر والنثر.

ثم قال: وطريقة بحثه في كل ما بحث سليمة جارية على الأسلوب الحديث في العرض والنقد واستقصاء ما في الوسع في الرجوع إلى المصادر ومقارنة بعضها ببعض والشجاعة في إبداء الرأي.

ثم يقول: . . . ثم هو قد وفق إلى آراء جديدة لم يضل الحق في استكشافها ولفت النظر إليها وصقلها وعرضها في حلة جديدة.

ثم يقول: وإني وان احترمت الكتاب من الناحية العلمية فإني ناقده من جهة الذوق.

٣ ــ ثم يتعرض في نهاية مقاله لتصوير شخصية الدكتور مبارك فيقول: «وذلك أن الدكتور زكي مبـارك كما رأيته واستحضرت صورته اجتمع على معنى غريب يصعب تصويره، وربما كان أقرب تصوير له رجل يمسك بيسراه كتاباً قيِّماً فيه علم غزير وأدب وفير وبيده اليمنى عصا أشهرها ثم هو يطلع الناس على ما في كتابه من طرف فمن هَمَّ أن يفتح فاه بنقد أو مخالفة أقنعه بما في يمناه.

تجلى هذا في أنه:

---

(١) الرسالة، العدد ٣٩، المجلد الثاني.

Twitter: @abdulllah1994

ـ يعرض آراء قيمة وأفكاراً عني بدرسها ثم إذا به يظفر فيحتك بمؤلف أو كاتب فلا ينقده نقد عالم لعالم ولكن نقد مصارع لعالم.

ـ عندما تعرض للنقد لآراء مسيو مرسيه الفرنسي جار عليه بلغة غير لغة العلماء والباحثين.

ـ جاء رفيقاً لنا في مواضع وشديداً قاسياً في مواضع أخرى ولست أدري لم كان هذا؟

ـ كذلك أخذ عليه أشياء لو تتفق والذوق قرأتها فضربت أذني وانقبض منها خاطري مثال ذلك ما جاء في صفحة ٩، ١٣، وذيل ص ٦٠، ٦١ وذيل ٦٥... الخ، ثم يعرض بعد ذلك لشعر المنهج والتخطيط فقال: «ثم هندسة الكتاب لا تخلو من نقد ولم يشع فيه التناسق وحجرة صغيرة وحجرة كبيرة. بل وحجرة لم تكن كما يجب أن تكون وباب كبير وباب صغير وقد يكون هذا معقولاً إذا دعي إليه الحال واقتضاه المقام ولكن لم يكن كذلك في هذا الوقت.

ثم عرض أمثلة في هذا الموقف فقال:

ـ تحدث عن المقامات ونشأتها فأفاض وأنفق عن سعة ولم يحدثنا كثيراً عن نشأة إخوان الصفا لأنها أدخل في الفلسفة والعلم ولكنه في الكتاب تعرض للأسلوب العلمي كما تعرض للأسلوب الأدبـي على أن في رسائل إخوان الصفا نواحي أدبية عديدة أقر بها المؤلف فاقتبس منها رسالة الإنسان والحيوان وقد اعتذر عن ذلك بأن الباحثين أطالوا في القول قديماً وحديثاً وهو عذر لا نوافقه عليه فمجال القول في إخوان الصفا ذو سعة وإلى الآن لم تبحث الرسائل بحثاً وافياً.

ثم اختتم الأستاذ أحمد أمين مقاله بالثناء على الدكتور زكي كما بدأه بذلك[١].

---

(١) اكتفينا بذكر المصدر دون تعليق حتى لا تطول المعركة وتتمدد.

Twitter: @abdulllah1994

ثم رد الدكتور مبارك معقباً على هذا النقد لكتابه في العدد التالي من الرسالة[1] فقال: مخاطباً الزيات محرر الرسالة. وكان هادفاً في رده على غير عادته قال:

١ ــ سرني أن أظفر من مثل هذا الباحث المفضال بمثل ذلك الثناء وقد رأيت من باب الرعاية أن أعد سطور ذلك المقال فرأيت خمسة منها تمهيداً وخمسة وستين في نقد طريقة المؤلف في الحديث عن نفسه ومصاولة ناقديه وثلاثة عشر في نقد هندسة الكتاب ثم رأيت مع السرور الفائق ثمانية عشر سطراً كلها ثناء صرف على المؤلف وعلى الكتاب ومن النادر أن يظفر مؤلف بثمانية عشر سطراً كلها ثناء على كتاب جديد من رجل كالأستاذ أحمد أمين.

٢ ــ وكتابي كما تعلمون يقع في نحو ثمانمائة صفحة وكلام الأستاذ أحمد أمين لا ينصب على أكثر من صفحتين يمكن حذفهما بسهولة في الطبعة المقبلة إن شاء الله.

٣ ــ ثم أشار الأستاذ إلى كلمات جمح بها القلم وهو ينقد بعض العلماء وضح لدى بعد التأمل أن مجموع ذلك لا يزيد عن عشر كلمات سأحذفها في الطبعة المقبلة لأنها ضربت أذني وانقبض منها صدري كما ضربت أذن الأستاذ وانقبض منها صدره.

٤ ــ ويعجب الأستاذ من أن يراني قاسياً في بعض النقد ولطيفاً في البعض الآخر وتمنى لو يعرف لم كنت لطيفاً هنا وقاسياً صارماً هناك؟

وتفسير ذلك سهل: فإن الأدب يأخذ وقوده أحياناً من الأعصاب والأحاسيس وقد يتمثل للنفس ظلال من إحدى المعارك الأدبية فتثور وتعصف ويمضي هيناً في هدوء فلا يفيض عنها غير اللياقة واللطف.

---

(١) العدد ٤٠ من نفس المجلد.

Twitter: @abdulllah1994

ولكن ترى هل نفذ الدكتور ما وعد من الحذف والتعديل؟ لا لم ينفذ ذلك لأنه كان رحمه الله يعتز بنفسه إلى درجة قاربت حد الغـرور وكأن مئـات الصفحات التي سوّدتا في نقد كتابه لم تستطع أن تثنيه عن عزمه أو ترده عن شروره فترك الكتاب كما هو لم يغير ولم يبدل فيه شيئاً وخيراً فعل حتى يدرك جيلنا المعاصر جزءاً من التضاريس الفكرية لقطاع من قطاعات جيل الرواد(*).

□ □ □

(*) نستطيع أن نجد نصوص هذه الحملة على كتاب النثر الفني في:
جريدة البلاغ: من أغسطس ١٩٣١ إلى أكتوبر ١٩٣١.
مجلة الرسالة: الأعداد ٣٩، ٤٠، المجلد الثاني.

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdulllah1994

النثر الفني والغمراوي (تجدد الخصومة)

ثار الخصام من جديد على صفحات الرسالة عام ١٩٤٤م حول الكتاب بعد أن كتب الدكتور مبارك مقالاً عاطفياً في الرسالة تحت عنوان «قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق» ونسبه إلى الكاتب المجهول[١] فشمر الدكتور محمد أحمد الغمراوي عن ساعديه وطالب الدكتور بالرجوع عما كتب وإلا أصلاه ناراً حامية تذهب بكتابه «النثر الفني»، ويبدو أن الغمراوي قد أعد مقالاته من قبل، وأخذت العزة قلم مبارك بالحق أو بغير الحق فأعلن تحديه وكان لديه يومها بقية من قوة، وقال إنما يمضغ الغمراوي كلاماً سبق أن حاوره به في بيت القاياتي منذ عشر سنوات وإنه مستعد للسجال.

ويصدق الغمراوي ما وعد فيعلنها حرباً شعواء لا تبقي ولا تذر فيبدأ بعد شهور من هذه الواقعة في بث مقالاته التي فاقت العشر حتى أوشك بحملته تلك أن يحطم مجد فارسنا العملاق الذي ما فتيء أن انسحب خائفاً من الميدان.

بل إنه لاذ بالأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة كي يحميه من خصمه ذي القبضات الحديدية المخيفة وطلب منه أن يوقف سيل هذه المقالات فأبى الزيات عليه ذلك بحجة أنه ليس من دأب الرسالة أن تمنع كاتباً أو باحثاً من إبداء رأيه الذي يبغي به وجه الحق وإن في استطاعة الدكتور أن يرد إن أراد، ولأمر ما يعلمه الزيات طوى مقالتين للدكتور في الرد على الغمراوي[٢]، وقد كان ذلك

---

(١) ينظر إلى تفاصيل هذه المعركة فيما سلف من هذا البحث ص ١٣٥.

(٢) انظر تفاصيل هذه الواقعة في فصل مع «الزيات والرسالة» ص ٢٤٥ من هذا البحث.

Twitter: @abdulllah1994

مما أثار عاطفة الدكتور مبارك وفجر كوامن الشجن في نفسه وعاد به إلى طبيعته الريفية الأصيلة فغض من شأن الرسالة وحنق على الزيات وقال في حقه كلمات مؤذيات وظل يلعق الصمت زمناً حتى كتب الأستاذ دريني خشبة عند الكلام عن تعليقات الرصافي التي تناولت كتابين للدكتور مبارك هما: «النثر الفني» و«التصوف الإسلامي» فقال الأستاذ دريني[1] كنت أود أن أترك الميدان للدكتور مبارك لأنه المعني بالطعن والنقد من قبل الرصافي ولكن ماذا نفعل والدكتور مبارك يخاصم الرسالة وصاحبها لأنه ينشر مقالات للغمراوي في طعن النثر الفني وما فعلت الرسالة هذا إلا إطلاقاً لنشر الحرية الفكرية وحرية المجادلة وأرادا «الزيات والرسالة» أن يسجلا هذه الصفحة الخالدة من صفحات حرية البحث التي كان الدكتور علمًا من أعلامها. يهيج هذا القول أقلام القراء الذين آذتهم غيبة (مبارك) عن الرسالة مدة ليست بالقصيرة، والرسالة متنفسه الحقيقي، فيعلقون بين مؤيد لمبارك وعاتب على الزيات.

ويهيج هذا القول من دريني خشبة عاطفة الدكتور مبارك فيبعث بمقاله الوجداني الأليم إلى الرسالة:

«في كل يوم لنا عتاب جديد» وهو المقال الذي يمثل نقطة تحول خطيرة في معارك مبارك. والمقال كله مليء بلوم الزيات وعتابه على حذف مقاليه في الرد على هذا الفلان (يقصد الغمراوي) ولا ينسى أن يمر على صاحب النقد فيطعنه طعنة أو طعنتين ولكنها وا أسفاه طعنات في غير مقتل سرعان ما يرد إليه بوادر النكسة وإعلان الهزيمة من ذلك قوله «إن هذا الناقد الحاقد لكتاب النثر الفني وقف عند مسألة شائكة وهي المسألة الخاصة بآرائي في إعجاز القرآن ولم يقف عند هذه المسألة إلا لأنه يعرف أن الظروف لا تسمح بأن أجازيه عدواناً بعدوان ولو أني وثقت بأن كلامي ينشر في الرد عليه لوضعت وجهه في الحضيض لأني في نظره ملحد ولأنه في نظري جهول وقد عشنا حتى نرى التهمة بالإلحاد أخف من التهمة بالجهل[2].

---

(١) الرسالة: العدد ٥٧٠.

(٢) الرسالة: العدد ٥٧٠، المجلد الثاني عشر.

Twitter: @abdulllah1994

ويوقف الزيات الحملة (الغمراوية) زمناً حتى يتضح الموقف وتنجلي الأزمة وينتظر عودة مبارك إلى السجال، فلما لم يعد ترك الميدان للغمراوي وحده يصول فيه ويجول ليعود إلى حملاته في الرسالة من جديد وليصلي الدكتور ناراً حامية متهمًا الكتاب وصاحبه بتهم جسام أقلها التناقض وفساد الطريقة وعدم الدقة وسوء الفهم إلى غير ذلك.

ويغيظ ذلك الدكتور فوق غيظه ويحنقه أشد الحنق فيكتب مقاله اليتيم الهزيل في الردِ على الغمراوي تحت عنوان إعجاز القرآن في النثر الفني، وفيه يتوقع للمرة الثانية، بل لنقل يتمنى إنهاء المقالات الغمراوية، ولا شك أن القراء وقتها أصيبوا بحسرة ودهشة وهم ينظرون فارسهم العملاق يتهاوى أمام ضربات خصمه العنيد.

ويبدأ مقاله اليتيم قائلاً: «انتهت مقالات الأستاذ الغمراوي في الثورة على آرائي في إعجاز القرآن انتهت مقالاته بأسرع مما كنت أتوقع ففي كتاب النثر الفني آراء في إعجاز القرآن أخطر من الآراء التي تحدث عنها بإسهاب. ثم يعرج على تلمس العيوب والمثالب دون أن يناقش الغمراوي في مسألة من المسائل التي أثارها أو يدفع تهمة من التهم التي رشقه بها، وليته فعل فقارعه الحجة بالحجة والدليل بالدليل. كل الذي فعله أنه لم ينسَ في نهاية المقال أن يقول: «لك الويل يا هذا الفلان فلن أترك الرد عليك ما دامت مجلة الرسالة ترى أنك أهل لنشر ما تسرق من النثريات».

وانتظر القراء في مصر والعالم العربي الردود التي وعد بها الدكتور مبارك ولكنه رحمه الله طواها حتى طواه الموت فيمن طوى.

ولم يثن هذا التهاون المريع الذي أصيب به قلم الدكتور مبارك لم يثن الأستاذ الغمراوي عن عزمه فمضى فيما هو فيه من نقد الكتاب وتشريح ما فيه ثم هو لا ينسى أن يعاقب خصمه المتهافت على مقاله الأخير فيخصص المقال السابع[1] من السلسلة لهدم حججه ودعاويه التي زعمها فتراه يقول:

(١) العدد ٥٧٥، المجلد الثاني عشر.

Twitter: @abdulllah1994

«طلع زكي مبارك بمقاليه كما يطلع الشيطان بقرنيه لا يستجيب إلى خير ولا يبصر هدى ولا يدعو إلى رشد ولا يتأتى إلا بإثم أو إفك أو ضلال.

وبضاعة زكي مبارك كلام يلقيه ولا يدري أعليه يكون أم له بل يلقيه فيظن أنه له فإذا هو عليه وذلك من خذلان الله له ومن يحارب الله مخذول.

ويبين أن الدكتور حاول أن يستغيث بالدكتور طه حسين مرتين ويقول: «ولكن ماذا يملك له طه حسين وهو يجمع على نفسه من الاعترافات ما يوبق أمله ويهلك»، ثم بين موضوع الخصومة بينهما فيقول: «وموضوع الخصومة بيننا وبين هذا الإفك هو في دائرة البسيط البديهي، دائرة المسلَّم المعروف من الدين بالضرورة دائرة الأمور التي هي فصل بين الإسلام وغير الإسلام بين المسلم وغير المسلم، دائرة إعجاز القرآن، وأن القرآن كلام الله لا كلام البشر، وأن الأنبياء والرسل ليس لهم من الدين إلا تبليغه وأن وحي الله إليهم ليس كهذا الذي يسميه الشعراء والمفكرون إلهاماً. هذه الأصول المسلمة عند المسلمين كافة، المعلومة من الدين بالضرورة هي موضوع الكلام بيننا وبين زكي مبارك، وموضوع الخصومة وهو يتنكرها ويكابر فيزعم أننا نفتري عليه الإلحاد.

والمسلمون كافة يقولون إن القرآن معجزة ويفهمون من إعجازه إعجاز الأسلوب قبل كل شيء، وهو يقول: إن القرآن غير معجز وإن أسلوبه أسلوب عادي يقدر عليه جميع الكاتبين ثم يزعم أنه أقنع المثقفين بإعجاز القرآن.

ثم يمضي الأستاذ الغمراوي على نحو خير من هذا في بسط حجج الدكتور في كتابه ثم يعرض هذه الحجج بطريقة منظمة وبمنهج علمي سليم وكم كان يسعدنا أن نأتي بنتف مما كتب فهو في معتقدنا خير من نقد النثر الفني. ولكننا نعتذر عن ذلك بما حال دون اتباع منهجنا الصارم الذي أخذنا به النفس فقد حال دون ذلك سببان:

أما أولهما: فهو أن الكلام عن النثر الفني قد طال واستفاض ولم يعد في حاجة إلى جديد غير الذي أوردناه.

Twitter: @abdulllah1994

وأما ثانيهما: فإن مقالات الأستاذ الغمراوي في نقد الكتاب بلغت وحدها ثلاث عشرة مقالة غير مقالات الدكتور مبارك وعدا التعليقات التي أثيرت حولها.

ولو فعلنا لكان حتمًا أن نضاعف من حجم البحث وفي ذلك مبالغة قد يأباها المنهج نفسه.

سنكتفي بإيراد المراجع مرقمة مفهرسة حتى تكون دليلًا يرشد من يريد الرجوع إليها وحسبنا ذلك وكفى ـ كما أن حسبنا أن نشير إلى ما أسلفنا من قول من أن هذه المعركة كانت بمثابة الحد الفاصل في حياة الدكتور زكي مبارك فقد صدته عن الكتابة في مجلة الرسالة... وهزت موقفه في دائرة المعارك والمساجلات... وأسكتته سكوتاً مراً ظل يلعق مرارته حتى مات(*).

□ □ □

(*) تنظر مراجع المعركة الغمراوية حول كتاب النثر الفني: مجلة الرسالة ـ المجلد الثاني عشر ١٩٤٤:

أولاً ـ مقالات الأستاذ محمد أحمد الغمراوي:

١ ـ **مقالات بعنوان**: القرآن الكريم في كتاب النثر الفني. **الأعداد**: (١) ٥٦٢؛ (٢) ٥٦٣؛ (٣) ٥٦٤؛ (٤) ٦٦٥؛ (٥) ٦٦٦؛ (٦) ٦٧٣.

٢ ـ **مقالات بعنوان**: التناقض في كتاب النثر الفني. **الأعداد**: (١) ٥٦٩؛ (٢) ٥٧٢.

٣ ـ **مقالات بعنوان**: فساد الطريقة في كتاب النثر الفني. **الأعداد**: (١) ٥٧٤ = عدم الدقة؛ (٢) ٥٧٨ = عدم الدقة أيضاً؛ (٣) ٥٨٠ = سوء الفهم.

ثانياً ـ مقالتا الدكتور زكي مبارك:

الأعداد: (١) ٥٧٣ = في كل يوم لنا عتاب جديد؛ (٢) ٥٧٤ = إعجاز القرآن في كتاب النثر الفني.

ثالثاً ـ مقالات وتعقيبات دارت حول الموضوع:

الأعداد: (١) ٥٧٠ = دريني خشبة؛ (٢) ٥٦٧ = إبراهيم السيد عجلان ويحيى محمد علي؛ (٣) ٥٧٣ = الأستاذ محمد يوسف موسى.

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdulllah1994

مدامع العشاق
ومعركة حول الأدب الوجداني

تمهيـــد:

يبدو أن صفحات السجال بين الفارسين (اللدودين): طه حسين وزكي مبارك كانت لا تكاد تنتهي إلا لتبدأ من جديد ففي عام ١٩٢٢ بدأ زكي مبارك يبث فصولاً في جريدة الصباح عن «مدامع العشاق» ضمنها أشعاراً جمعها وعقب على بعضها وحلل بعضها الآخر ــ وكلها تدور حول وصف المحبين وما يلقونه من عذاب لذيذ من قبل محبيهم... وكيف أن كل محب يرى فيمن يحب روعة الحسن ونهاية الجمال.

نصوص المعركة:

ولم تكد تظهر هذه الفصول حتى انتقدها الدكتور طه حسين في كتابه حديث الأربعاء[1] قائلاً:

«فليس من شك في أن لهذه الفصول قيمة أدبية (يقصد فصول الدكتور مبارك في صحيفة الصباح) لا تخلو من خطر ولكنني لا أشك مع الأسف في أن كاتبها لم يستطع أن ينسي نفسه أهواءها في هذه الفصول، فليست غايته فيما يظهر علمية خالصة أو أدبية خالصة، وإنما يتملق الكاتب عواطفه وعواطف قرائه وأسرف في هذا التملق، فخرجت فصوله عن أن تكون مباحث علم وأدب، وأصبحت مباحث استثارة للعواطف وتحريض للأهواء، وأنا ألاحظ أن فكرتين اثنتين تعبثان بالحياة الأدبية لهذا الكاتب وتفسدان عليه جهوده».

(١) حديث الأربعاء طبعة دار المعارف بمصر ١٩٢٤، ص ٧٤ من الجزء الثالث.

Twitter: @abdulllah1994

ومضى الدكتور طه على هذا النسق متهمًا (زكي مبارك) بأنه يتكلف غيظ منتقديه ومضطهديه ممن لم يعجبهم أسلوبه في ممارسة ضروب من الحرية المغلوطة وإن كان قد عاد فأثنى عليه قائلاً: «وليس يمنعني هذا التحفظ من أن أقدر كتابه وأثني عليه».

وبالطبع لم يسكت مبارك وإنما يرد في عنف على طه حسين ومشايعيه[1] فيقول:

«في مصر قوم لا يعرفون من الجد غير الغطرسة والكاتب الجاد في نظرهم هو الرجل السليط، ولا أدري بماذا يجيب هؤلاء لو سألتهم من خلق هذه الصورة الجميلة والتي طارت بألباب الشعراء وصيرتهم في كل واد يهيمون؟ فإذا كانت من خلق الله فلم ينكرون علينا أن نتغنى بصنعه البديع؟ وإن كانت من خلق الشيطان، فلم لا يمحون الحسن من وجوه الحسان ــ أيريد جماعة ممن أظلمت الدنيا في وجوههم وعموا عن صنع الله الذي أتقن كل شيء أن أسايرهم في جهالتهم فلا أكتب في غير ما يروقهم من ذم الدنيا والتبرم بالوجود ولكني عرفت ما لم يعرفوا من «أفنان الجمال» في هذه الدنيا البديعة فعدت خليقاً بحمد الحسن كلما أمعنوا في الجحود.

يقولون: ــ ما زال الكلام لمبارك ــ: إن مدامع العشاق التي أنشرها في جريدة الصباح مما يفسد الشباب، وذلك منهم جهل بأسرار الجمال، وما له من الأثر في تهذيب النفوس وتثقيف العقول، ويهددون ويوعدون بالويل والثبور، إذا أنا مضيت في هذا البحث الشائق الطريف فهل حسب هؤلاء السفهاء أني أكتب لهم حتى أنزل عند رأيهم السخيف المأفون؟.

أبينا أن نطيعكم أبينا ... فلا تلقوا بنصحكم إلينا

ويبدو أن القضية كلها تتعلق بوجدانيات مبارك التي كان يميل دائمًا إلى

---

(١) مدامع العشاق.. المكتبة العصرية ببيروت ١٩٧١ الجزء الثالث.

Twitter: @abdulllah1994

إرهاق مؤلفاته العلمية بها... وإن كان ما يزعمه الأستاذ (أنور الجندي)[1] من أن الحديث عن الحب ظل منطوياً في أدب الكتاب المعاصرين حتى جاء زكي مبارك ففض مغاليقه زعماً غير صحيح على إطلاقه إذا استحضرنا في أذهاننا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أو الأستاذ صادق عنبر عليهما رحمة الله. أو جبران خليل جبران أو ميخائيل نعيمة وإن كنا لا ننكر جرأة مبارك في هذا الباب حتى وصل أحياناً إلى مرحلة عرض الأدب المكشوف وكانت فلسفته في ذلك كما وضحها في كتاب مدامع العشاق[2] «إن الذي يطمع في معرفة النفس البشرية، لا يبخل بوضع نفسه على المشرحة ليسهل عليه وعلى غيره التحليل، ومثله في ذلك مثل الطبيب المخلص لعلمه لا يبخل بتضحية نفسه وهو يفحص مرضى السل والتيفوس».

إن الذي يطمع في معرفة النفس البشرية يسعى إلى جعل الحب مذهباً أدبياً يشرح فيه ما يتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهوال.

ثم يتابع دفاعه عن هذا اللون الأدبي قائلاً على صفحات الرسالة[3]: إن الحب عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم العهود، وما قيمة الدنيا إذا خلت من الحب، ولأي غرض يحيا الناس إذا أصيبت أفئدتهم بالاعتلال فلم تحس ذلك الروح اللطيف، وهل ينصرف القلب عن الحب وهو في عافية؟.

أما قول محمد محمود رضوان[4]: إنه (أي مبارك) وقف أدبه على فن الغزل والتشبيب والكتابة في الوجدانيات فقول غير صحيح على إطلاقه أيضاً... فلا غزل ولا تشبيب بالمعنى الفني الدقيق في وجدانيات مبارك ـ مثلما كان ذلك عند جبران خليل جبران مثلاً ـ ومثلما كان عند الرافعي في بعض الأحيان... وإنما

---

(١) أضواء على الأدب العربي المعاصر ـ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٩م، ص ٦٣.

(٢) مدامع العشاق، مرجع سابق، ص ٨.

(٣) مجلة الرسالة: ١٩ فبراير ١٩٤٠م.

(٤) صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك كتاب الهلال العدد ٢٨٦، ص ٦٣.

Twitter: @abdulllah1994

كانت الناحية الوجدانية لدى زكي مبارك تصدر عن طبع أصيل كان لا يملك دفعه في أحايين كثيرة ومع ذلك فلا يمكن أن نجعل ذلك من السمات أو الأحكام القاطعة التي يمكن أن نهدم بها أمجاد الرجل العلمية. وعندنا أن الأستاذ محمد محمود رضوان أعد دراسته في سرعة مما جعله يقع في أغاليط كثيرة من خلال إطلاق أحكام متعجلة تنقصها الدقة وإن لم ينقصها الصدق والإخلاص.

ولا شك أن وجدانيات مبارك وإن تجاوزت حدها أحياناً في بعض المؤلفات العلمية الخالصة لا تخلو من قيمة أدبية[١] وإقناع ومكاشفة[*].

□ □ □

(١) تنظر ص ٨٢ من بحث «محمد عبدالحكيم محمد عبدالجليل» زكي مبارك صحفياً، أبريل ١٩٨٤م؛ رسالة ماجستير، لم تطبع، قدمت إلى كلية اللغة العربية بالقاهرة.

(*) يمكن مراجعة هذه المعركة في المصادر الآتية:

- جريدة الصباح عام ١٩٢٢.
- حديث الأربعاء لطه حسين الجزء الثالث.
- مدامع العشاق لزكي مبارك.
- مجلة الرسالة ١٩٤٠.
- صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك لمحمد محمود رضوان.

Twitter: @abdulllah1994

الأدب
بين التجديد والتغريب والانحراف

تمهيـــد:

يبدو أن قضايا التجديد والتغريب والتطرف المؤدي إلى الانحراف ستظل شغل الأدب والأدباء إلى حين. . . ولعل السبب وراء هذه البلبلة الفكرية هو فقدان المنهج السليم الذي يكون بمثابة الدستور غير المكتوب لثقافة الأمة وحضارتها ــ وليس معنى ذلك أننا ندعو إلى استحداث قوالب جامدة يصب فيها الفكر ويصب فيها الأدب أو تصب فيها الثقافة فنحن نوقن أنه لا بد من الخلاف حول كثير من القضايا والمذاهب ــ وإن كنا كذلك نوقن أنه لا بد من إطار محدد يحتوي اشتجار الآراء الخلافية حول غاية واحدة وإن اختلفت الوسائل ومنذ قرابة نصف قرن أثيرت معركة فكرية حول الأدب بين التجديد والانحراف أو بين التجديد والتقريب. . . وإن كنا نرى فرقاً بين المصطلحين «التغريب والانحراف» فقد يتغرب الأدب ولا ينحرف، وقد يحدث العكس أيضاً ولسنا في مجال تحديد المصطلحات الآن وإنما سنمضي إلى استقراء ملامح المعركة التي دارت حول هذه المصطلحات كقضية فكرية كانت تحتاج إلى تجلية وكشف.

لقد حدثت هذه المعركة في منتصف الثلاثينيات من القرن الميلادي الحالي (١٩٣٦) حينما سادت إلى حد ما نزعة التغريب وتسللت من مجرد الدعوة إلى التبعية الثقافية للغرب لتصل إلى إذاعة الآراء المنحرفة. وذلك عندما سيطرت الروح العلمانية وبالذات في مجال التعليم. . . وعندما ظهرت الدعوة التي قادها سلامة موسى لإحياء العامية وكتابة العربية بالحروف اللاتينية. . . وعندما ظهر كتاب الدكتور طه حسين «الشعر الجاهلي» ثم تلاه كتابه الآخر «مستقبل الثقافة

Twitter: @abdulllah1994

في مصر» نجد أن الانحراف قد تركز بصورة أكيدة فيما دعا إليه الدكتور أحمد زكي أبو شادي[1] من مهاجمة الإسلام باسم مهاجمة الأديان جميعاً... وذهب أيضاً إلى ضرورة إغلاق الأزهر ليحيا المصريون حياة مدنية، وروّج لتيار العلمانية بحجة الإيمان بقداسة البحث العلمي ـ وفي مواضع أخرى تغنى بآراء (فرويد) عالم النفس اليهودي وخاصة فيما يتعلق بالغريزة الجنسية على اعتبار أنه رسول جديد لم يستند إلى ديانة تقليدية على حد قوله كبقية الرسل إنما استند إلى العلم وحده.

هذا بخلاف الدعوة إلى فرعونية مصر وأصلها النصراني أو القبطي السابق للإسلام ـ ثم الدعوة إلى الإقليمية والتجزئة.

وإذا عدنا إلى الدكتور أبي شادي فسنجد أن الدكتور «زكي مبارك» ـ كعادته قد وقف موقف الفارس النبيل لينبه صديقه أبا شادي إلى ما تورط فيه من آراء فلما لم يرعَوِ وقف منه موقفاً حاسمًا كما يشير إلى ذلك الأستاذ أنور الجندي[2] إلى أن تراجع أبو شادي هارباً من السجال وزاعمًا أن ما جاء به في مقالاته من آراء إنما جرت مجرى السياق وأنها لم تكن تستهدف غرضاً معيناً.

نصوص المعركة:

ـ ١ ـ

كتب الدكتور أحمد زكي أبو شادي مقاله الأول في هذا الاتجاه بمجلة «أدبي»[3] عام ١٩٣٦ على أثر تصريح لمكرم عبيد باشا حينما قال: إنه خفض جميع الميزانيات إلا ميزانية الأزهر ويبدو أن ذلك قد لمس جرحاً غريباً في أعماق الدكتور أحمد زكي أبي شادي فكتب يقول:

---

(١) تنظر ص ١٣٩ من بحث زكي مبارك صحفياً لمحمد عبدالجليل «مصدر سبق» وينظر أيضاً كتاب المعارك الأدبية لأنور الجندي، ص ٢٩٩، مصدر سبق.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٩٩.

(٣) مجلة أدبي: إبريل ـ يونيه ١٩٣٦، «مجلة فصلية كانت تصدر كل ثلاثة أشهر».

Twitter: @abdulllah1994

لا جدوى للدين والأمة من هذا التوسع الذي لا يعدو التورم، وإن الفلاح المسكين لأولى بالآلاف المؤلفة التي تنفق على الأزهر بلا ثمرة ومن الخير للشعب ما دام يريد الحياة المدنية أن يكون الطابع المدني كاملاً لا ذبذبة فيه، ويجب أن نعنى بالتربية الخلقية لذاتها وأن يكون القانون الأدبي مبجلاً مقدساً لا تابعاً للتعاليم الدينية، ويجب أن نطلع أبناءنا على الحقائق الكونية بدل أساطير الأولين وأن نشبعهم بروح الحضارة الراهنة وأن نجعلهم مؤمنين كل الإيمان بقداسة البحث العلمي والفكر الحر. وأما متابعة الأزهر والكنيسة متابعة عمياء فلا جدوى منها، ولسنا نحن في حاجة إلى قيادتها الرجعية، وأن المعهد الذي لا يستحي من المطالبة بين حين وآخر بمصادرة التآليف الحرة لجدير بأن يغلق إذا لم يتيسر إصلاحه، وإذا كانت الحكومات اللادستورية في الماضي قد تهاونت في هذا الأمر فالمرتقب من حكومتنا الدستورية الشعبية أن تضع الأمور في نصابها وأن تصون حرية الفكر كما هي مصونة في انجلترا.

ـ ٢ ـ

ويتابع الدكتور أحمد زكي أبو شادي ما بدأه من جرأة فيتحدث في لغة علمانية ملخصاً آراء «فرويد» داعياً إلى الإيمان بنتائجها... ومن ذلك قوله[1]: «وفي الحق أن فرويد رسول إلهي استطاع أن يقدم معجزة بالغة ألا وهي تحليل النفس الإنسانية وكشف خباياها وعلاج أمراضها، ولو شاء أن ينسب إلى نفسه قدرة فنية خاصة لما استطاع أحد أن يبخسه حقه إلى جانب ما في العالم من رسل وديانات لكنه استند إلى العلم وحده وجاء بحقائق ارتاع لها أصحاب الديانات التقليدية، وذلك لأنه هدم ضمناً نظرية الثواب والعقاب إذ أوضح تحكم الغرائز فينا وعلى الأخص الغريزة الجنسية تحكمًا هائلاً، فكانت النتيجة المنطقية لذلك استحالة المؤاخذة على غرائز مفروضة فرضاً وسخافة الثواب على تصرفات فسيولوجية طبيعية».

(١) مجلة أدبي: ابريل ـ يونيو ١٩٣٦.

Twitter: @abdulllah1994

- ٣ -

ويرد الدكتور زكي مبارك في جريدة البلاغ[1] مفنداً هذه الآراء، كاشفاً عن ولائه المحتجب لمعهده العريق: الأزهر وعن ولائه له وتعلقه به فيكتب تحت عنوان «الدمامة الخلقية البشعة» فيقول: «قرأت مقالة الدكتور (أبو شادي) عن (فرويد) فلم ترضني، وقرأت له مباحث عن الدين فلم ترضني، وما أحب أن يتورط في مسائل تفسح المجال أمام الدساسين وما أحب له أن يفتح أعيننا على مأساة جديدة في عالم الأخلاق سأحاسب الدكتور (أبو شادي) على مقاله بأقسى ما يكون العنف ولكن على شرط يتيح له الدفاع عن نفسه في حدود المنطق، لقد عرفت وعرف الجمهور أن فريقاً من خصومك شكوك إلى النيابة العمومية وقال بعض المطلعين إن مشيخة الأزهر اهتمت بدرس ما نشرته في مجلتك، أأنت الذي قلت في مجلتك بوجوب هدم الأزهر وهدم الكنيسة ليحيا المصريون حياة مدنية؟ أتعرف النتيجة أيها المسلم الذي اسمه أحمد بن محمد؟ والذي يرتفع نسبه إلى الحسين؟ تكون النتيجة أن يهدم الأزهر ثم لا يبنى أبداً ـ لا قدر الله ـ أما الكنيسة فتهدم ثم تبنى من جديد على قواعد أمتن وأرسخ».

أنت تشير بهدم الأزهر يا أبا شادي؟ ولم ذلك؟ أتستكثر أن يقوم أولادك المشايخ بنشر الثقافة الإسلامية والثقافة العربية ويرفعوا رأس مصر في العالمين؟، أَمِنَ التقليل من مجد مصر أن يذكر اسمها في كل لحظة بين أهل الشرق والغرب بفضل الأزهر الشريف، سيطول بلاؤك يا أبا شادي حين تذهب الثقافة الأزهرية. وإلى من يستند الأدب الحق حين ينقرض هذا النوع من التثقيف؟

والأزهر مدرسة، ومن مجد الإسلام أنه يرى الدرس أفضل من العبادة لأن الإسلام منذ نشأ يحمل طابع المدنية ويجعل المساجد مدارس ومعاهد للدرس والتثقيف، وليس في الدنيا كلها أمة متدينة دعت إلى العلم كما دعت إليه الأمة الإسلامية والمسلمون هم وحدهم الذين لا يفرقون بين المدنية والدين.

---

(١) البلاغ: ٢٣ أغسطس ١٩٣٦.

Twitter: @abdulllah1994

- ٤ -

ويهاجم مبارك صديقه أبا شادي منتقداً قوله عن «فرويد» إنه الرسول الجديد قائلاً[١]:

«إن الجزء الأعظم من فلسفة فرويد ينتهي إلى غاية واحدة هي أن الناس جميعاً متأثرون بالغريزة الجنسية في جميع المعاملات أما الأنبياء فلهم ميادين أخرى... الأنبياء يفهمون أن الناس لا يعيشون للجسد وبالجسد إلا وهم حيوانات، وشرائع الأنبياء يراد بها نقل بني آدم من الحيوانية إلى الإنسانية، إن مما يسوؤني أن يجيء الأنبياء لهدايتنا فننسى برهم وفضلهم ونؤثر عليهم رجلاً باحثاً مثل فرويد الذي أخذ فلسفته من أخلاق المعربدين».

- ٥ -

ثم يناقش الدكتور مبارك صديقه أبا شادي في إنكاره للبعث فيقول له[٢]:
«يقول ابن الخيام: الدنيا هي كل ما نملك فلنقضها في صفاء، هذه الحياة الدنيا هي كل ما تملك أيها الشاعر المفتون إن كان من الحق أن الحياة الدنيا هي كل ما نملك فالأنبياء من أحكم الناس حين أفهمونا أن هناك عالماً آخر يجزى فيه المحسن ويجازى فيه المسيء».

أيها الصديق العزيز أنت أخطأت وأخطأت، وأنا أدعوك إلى الاعتذار عما كتبت لأنه لا يليق بك أن تخرج على قواعد المنطق والذوق.

- ٦ -

ويرد أحمد زكي أبو شادي بمقال في جريدة البلاغ[٣] تحت عنوان «تفاخر الأدباء والأدب العلمي» زعم فيه أن مقالات زكي مبارك لا تعدو أن تكون من

---

(١) البلاغ: ٣٠ أغسطس.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) البلاغ: ٣١ أغسطس ١٩٣٦م.

Twitter: @abdulllah1994

باب «الدماثة الخلقية البشعة» التي تتمثل في كيد الأدباء بعضهم لبعض. . .
يقول: «وقد أضحكني أن واحداً من أولئك المساكين الكائدين أضاع معظم الساعات التي ينفقها عادة في دعايته لنفسه يستعدي عليَّ النيابة ومشيخة الأزهر، فليفهم هذا وأمثاله أن كاتب هذه السطور بعد معالجته للأدب زهاء ثلاثين عاماً ليس في حاجة إلى من يفهمه ما هي أحكام القانون في الكتابة ولا ما هو واجب الأدباء في احترام عقائد الناس ولا ما هو مبلغ سياج الحرية الفكرية التي يحميها الدستور.

ثم يقول: «وبديهي أننا لو أخذنا نحاسب جميع الكتابات الأدبية والفلسفية والعلمية على أساس ذلك التخريج العجيب لانتهى الأمر بالطعن فيها جميعاً، ولا يجوز حمل تعابيري الشعرية في مقال عن (فرويد) على المحمل الذي ذهب إليه، إذ ليس من المعقول أخذ هذه التعابير على حرفيتها، ولولا الجو الذي خلقه حب الكيد لما رأى أحد فيها شيئاً.

إن ما ذكرته عن فرويد ونتائج أبحاثه لا علاج لها سوى قيام المتنورين من علماء الدين ــ ولا أعني علماء الإسلام وحدهم ــ للرد النابه عليها بدل العادة القديمة في طلب مصادرة كل ما لا يرضيهم ثم هو يتحدى قائلاً في المقال نفسه «ليس لمشيخة الأزهر ولا لغير الأزهر ذرة من الحق في محاسبتي على مذهبي الديني وتفضيل عقيدتي فليس الذي يلخص آراء(فرويد)ونتائجها في نزاهة كما رآها العلماء الأوروبيون مع الحرص على الإشارة إلى اختلاف أصحاب مثل هذا الرجل لا يجوز أن تقام له محكمة تفتيش إسلامية سنة ١٩٣٦ إذ لا محل لقيامها من الناحية الدستورية ولا من ناحية الإسلام نفسه الذي سامح في أزهر عصوره العقائد المخالفة له نهاية التسامح.

أما هذه الوصايا الممقوتة على آراء الناس التي يتهافت عليها طائفة بين شيوخ الأزهر فأمر لا يليق بكرامة الإسلام ولا بكرامة الأزهر. ثم يتابع زكي أبو شادي قائلاً:

«وإذا سكت عنه مؤلف أو أكثر بين الحسرة والألم فلن يسكت عنه كاتب

Twitter: @abdulllah1994

هذه السطور بقية حياته التي وهبها لتحرير الفكر والوطن لا لعبودية الجمود والرجعية.

ولا يفوتني أن أذكر أن بين الأزهر وكاتب هذه السطور خصومة قديمة ترجع إلى اعتبارات نقدية فلو تقرر أن يكون الأزهر حكمًا قانونياً لوجب حتمًا رده».

ثم هو يستنكر في مقاله أن يكون قد قال بهدم الأزهر «لا أعرف أني قلت بهدم الأزهر، وتهدم الكنيسة ليحيا المصريون حياة مدنية إنما هذا ما قلته بالحرف الواحد» وإننا نغتبط بكل حركة إصلاحية يستفيد منها الأزهر والكنيسة القبطية، ولكن عنايتنا بكليهما يجب أن تكون محدودة، ويجب أن توجه العناية الكبرى إلى تهذيب الروح المدنية في الشعب».

ثم يقول: «إني أتمنى على صديقي الدكتور زكي مبارك أن يبقي حسن ظنه فيَّ قائمًا وكاملاً ثم يراجع كتاباتي فسيجد لها معاني جد مختلفة عما ساقته إليه حماسته الدينية في الجو الشاذ الذي خلقه الكائدون». ويمضي زكي أبو شادي على هذا النسق يتراجع مرة ويدل بنفسه أخرى ويدافع عن موقفه في كل مرة إلى أن يقول في آخر فقرة من مقاله الطويل[1]: «إن الأيدي المصرية المتعلمة تتداول مئات الكتب الأدبية التي لا يجوز ترجمة واحد منها لما فيها من الفكر الحر وإن جاء في أدب واتزان مع أن الخير كل الخير في ترجمتها وإثارة النقاش الأدبي والفكري حولها.

وظاهرة أخرى عجيبة تقرأها في كتابات من يتصدى للنقاش وفي الجهل التام بحقائق التاريخ والعلوم والآداب الحديثة مع أنهم لو شجعوا النقل الوافي إلى لغتنا ثم التفتوا إلى الرد على ما لا يعجبهم من هذه الترجمات لجاؤوا لنا برد أقوى وأحكم لا بمهازل سخيفة يبرأ منها الدين والعلم والأدب معاً».

وهكذا تنتهي معركة من أشرف وأنصع معارك مبارك الذي وقف ضد

---

(١) المصدر السابق.

Twitter: @abdulllah1994

صديقه مرشداً ومحاوراً ومنافحاً عن القيم الثقافية والمبادىء الأخلاقية غير ملق بالاً إلى متطلبات الصداقة وعاطفيات الصحبة مع ملاحظة أن أبا شادي كان في ذلك الوقت يملك بعض الضرر والنفع لأدباء الجيل فهو صاحب مدرسة واتجاه في الشعر والأدب العربي المعاصر إنه رائد لجماعة (أبوللو) الشعرية ورئيس تحرير مجلة «أبوللو» التي تصدر عنها وكان مبارك من كتابها ومع ذلك كله لم يصل إلى أمجاد شخصية أو منافع ذاتية وضرب ضربته التي رأينا مما يجعلنا نضيف هذه المعركة النضالية الشريفة ذات المستوى العلمي إلى قائمة معاركه العلمية كمعركة التصدي للنزعة اليونانية ومعركة مستقبل الثقافة في مصر ومعركة غاية الأدب مع سلامة موسى ومعركة الوحدة والتجزئة والدعوة إلى الفرعونية[1] ونحن نرى أن للثقافة الأصولية جذورها الضاربة في أعماق مبارك وغير مبارك ممن نهلوا بداية من نبع القرآن الكريم ومن منهل الأزهر الشريف ومن كتب التراث المجيد مما يجعلهم يرفعون رايات الجهاد في وجه حركات التغريب والتذويب وهكذا كان زكي مبارك ـ على الرغم من كل جموحاته وتطرفاته ـ يعتصم بثقافته الأصولية ضد كل دعاوى التغريب والانحراف ويستعمل كل زوارق النجاة حينما يهيج الموج وتضطرب سفن الفكر[*].

□□□

(١) تنظر هذه المعارك في مكانها من هذا البحث.

(*) يمكن العودة إلى نصوص هذه المعركة في:

(أ) مجلة أدبي لزكي أبو شادي، مجلدات عام ١٩٣٦.

(ب) جريدة البلاغ، عام ١٩٣٦م.

Twitter: @abdulllah1994

خصومات ذاتية

«خم النوم باشا»

تمهيـــد:

هذه معركة لا تعليق عليها عندي سوى أنها من المعـارك الشخصية الساخرة والتي تميزت باللون العنيف من الجانبين مما يجعلني أميل إلى التعليق القائل: بأن زكي باشا «شيخ العروبة» هو صاحب المدرسة الساخرة التي تميزت في النقد بالعنف المليء بالضربات والطعنات، وأن طه حسين وزكي مبارك والمازني وغيرهم قد تلقوا عنه في الجامعة ونظروا إلى كتاباته ومساجلاته حول الحضارة الإسلامية في الصحف. وقد بدأت المعركة باعتراض زكي باشا على ما ذكره زكي مبارك من أن شرح نهج البردة التي حملت اسم الشيخ سليم البشري ــ رحمه الله ــ هي من وضع ابنه الشيخ عبدالعزيز البشري ــ رحمه الله ــ[1] وقد سخر زكي باشا من مبارك فوجه الخطاب إلى «الطفل الميمون نجل الدكتور زكي مبارك» ذاكراً أن الابن يكتب أحياناً بإمضاء أبيه ويخطىء.

وتطورت المساجلة حتى كانت على هذا النحو الذي نفصله:

نصوص المعركة:

ـ ١ ـ

من زكي باشا إلى زكي مبارك على صفحات البلاغ[2] كتب يقول تحت

---

(١) ادعى زكي مبارك ذلك في مقال بجريدة البلاغ ١٣ ديسمبر ١٩٣٢ وينظر أيضاً كتاب الموازنة بين الشعراء لزكي مبارك، ص ١٨٠.

(٢) البلاغ: ١٦ ديسمبر ١٩٣٢م.

Twitter: @abdulllah1994

عنوان «إلى الطفل الميمون نجل الدكتور زكي مبارك» أنت تكتب باسم أبيك فتارة تخطىء وتارة تصيب.

فأنت تزعم بالأمس فيما كتبته أنت بإمضاء أبيك أن الأستاذ الأخ وشيخ المحدثين وشيخ الأزهر المرحوم الشيخ سليم البشري قد رضي بالكذب والزور والبهتان بأن يوضع اسمه على شرح نهج البردة. والحال كما تزعم أنت وحدك ــ أن هذا الشرح مكتوب بقلم ولده فخر الكتاب وإمام المنشئين الكاتب الأبرع الأمجد الأستاذ عبدالعزيز البشري.

ولو أنك سألت أباك الدكتور زكي مبارك الصادق المصدوق، لقال لك إنك جريء على الحق وإنك مستهتر بالتاريخ فإن أدبك أبوك بالأدب الذي أخذه هو عن أشياخه (ولي معهم سهم ضئيل) أيام كانت العمامة البيضاء تتوج رأسه المبارك بالعلم وتزين مفرقه الحالي بالأدب ثم رجعت تطلب مني الإفادة بأن تجلس بين يدي كمثل الطالب المستفيد المتأدب في جلسته وفي عبارته فإنك تكون في هذه الحالة ــ وهذه الحالة فقط لأنعم عليك بالجواب وإلا فخير من مجاوبتك السكوت.

ــ ٢ ــ

ورد زكي مبارك على زكي باشا على صفحات البلاغ[1] قائلاً:

إني أعرف أني أسرفت في الثرثرة وملأت الدنيا كلاماً وضجيجاً وكان لا بد أن يتقدم كاتب جريء فيقول: اسكت فقد أسرفت.

وكان ذلك الكاتب الجريء هو العلامة المفضال (أحمد زكي باشا) الذي لم يعد الصواب حين قال: إن هناك إنسانين أولهما زكي مبارك وثانيهما نجل زكي مبارك. وأنا واثق أعرف هذا من نفسي فقد يتفق في أحيان قليلة جداً أن أكتب فأجيد ثم أكثر من الهذر واللغو والفضول حتى لأحب أن أذيل مقالاتي بإمضاء

(١) البلاغ: ١٩ ديسمبر ١٩٣٢.

Twitter: @abdulllah1994

أحد أبنائي، ولكني أشفق أن أحملهم تبعة ما أكتب حين يفوتني أن أوفق إلى القول الفصل والرأي الحصيف.

ثم أشار إلى أن شرح البردة ظهر منذ عشرين سنة، قال وكنا نسمع في أندية الأدب أنه من وضع الأستاذ (عبدالعزيز البشري) لا من وضع أبيه المرحوم الشيخ سليم ثم اتفق لي أن أكتب في ربيع ١٩٢٥ في المقطم عن قصيدة نهج البردة وأشرت إلى كاتب ذلك الشرح فلم يعترض أحد على ذلك.

وقابلت شوقي وطه حسين ثم نشرته في كتاب الموازنة بين الشعراء فلم يثر زكي باشا ولم يغضب أحد من مؤرخي الأدب الحديث ثم قال: لما ظهر خطاب زكي باشا رأيته عنيفاً جداً، وأشار بعض الأصدقاء بأن أقابله بخطاب أقسى وأعنف، ولكني تذكرت أن زكي باشا كان من أوائل الأساتذة الذين تولوا التدريس بالجامعة وتذكرت أن زكي باشا شيخ كبير ومن حقه أن يلهو بالإساءة إلى أبنائه الأوفياء. ثم تذكرت أخيراً أن الواجب يقضي بأن أشغل بتحقيق هذه الحالة تحقيقاً علمياً بعيداً عن لفظ القيل والقال. ثم ذكر الدكتور مبارك أنه رجع إلى طه حسين فقال له إنه لا موضع للشك في أن يكتب المرحوم الشيخ سليم ذلك الشرح لأنه متفوق جداً في علم الحديث وكان يحفظ البخاري متناً وسنداً ثم اتصلت بعبدالعزيز البشري؛ فابتدرني بكتاب أرق من أدبه الرائع وسألني كيف أستكثر على أبيه أن يكون كاتباً مع أنه كان من كبار المحدثين. وأحالني على مقالات كتبها والده في السنة الأولى من المؤيد في الرد على الطويراني والشنقيطي وقال إن مقالاته تضعه في الصف الأول من الكتاب.

ثم قال مبارك: وتلك بيانات نقدمها في نزاهة إلى قراء البلاغ وفيها انتصار لأستاذنا المفضال (أحمد زكي باشا) ولا يضيرنا أن ينتصر حين يكون الحق في جانبه بل الشرف كل الشرف أن نعمل لانتصار الحق ولو أدى ذلك إلى انهزامنا في مناظرة أدبية.

ثم قال: «وبعد أن وصلت إلى هذه النقطة لقيت من أديبنا أزرق الناب من القروم الخناذيذ الذين شهدوا ذلك العهد فأكد أن زكي باشا لم يوفق في إثارة

Twitter: @abdulllah1994

هذه المسألة وأنه كانت هناك ظروف سياسية دقيقة قضت بتكليف الشيخ (سليم البشري) بشرح نهج البردة وأن الشيخ سليم لم يكن منشرح الصدر لذلك وأن الشرح الأول وضع في منزل شوقي بك بالمطرية بمعاونة الأستاذ عبدالعزيز وأن الشيخ سليم راجع الشرح وصادق عليه وتوجه باسمه».

ثم عاد زكي باشا وقال معلقاً على قوله: «لطالما عارض الناس بردة البوصيري في القديم والحديث بمئات ومئات من المنظومات».

وقال: واستكثر هذا الإغراق في المبالغة، والكلام الفضفاض إن مئات ومئات توجب على الأقل خمسمائة قصيدة والصواب أنها توجب ستمائة لأن أقل الجمع ثلاثة وطلبت من الباشا أن يدلنا على خمسين لا خمسمائة فراح الباشا يراوغ مراوغة علمية اسمها الفقهي الفصيح (الهرب) واتهمنا بالغض من قدره مع أننا من أعرف الناس بسعة اطلاعه.

وإن كنا نوافق خصومه في بعض ما يأخذون عليه من سرعة الغضب ونقل المناظرة من باب الجد إلى باب التنابذ الذي يكرهه العلماء.

وكان زكي باشا قد سأله عن أبيات من الشعر ومن قائلها؟ فرد عليه وقال: «لو استبحنا لأنفسنا أن نسأله هذا السؤال لأعجزناه وأعجزنا معه ألوفاً من القراء ثم وجه إليه ثلاثة اتهامات»:

١ ـ هل من الحق أن بردة البوصيري عورضت بمئات ومئات من المنظومات؟.

٢ ـ هل يليق بالعالم أن ينقل الجدل من ميدان إلى ميدان ليفر من الجواب؟.

٣ ـ هل من الحق أن كل ما جاء من المدائح النبوية كان معارضة للبوصيري وإن اختلف في الوزن والقافية؟ ثم ختم مقاله بقوله:

والنتيجة أن سعادة زكي باشا قد انهزم في هذه المعركة وإن لم يثر منها نقع ولم تتناثر أشلاء فلسنا بحمد الله ممن يسترون ضعفهم بالطعن والسباب وإنما بالمحبة الساطعة التي تدفع رأي المكابرين.

Twitter: @abdulllah1994

- ٣ -

وعاود زكي باشا السجال فقال ساخراً من زكي مبارك تحت عنوان «خم النوم.. صح النوم» كان من حسن ظني بك أن ابنك هو الذي كان في حاجة إلى تأديبك فإذا به أنت أو أنت إياه.

امتد بك النوم في هذا الشتاء سبع ليالٍ إلى أن تمخضت أنت بعد الأسبوع بمقال الأمس في أربعة أعمدة ونصف عمود في البلاغ.

وليس من طريف سوى أنك وأنت نائم قد حلمت بأنهم قتلوك مراراً وأنهم أماتوك تكراراً. ولكن القبر كان يخرجك، كما كان دائباً على التجرد عنك لتواظب الرجع إلى الدنيا وإسعادنا بذلك الثغر البسام فالحمد لله على السلامة يا دكتور مبارك.

ثم قال في الرد على ما قاله زكي مبارك في مقاله سنة ١٩٢٥:

هل تتصور أنني موكل بادحاض كل بطولة تصدر هنا أم أن الوحي يأتيني بما يظهر من التلافيق هنا، يميناً بالله لولا الدكتور أحمد بك عيسى لما كنت قرأت كلمتك الجافة الجامحة عن أستاذنا الذي رباك وأحسن تأديبك في الجامعة أيام كنت متوجاً بالعمامة الناصعة البياض. فيا رحمة الله على تلك العمامة وما كان تحتها. ويا خيبة الأمل فيما آلت إليه في صورة البرنيطة المطربشة ثم الطربوش المبرنط.

أما الدلال يا دكتور، أما التجني يا مبارك، فإن كان يوسف الجديد المتقمص في ثياب الأستاذ الدكتور زكي مبارك ابن قرية سنتريس قد سحر بهما بنات باريس فهذا السحر خيال باطل في نظر غواني المغاني بشارع عمادالدين.

ثم ذكر قصة تأديبية لأستاذه (منصور أحمد) الذي ذهب إلى باريس، وكان زكي باشا طالباً (١٨٨١) بالمدرسة التجهيزية بدرب الجماميز «وقد صادمته العناية المقلوبة فذهب إلى باريس وعاد مثل ما قيل عن زميله الصعيدي (جاموسة طماوي تضرب بالفرنساوي)، وكان يتشدق باسم فلان ويشيد باسم فلان».

Twitter: @abdulllah1994

وفي أثناء دروسه على الأكسجين وحمض الكربونيك يتمخض بالكلام عن غرام نساء باريس به وبجماله، واحدة واحدة وسرباً سرباً وأفواجاً أفواجاً. فما كان من التلميذ الخبيث (أحمد زكي) إلا أن قال ذات يوم: «يا دكتور ما عندكش مراية»؟ فانهال عليه بالسب والشتم، فهل في تلاميذ اليوم نجوة على تأديب أستاذهم د ــ ز ــ م. ابن سنتريس المنوفية «كما فعلنا نحن بالأمس، إنهم يخدمون الأمة ويخدمون أنفسهم. وحينئذ فقط يكون جديراً بالجواب».

أما إذا سكت التلاميذ واستمرأ الأستاذ (د. ز. م) هذا النوع من الغطرسة الكذابة والعجرفة الفارغة فإنهم يكونون مسيئين إلى أنفسهم وإلى أمتهم ويكون السكوت خيراً من الإجابة.

ـ ٤ ـ

ويرد زكي مبارك مكيلاً لأستاذه من نفس الكيل فيقول تحت عنوان «خم النوم باشا».

كنا نظن أن الأدب البارع الذي يظهر في مقالات شيخ العروبة من جديد رمته به أيام الشيخوخة. ولكن يظهر أن هذا الأدب كان من صفاته لعهد الطفولة. فقد حدثنا حفظه الله أنه استباح أن يقول لأستاذه في المدرسة التجهيزية «ما عندكش مراية» ولم يكتف الباشا بهذا في وصف أستاذه بل وصفه بأنه «جاموسة طماوي تضرب بالفرنساوي» وهذا الرجل الذي يكتب هذا القول هو نفسه الرجل الذي قضى وقتاً طويلاً يدعوني فيه إلى أدب القول. ومن كلماته يوم ذاك «لقد أفسدت السياسة أساليب النقد في الأدب لنكتب نحن الأدب بأدب». وقد عملت بنصيحته وتأدبت معه فاستأسد وكشر عن أنيابه وكان في مقدوري أن أعامله بمثل ما عامله به الأستاذ محمد مسعود[1]. ولكني رفقت بشيخوخته وقدرت له ماضيه في خدمة اللغة العربية والله يشهد أني عصيت جميع الناصحين.

---

(١) محمد مسعود عالم لغوي دارت بينه وبين أحمد زكي (شيخ العروبة) مساجلة على صفحات البلاغ عام ١٩٣٢.

Twitter: @abdulllah1994

فما رآني أديب إلا حذرني عواقب ملاينته وقد دعاني إلى مهاجمته ناس كرام يعرفون طباعه فآثرت الرفق رعاية للواجب واحتراماً لماضي «خم النوم» حرسه الله.

«ثم أعاد زكي مبارك أسئلته إلى أحمد زكي باشا» وقال: هذه هي الأسئلة التي فرَّ منها الباشا المفضال ليكتب في شتمنا مقالين أطول من ليل الشتاء. ونحن لا نزال نحسن الظن به ونرجو أن يقلع عن شطحه ونطحه.

ليس بيننا وبين حضرة العلامة زكي باشا حقد شخصي ولكنه مازحنا فمازحناه فإن عاد عدنا وفي الكأس بقية كلها علقم وصاب.

ـ ٥ ـ

ويكاد التأثر يأخذ مكانه من قلب أحمد زكي باشا فيعاقب الدكتور زكي مبارك ولكنه لا ينسى أن يسخر منه كعـادته[1]:

«ما بالك تجحد فضل أستاذيتي عليك وتعاود فحش القول وجفاء الطبع؟ وبماذا تبيض وجهك عند الأستاذين الطاهر والأسلامبولي بعد أن استغفرتني في دار مجلة المعرفة قبل ردك الأخير؟».

أفأنت حينما تواجهني يتغلب عليك الأدب ويغلبك الحياء؟ وإذا ما خلوت إلى نفسك جمح بك القلم ذلك الجموح الذي طالما حاربته فيك.

ثم قال بعد أن تحدث عن معركته مع مسعود ومعركته مع (مرقص باشا) أعود للمستنصر المبارك. كنت أظنه أديباً. فإذا بـه لا يزيـد إلا أن يكون (أدباتياً)[2] وكان من تعليمي إياه أن يكون محققاً فإذا به يبقى (ممخرقاً) وإنه يزعم أنني صنعت كتاباً في القول الناشف برضه يا مبارك تموت في هذا القول، ولا تصدر عنه صدوراً بعد أن تطورت من العمامة إلى البرنيطة إلى الطربوش ثم

---

(١) البلاغ: ٢٥ ديسمبر ١٩٣٢.

(٢) الأدباتي: من الشعراء المفاليك في الجيل الماضي يمدحون الناس بلهجة عامية نظير عطاء محدد.

Twitter: @abdullllah1994

تنسب لي «الذهب الإبريز في محاسن باريز» ونسى أن هو ابن سنتريس الذي عبدته أحاسن باريس» كما يقول وينسب لي «التحفة البهية في الكبدة المشوية يا كبدي عليك يا مبارك حينما كنت تجري ليلاً في درب المش وراء (يا جابر) الذي يبيع الكبدة وأنت لا تزال تحلم بها وتتصور أنها أكل الملوك.

ثم أشار إلى أن زكي مبارك وسط إليه حسن القاياتي وقال: إنني لم أتشرف قط بأن أكون صديقاً للدكتور مبارك وغاية الأمر أنني عرفته تلميذاً نجيباً ثم صار اليوم إلى ما صار إليه من الجموح فرددت عليه. وبعد أن أوهمني في سكوته أعاد الكرة فرجعت إليه ثم طغى في الثالثة فكانت له مني هذه الكلمة وهي الأخيرة فإن التزم بالسكوت ورضي بحكم الأستاذ القاياتي وعاد إلى التأدب مع أستاذه الذي له عليه فضل التربية والتثقيف فذلك ما كنت أعهد من كرم أخلاقه. ويسكت زكي مبارك بعد أن لقنه أستاذه درساً ما إخاله نسيه طوال حياته وكيف ينساه وهو الذي اعترف أن لأستاذه زكي باشا أسلوباً ساحقاً في العراك وأنه كان لا يهجم على باحث إلا تركه كالرفات وأنه كان آية في الكر والفر بفضل اطلاعه الشامل وذكائه الوهاج.

رحم الله الفارسين وغفر لهما(*).

□ □ □

(*) نجد نصوص هذا السجال على صفحات جريدة البلاغ ١٩٣٢.

١ ــ ١٦ ديسمبر ١٩٣٢.
٢ ــ ١٨ ديسمبر ١٩٣٢.
٣ ــ ٢٠ ديسمبر ١٩٣٢.
٤ ــ ٢٢ ديسمبر ١٩٣٢.
٥ ــ ٢٥ ديسمبر ١٩٣٢.

Twitter: @abdulllah1994

لقمة العيش وطه حسين

تمهيـــد:

نعيد القول مرة أخرى في أننا شققنا المعركة التي دارت بين طه حسين وزكي مبارك إلى شقين أحدهما موضوعي وهو الذي ناقشنا فيه آراء الدكتور طه حسين حول الثقافة اليونانية؛ والقومية العربية ومستقبل الثقافة في مصر[1] الخ.

أما الشق الثاني وهو موضوع هذا الفصل فقد أفردناه لاحتواء النقاش الذي دار من جانب واحد، لذا فإن إطلاق المعركة عليه من قبيل المجاز كذلك فقد تميز هذا الشق بنصيب وافر من الإسفاف وعدم الموضوعية. ولعل مرد ذلك إلى النكبة الكبرى التي مني بها الدكتور مبارك من قبل أستاذه الدكتور طه حسين حيث بذل كل جهده لإخراجه من الجامعة المصرية عندما عاد إليها «أعني طه حسين» رئيساً لقسم اللغة العربية بكلية الآداب بعد أن أقصي عنها فترة من الزمن بسبب الثورة التي دارت حول كتاب «الشعر الجاهلي».

ويتضح من خلال تفاصيل المعركة أن هذا كان السبب الأول كما أنه هو السبب الأخير ـ وإن كان الدكتور مبارك قد تشدق بغير هذا السبب فما هو إلا محض افتراء طالما تعود الدكتور المبارك على الافتراء مثله في تبرير عنفه وكثرة خصامه ومحاوراته ومعاركه.. وإن كنا لا ننكر مدى ما ألم به من ألم وما أصيب به من مرارة تجعلنا نتعاطف إلى حد بعيد معه.

(١) تنظر هذه المعارك في هذا البحث، ص ٧٧، ٩١.

Twitter: @abdulllah1994

لقد امتدت المعركة زمناً طويلاً من عام ١٩٣٢ ــ على أثر خروج مبارك من الجامعة ــ إلى ما بعد الأربعينيات من هذا القرن ولا نبالغ إذا قلنا حتى مات مبارك عام ١٩٥٢[١].

وهي فترة طويلة بلا شك مما جعل النقاد يقولون إنها أضخم وأطول معركة أدبية في تاريخ الأدب المعاصر.

ولقد سبق أن أشرت إلى أن الدكتور طه ومعه المسؤولون في الجامعة هم السبب المباشر لما أصيب به قلم مبارك من عنف وقسوة إذ أن الصدمة التي مني بها على أثر إخراجه من الجامعة كانت المحرك الذي أمد حياته الأدبية بعد ذلك بما أصابه من عنف وشماس. والناظر إلى أسس المعركة يكاد يلتمس للدكتور مبارك بعض العذر وإن كان ليس كله في أن يقود معركته ويشعل نارها بهذا العنف وبهذه القسوة وعدم الموضوعية في النقد.

لقد قال النقاد الذين تناولوا سير المبارك وهم قلة.. إنه ظل مشدود البصر إلى طه حسين طوال حياته أو على الأقل في مطلعها مذ عرف الأزهر ومنذ انتقل إلى الجامعة فلقد كان طه حسين ــ وما زال ــ أعجوبة في فم هذا الجيل لأنه استطاع وهو الضرير أن يصنع لنفسه حياة تضارع في خلودها حياة فرسان الأساطير والأبطال المكافحين حينما خرج من قريته في الصعيد ولا أمل له سوى الأزهر ولا طريق أمامه غيره فما يلبث أن يعود إليها بعد سنين قصار وهو يحمل أحدث الثقافات وأعلى الإجازات فهو مثل رائع للكفاح المشرف والأمل العريض ولا نغالي إذا قلنا إنه رمز للإرادة المصرية الصلبة. ومن ثم فقد شدت شهرته إليه الأنظار فتتبع خطاه مبارك مثلما تتبع خطاه كثيرون من غير مبارك فتتلمذ للشيخ المرصفي مثلما تتلمذ أستاذه ورائده وترك الأزهر إلى الجامعة مثلما فعل أستاذه ولم يقتنع بما في الجامعة المصرية من علم فتوجه شطر السربون مثلما فعل طه حسين إلا أن الفرق بينهما واضح وهو أن طه حسين وجد من يعينه من مال

(١) كانت فترات قصيرة تلك التي كان يهادن فيها زكي مبارك خصمه ثم لا تلبث المناقشات حتى تثور قوية عنيفة من جديد.

Twitter: @abdulllah1994

الحكومة وجاه الأحزاب فذهب إلى فرنسا مبعوثاً على حساب الجامعة بينما لم يجد مبارك من ينصفه فسافر إلى باريس مكافحاً على نفقته البسيطة وعاش هناك من كدح قلمه وذوب كلماته.

ولا شك أن الفتى السنتريسي حينما يتبع خطوات أستاذه كان يظن به الخير ويأمل منه التشجيع لأن الكفاح المشترك والأمل الطموح جمع بينهما برباط وثيق.

لقد أشاد به الدكتور طه عندما قرأ له محاضرات عن عمر بن أبي ربيعة وزكاه للعمل في الجامعة عندما نال منها الدكتوراه الأولى سنة ١٩٢٤ وإن كان قد حاول أن يساعد على إسقاطه مرتين في امتحانات الليسانس ولكننا لا نستطيع الجزم بأن العداوة المبكرة قد غرست بذورها بينهما منذ ذلك الحين فأعمال الامتحانات الرسمية توجب ما لا يرضاه الأستاذ لتلميذه أحياناً وما هو إلا اختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية على ما يقولون أو كما يقول مبارك نفسه معلقاً على هذه الحادثة «إن السقوط في الامتحان مما يحفظه الطالب المخلص لأستاذه المنصف». ولكن الثابت الذي نستطيع الجزم به أن سفر الدكتور مبارك إلى السربون واصطدامه هناك بالمستشرقين الفرنسيين حول آرائهم التي حاولوا فرضها عليه فرفضها وتعرض لطه حسين فنقض نظريته في الشعر الجاهلي وعاد من هناك ليطنطن أنه ابن مصر العربية وثقافتها الإسلامية وأن طه حسين ابن فرنسا اللاتينية وثقافتها الغربية. فلم يكتف بذلك وإنما أخذ في مواصلة حملاته بعد عودته من رحلة السربون على آراء مسيو مرسيه كبير المستشرقين في السربون وأستاذ طه حسين فيما قبل[1].

من هنا كان المنطلق ومن هنا يبيت طه حسين في نفسه العداوة للدكتور مبارك ثم تغير رأيه الذي سبق أن أعلنه في محاضرات ابن أبي ربيعة فيسارع حينما يظهر كتاب النثر الفني في طبعته الأولى سنة ١٩٣٤ فيشير إليه مستهيناً بشأنه ويقول عنه: «إنه كتاب من الكتب ألفه كاتب من الكتاب». وهنا تنفجر

---

(١) ينظر ذلك في المعارك التي دارت حول كتاب النثر الفني، ص ١٤١، ١٥٧ من هذا البحث.

Twitter: @abdulllah1994

القنبلة الزمنية التي وضعها مبارك بيده في «النثر الفني» ليفجرها طه حسين بقلمه على صفحات الرسالة.

ويضمرها مبارك في نفسه إلى حين حينها لأن طه حسين وقتها كان خارج الجامعة بسبب معركته حول الشعر الجاهلي وكان (المبارك) قد وقف منه موقف المدافع من قبل سنة ١٩٢٦ حينما طبع الكتاب طبعته الأولى.

شهد له بالإسلام الصحيح والعلم الغزير حينما اتهم بالإلحاد.

وتدور الأيام دورتها وتفعل السياسة فعلها فيعود الدكتور طه حسين مكرماً إلى الجامعة ليجد الدكتور مبارك قد سبقه إلى هناك مدرساً في كلية الآداب. ويجد نفسه فجأة ــ أعني الدكتور طه ــ في موضع الامتحان مع نفسه فليس أمامه سوى أحد أمرين تلقاء مبارك: إما أن يتغاضى عن هفواته فيغفر له زلات نقده له حينما تعرض لبعض آرائه فهدمها من مثل رأيه في القومية العربية ورأيه في الثقافة اليونانية وآرائه في الأدب الجاهلي. وإما أن يعمل على طرده من الجامعة حتى يكون عبرة لغيره ممن يجردون القلم لمحاربة العميد. ويبدو أن الرأي الأخير هو الذي تغلب فمضى في تنفيذه دون إبطاء وساعدته الفرصة حينما عرض عليه تجديد عقد زكي مبارك فرفض وقال: «لم أستشر في تعيينه فكيف أستشار في تجديد عقده»؟.

ويخرج زكي مبارك إلى الشارع دون عمل يرزق منه سوى الكتابة في الصحف وهي في ذلك الحين بل وفي كل حين لا تكفي رجلاً ذا مسؤولية وأسرة ويتحطم الأمل المشرق لدى زكي مبارك ويثقل على نفسه وهو الأبي الطموح أن يجازى على الإحسان شراً وعلى العمل نكراً وإيذاء وطرداً هل هذا هو جزاء وقوفه بجوار أستاذه؟ وهل هذا هو ثواب الكفاح المستميت في مصر وفي فرنسا من أجل الجامعة؟.

وتثور ثائرته فيعلن الحرب على الدكتور طه ويقول له قولته المشهورة: «لقد ظن الدكتور طه حسين أنه انتزع اللقمة من فم أطفالي لو جاعوا

Twitter: @abdulllah1994

لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه ولكنهم لن يجوعوا ما دامت أرزاقهم بيد الله»[1].

وتستمر المعركة ـ كما أوضحنا ـ فترة طويلة يذهب النقاد في تفسيراتها مذاهب عدة ليس من بينها أبداً السبب الصحيح ففريق منهم يقولون: «إن هذه المعركة لها صلة بالتغريب ونفوذ المستشرقين وآرائهم وتبعية المثقفين الذين يتلقون دروسهم في السربون في ترويج آراء الغرب والإيمان بها وحجتهم أن آراء طه حسين في الشعر الجاهلي كانت آراء مسيو مرسيه وغيره وأن زكي مبارك حين ناقض هذه الآراء إنما أراد أن يتحرر من آراء المستشرقين: الفكرية والتغريبية. ولذلك أغروا به طه حسين الذي فصله من الجامعة وألجأه إلى العمل في مجال آخر حتى يكون عبرة لغيره. ولست أدري من أين أتى الأستاذ الجندي بهذا الرأي ومن هم هؤلاء النقاد»[2].

والرأي عندي يغاير ذلك وينقضه فلم يثبت حتى الآن على سبيل القطع برغم المعارك العنيفة والثورة الطاحنة التي قامت بسبب الشعر الجاهلي لطه حسين أنه الرجل ـ أعني الدكتور طه ـ استعار آراء المسيو مرسيه، وغيره من المستشرقين الفرنسيين وكل الذي أخذ عليه واستطاع الأستاذ عبدالمتعال الصعيدي أن ينسبه إليه هو أنه نقل رأياً من كتاب «مقالة عن الإسلام» للعالم الانجليزي (جرجس سال) وبذلك فإن الإنصاف يقتضينا أن نذكر أن تشويه تاريخنا بهذه الصورة من لصق الاتهامات بعمد جيلنا الراسخة أمر مخزٍ وليس من مصلحتنا ولا مما يفيد ثقافتنا المعاصرة.

أما قولهم إن الدكتور طه ألجأ الدكتور مبارك إلى العمل في مجال آخر فإننا نسألهم وما هو هذا المجال الآخر؟ أليس التعليم والصحافة؟ هل كان الدكتور طه ساذجاً إلى هذا الحد حتى يمنعه من العمل في الجامعة كي يلجئه إلى الصحافة وهي أخطر وأبعد في نشر الثقافة من الجامعة؟.

---

(١) ص ٦٧١ من المعارك الأدبية لأنور الجندي (مصدر سابق).

(٢) ٦٣٨ من المعارك الأدبية لأنور الجندي.

Twitter: @abdulllah1994

لم لا نقول إن إخراج زكي مبارك من الجامعة كان بمحض إرادة الدكتور طه وليس مجبراً عليه من أحد ولعل مما يعزز قولنا هو المذهب الذي ذهب إليه بعض النقاد وإن كنا لا ندري من هم هؤلاء النقاد أيضاً ـ وإن كان رأيهم أقرب إلى الصواب. إن «الكرامة» التي حاول زكي مبارك أن يحتفظ بها إزاء (طه) هي التي صنعت الخصومة، ويرون أن زكي مبارك تحول تحولاً كبيراً بعد هذه المعركة فهاجم آراء المستشرقين التغريبية وخالفهم ودعا إلى بعث أمجاد العرب وظاهرة القومية العربية ودعا إلى التعليم في الجامعة باللغة العربية.

وإن كان بودي أن أسأل هذا الفريق سؤالاً ـ إن كان هذا هو اتجاه زكي مبارك بعد إخراجه من الجامعة فماذا كانت آراؤه قبلها؟ لعلكم تذكرون ردوده العنيفة على طه حسين قبل إخراجه من الجامعة حول القومية العربية والنزعة اليونانية؟.

وأياً كان السبب الذي دعا الدكتور طه إلى إخراج مبارك من الجامعة وأياً كان السبب الذي حمل الدكتور مبارك على مهاجمة طه حسين فلقد تكشفت المعركة ـ إلا قليلاً منها عن لا شيء سوى مهاترات لا تنفع ولا تضر وإن كان قد تخللها أحياناً بعض الطرف من مثل قول الدكتور مبارك في إحدى مقالاته إنه طلب الدكتور طه بالتليفون «لأسأله عن معنى كلمة زمالك وكان يومها يقيم بالزمالك فقال: لا أعرف يا دكتور زكي. فقلت: إن الزمالك جمع زملك بضم الزاي وهي كلمة ألبانية والأصل فيها أن محمد علي أسكن جنوده تلك البقعة في مواسم الاصطياف والزملك هي الخيمة في لغة الألبان».

ومن مثل قول الدكتور طه يصف زكي مبارك إنه الرجل الذي لا يخلو إلى قلمه إلا وعلى رأسه عفريت. جدال لا يقدم ولا يؤخر ولا يضيف جديداً ولكن ماذا نفعل وهو قطعة من تاريخ أدبنا المعاصر. ولا نشك في أنها كانت في وقتها مما يغري قارىء الصحيفة اليومية والمجلة الأسبوعية بمتابعة السجال وإن أشارت إلى ضحالة النقاش وذاتية العراك، وسنحاول الآن أن نمر بالمعركة مروراً سريعاً فالمعركة واسعة وبحرها زاخر تحتاج وحدها إلى مجلد ضخم والكثير منها

Twitter: @abdullllah1994

مما لا يستساغ نقله لأنه مجرد هجاء مقذع أشبه ما يكون بمعركة حامية ولكن في غير عدو وفي غير ميدان.

نصوص المعركة:

ـ ١ ـ

يطبع «النثر الفني» للمرة الأولى سنة ١٩٣٤ وفي مقدمته ذكر لما دار في باريس أثناء طلب الدكتور للعلم هناك ويتعرض الكتاب في مقدمته لذم طه حسين من وراء ستار حتى أن صاحبه مبارك يعجب من نفسه كيف يهاجم طه حسين في هذا الكتاب وهو الذي تربطه به ألوف الذكريات «يرجع بعضها إلى العهد الذي كنت فيه طالباً بالجامعة المصرية القديمة يوم كان يصطنع العدل الذي يلبس ثوب الظلم في امتحان الطلاب ــ ويشير إلى حادثة إسقاطه في امتحان الليسانس».

ثم يقول: ــ وترجع بعض الذكريات إلى العهد الذي كنت فيه مدرساً بالجامعة المصرية الجديدة حين كنت أحمل إليه على أكتافي أحجار الأساس لنرفع القواعد من كلية الآداب.

ثم يقول: «وأدق ما يتصل بنا من الذكريات ما وقع في ربيع سنة ١٩٢٦ يوم أن ظهر كتاب في الشعر الجاهلي وثارت الأمة والحكومة والبرلمان وكان أصدقاؤه وزملاؤه بين خائف يترقب وحاقد يتربص وكنت وحدي صديقه الذي لا يهاب وزميله الذي لا يخون.

ثم يفسر سبب معاداته له فيقول:

«ولكن معايشتي للفكرة التي أدافع عنها وغرام الدكتور طه بنقضها في رسائله وأحاديثه ومحاضراته كان مما حملني على مقاومته بعنف وقوة حتى ليحسب القارىء أن بيننا عداوة سقيت لأجلها القلم قطرات من السم الزعاف حين عرضت لرفض آرائه في فصول هذا الكتاب[١].

(١) مقدمة كتاب النثر الفني لزكي مبارك.

Twitter: @abdulllah1994

ـ ٢ ـ

وحين يقرأ طه حسين المقدمة هذه يحبس غصة كدأبه دائمًا ويرسل بمقال إلى الرسالة[1] موسوم بعنوان طريف هو «النقد والطربوش وزجاج النافذة» مخاطباً به الأستاذ المازني يسخر في المقال من مبارك وكتابه على طريقة الإلغاز الأدبي فيقول: ـ «هو شيء يسير جداً ـ يعني الذي دفعه إلى أن يتكلم عن هذه الأشياء ـ النقد والطربوش وزجاج النافذة هو أن الأديب يقرأ في الكتب ويكتب في الصحف وينقد الكتب والمؤلفين، وتتغير الأزمان وتتبدل الظروف في الحياة ولكن هناك شيئاً لا يتغير ولا يتبدل في حقيقة الأمر وهو أن الأدب محنة يمتحن بها الأدباء».

إلى أن يقول: ـ «وكان صاحب الكتاب نفسه (يعني زكياً مباركاً) أحرص الناس وأشدهم طلباً وإلحاحاً فيه والكتب تمطر على الأستاذ المازني ويمطر معها طلب النقد وطلب التقريظ والنقد والتقريظ يحتاجان إلى القراءة والدرس وإذن فالمازني المسكين مصروف عن نفسه وعن فنه وعن كتبه إلى هؤلاء الذين يكتبون ومن هنا ومن جهات أخرى كان المازني شقياً بالأدب وإن كان الأدب سعيداً بالمازني وأي شيء أدل على شقاء المازني بالأدب وسعادة الأدب بالمازني أقوى من هذه القصة التي أحدثك عنها الآن، فقد أخرج «كاتب من الكتاب كتاباً من الكتب».

ثم يمضي الدكتور طه بعد ذلك في تفريعاته الجاحظية المعروفة التي تدعم الموضوع ولا تخرج عليه.

ـ ٣ ـ

وتثور ثائرة مبارك فيرغي ويزبد ويبرق ويرعد ويهدد ويتوعد ويكتب مقالاً للبلاغ يقول فيه: ـ

«أنا أعرف أن الدكتور طه أقسم جهد القسم ليمسخن كتابي ـ يقصد

---

(١) الرسالة ٢٦ مارس ١٩٣٤.

Twitter: @abdulllah1994

النثر الفني ــ مسخاً ويمحونه من الوجود ولا يبصر به اسم زكي مبارك مرادفاً لاسم عيسى بن هشام اسمع ما يقوله الدكتور طه حسين: ــ «أخرج كـاتب من الكتاب كتاباً من الكتب» فمن هذا الكاتب وما اسم ذلك الكتاب؟ لعلكم فهمتم أن الرجل طوى اسم كتابي فاستطاع بذلك أن يمحوني وأن يمر على كتابي ذيل النسيان ولم لا يفعل ذلك وهو يتوهم أن يرفع أقوامـاً ويخفض آخرين؟ وأن المؤلفين لا يعرفون إلا إذا زكاهم وأثنى عليهم؟

ولكن لا حيلة في أن نخيب رجاء الدكتور هذه المرة فالحيـاة الأدبية لا تعرف السيطرة ولكنها تعرف الحب والصبر والمثابرة.

ثم يخاطبه قائلاً: ــ يا دكتور طه ما أسأت إليك، بل أحسنت إليك بعض الإحسان حين دللت القـراء على أنك لم تبتكر ما تورطت فيه من الأخطاء، وإنما أخطأه جماعة من المستشرقين فتبعتهم بلا روية فكان عليهم إثم السنة السيئة وكان عليك إثم التقليد. كنت أنتظر أن تفرح بكتابي لأنه كما تعلم جهد أعوام طوال ولكن خاب الظن وعرفت أنك كسائر الناس تغضب وتحقد وكنت أرجو أن يكون عندك شيء من تسامح العلماء ثم ذكره بموقفه منه يوم وقف للدفاع عنه «ويقول» أفيعجز الدكتور وهو أكبر مني سناً وأرفع صوتاً عن مقابلة المروءة بالمروءة؟.

لقد كان يجب أن يكون الضمير العلمي أقوى وأرفع من أن تؤثر فيه الأحقاد اليومية وكان يجب أن يكون العلماء أرفع من أن يخضعوا للأهواء والشهوات وكان الدكتور طه أولى الناس وأجدرهم بأن يتخلق بالخلق الجميل.

ــ ٤ ــ

ثم يواصل الدكتور مبارك حملة البلاغ[1] قائلاً تحت عنوان. «طه حسين بين البغي والعقوق» لقد ذهبت أنت فأتممت دراستك في باريس وذهبت أنا

---

(١) ٢٣ نوفمبر ١٩٣٤ ونشرت في البدائع فيما بعد وهي من أقوى ما كتب الدكتور مبارك في الرد على طه حسين.

Twitter: @abdulllah1994

فأتممت دراستي في باريس فهل تعرف ما الفرق بيني وبينك؟ اسمع أيها الصديق القديم البالي:

ذهبت أنت على نفقة الجامعة ومضيت أنا متوكلاً على الله فأنفقت ما ادخرت من عرق الجبين واتصلت أنت (بالمسيو كازانوفا) ففرض عليك آراءه فرضاً ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون إلا نسخة من آراء ذلك الأستاذ. «ثم ذكر ما حدث له في باريس بسبب النثر الفني».

لقد اشتغلت أنا بالصحافة واشتغلت أنت بالصحافة وإليك الِفرق بين الشخصيتين: كنت أنا رئيساً لتحرير جريدة الأفكار وكانت تدافع عن مبادىء الحزب الوطني وكان يشرف عليها عبداللطيف بك الصوفاني فكنا نختلف ونختصم كل صباح لأني كنت آبى أن أكتب غير ما أراه من التعليقات السياسية وأنت اليوم رئيس تحرير جريدة وفدية فهل تدري ماذا تصنع؟ تدخل مكتبك فلا تكتب سطراً قبل أن تتصل تليفونياً بهذا أو ذاك لتلقي الوحي ثم تكتب ما يلقى عليك وكأنك الببغاء.

اشتغلت أنت بالتأليف واشتغلت أنا بالتأليف وإليك الفرق: مضيت أنت فانتهبت آراء المستشرقين وتوغلت فسرقت حجج المبشرين وكان نصيبك ذلك التقرير الذي دمغتك به النيابة العمومية وأنت تعلم أن ليس لك رأي واحد وصلت إليه بعد جهد وبحث.

واشتغلت أنا بالتأليف فكانت آرائي كلها مبتكرة ولم يستطع أحد أن يتهمني بالسرقة من فلان أو فلان كما اتهموك بالسرقة من جميع الناس.

ومؤلفاتك تموت يوم تولد ولك أن تسأل لجنة التأليف لتخبرك أن كتاب الأدب الجاهلي لم يبع منه شيء بعد النسخ التي فرضتها أنت على طلبة كلية الآداب.

ثم رأيت مائدة الوفد أشهى من غيرها وأمتع فذهبت وقدمت إليها نفسك وهددت الدكتور هيكل بكشف أسرار الدستوريين. كنت لوحة إعلانات لا تذيع

Twitter: @abdulllah1994

الرأي إلا لتغيظ الجمهور ليصبح حديث الناس في الأندية والمجامع[1].

أعلنت بعد إخراج الشعر الجاهلي نداء قلت فيه «أشهد أني أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» أنت تؤمن بالله وكتبه يا دكتور طه وأنت تكذب التوراة والقرآن اعتماداً على رأي خاطىء سرقته من أحد المبشرين؟

ـ ٥ ـ

ويتابع الدكتور مبارك حملته هذه في جريدة البلاغ[2] فيقول تحت عنوان «الجديد في دم الأديب» موضحاً الفرق بين الأديب المدلل الزائف والأديب الذي صنعته الأيام على عينها ولونته الأحداث على هديها قاصداً الفرق بينه وبين طه حسين يقول:

«سترون أن أبلغهم أثراً في نفس الجماهير وأقدرهم على أسر القلوب وغزو العقول واحتلال النفوس هم الأدباء الذين ابتلتهم الحياة بصنوف من الأرزاء وعرفوا كيف تقسو الحياة وكيف تلين. أولئك الذين يكتبون وفي كل حرف سر ظاهر وغرض دفين. أما الأدباء المدللون الذين حبتهم الأقدار بألوان من الترف والنعيم فهم ينظمون ويكتبون وكأنهم يلعبون وليس للألاعيب في عالم الأدب بقاء.

ويمضي على هذا النحو الموضوعي إلى أن يقول:

الأدب الصادق هو الذي يحمي صاحبه من بريق الزيف والبهرج ويصونه من الخضوع لأرباب الألقاب وإن أديباً واحداً بهذه الخلال أجدى على الأدب من ألوف الأدباء.

ـ ٦ ـ

وتمضي به المعركة إلى أتونها فيسفر عن ذلك على صفحات البلاغ[3]

---

(١) أقول: وكذلك كان الدكتور مبارك مع غلوه في ذلك.

(٢) ٢٥ يوليو ١٩٣٥.

(٣) البلاغ: ٢٦ أغسطس ١٩٣٥.

Twitter: @abdulllah1994

قائلاً: «أما الأحقاد التي تتلظى في صدر طه حسين فستقضي عليه شر قضاء وتنكل به تنكيلاً ولن تدوم له أيام الطغيان ولن يبقى له فلان وفلان والكرسي الذي يجلس عليه في الجامعة هو أقل ما أنتظره من الجزاء في المستقبل القريب. إن أعظم منصب في الجامعة لا ينيلني من المجد ما أنالني كتاب النثر الفني ستفنى أحجار الجامعة المصرية وتبيد ذكرياتها ثم يبقى ذلك الكتاب على مر الزمان. والذين يحاربونني لم يطمعوا في محاربتي إلا لظنهم أني رجل أعزل لا أنحاز إلى حزب من الأحزاب وليس لي في الحكومة عم ولا خال، ولكن خاب ظنهم فإن الحق أعز وأقوى وسيرون كيف أزلزل أرواحهم وكيف أملأ قلوبهم بالرعب وكيف أريهم عواقب ما يصنعون. إن النصر سيكون حليف من يصلون النهار بالليل في تثقيف عقولهم أما الثرثرة الفارغة التي يعتصم بها طه حسين فلن يكون لها في عالم الجد بقاء.

ـ ٧ ـ

ثم يختم حملة البلاغ الأولى مبيناً الأسباب التي دعته إلى مهاجمة طه حسين مفصلاً ما دار بينهما في الجامعة وكان عنوان مقاله «كيف هاجمت طه حسين»[١] وفيه يذكر أنه بدأ مناقشة الدكتور طه قبل عمله بالجامعة فكان يتخاذل. ثم لما عين في الجامعة بدا له أن يناوشه ظناً أني سأعمل على مسالمته من أجل الاحتفاظ بمنصب الجامعة.

ثم يقول: فأهملته قليلاً وتركته يصول في مناوشتي ويجول وكذلك أمليت له حتى جاءت الموقعة الخامسة يوم عين نجيب الهلالي وزيراً للمعارف وكان يعرف الصلة التي بيني وبين نجيب الهلالي وفي هذا ما قوى المحالفة بين رجلين لهما خصم لا سند له بين الأحزاب ولا عم له ولا خال».

ثم بين أنه لم يبدأ الهجوم عليه إلا بعد أن عاد إلى الجامعة في «زفة» لم يسمع بمثيلها منذ كان يسكن في (كفر الطماعين) وظن الناس أني سالمته ولكن

---

(١) البلاغ ٢٦ أغسطس ١٩٣٥.

Twitter: @abdulllah1994

هيهات فقد تجاهلت عداوته سبعة أيام إلى أن جمع بيننا مجلس «قسم اللغة العربية» وفي تلك الأثناء أراد الشيخ أمين الخولي أن يصلح بيننا فعرض الفكرة على الدكتور طه وقبل وعرضها علي فقبلت وكنت أرى أن الصلح خير وأن الزهد فيه بغي وعدوان وكنت أحسب أن الصلح لن يزيد على المصافحة وتبادل التحيات ولكن فوجئت مفاجأة لم تخطر على بال فإن الأستاذ أمين الخولي انتظر حتى اجتمع بعض الزملاء ثم نهض فقال: هذه أول جلسة يحضرها الدكتور طه حسين منذ عودته وأنا أقترح أن نلقي كلمة ترحيب وأفضل أن يلقيها الدكتور زكي مبارك لأن بينهما أشياء يجب أن تزول.

وكان موقفاً في غاية الحرج ولكني تحفظت إذ كنت أعرف أن العداوة التي بيني وبين الدكتور طه يصعب أن تزول ومن الحزم ألا أقول كلاماً ينطوي على تودد أو ترفق.

إني أرحب بعودة الدكتور طه وقد زاملته من قبل من ثلاث سنين وكنت من قبل ذلك من تلاميذه الأوفياء، والذي وقع بيني وبينه لم يكن فيه شيء جارح إلا المقال الذي نشرته في البلاغ (يقصد طه حسين بين البغي والعقوق) وهو مقال أعرف بأن فيه شيئاً من الشطط ولكني لا أعتذر عنه لأنه من بعض ما علمني ومن الخير أن نتناسى ما فات لأن مصلحة العمل توجب الوفاق.

وقد ابتسم الأساتذة حين ذكرت أن الشطط من بعض ما علمني وعدوها خطبة لبقة فيها ترضية وفيها احتراس وبعد أيام دار طلبة الجامعة على الأساتذة يطالبونهم بدفع قيمة الاشتراك في تكريم الدكتور طه وكانت خمسين قرشاً وهو مبلغ زهيد ولكني رأيت من الأشرف ألا أدفع خمسين مليمًا في تكريم شخص مثل طه حسين فلما طالبوني بالاشتراك أبيت وكانت حجتي أني لا أحب أن أهجو رجلاً وأكرمه في أسبوع واحد وكذلك عصمت نفسي من هذا التكريم.

أما موقفي في جلسات قسم اللغة العربية فكان دائمًا موقف المعارضة الصريحة لنزعات طه حسين وكان لا يسلم مني إلا بأخذ الأصوات.

Twitter: @abdulllah1994

ثم عرض لمسألة إخراجه من الجامعة فقص قصتها قائلاً: في أوائل شهر مايو دعاني الأستاذ الدكتور منصور فهمي إلى مكتبه قائلاً:

أرسلت إدارة الجامعة تسأل عن تجديد العقد، والنظام يوصي بأخذ رأي الدكتور طه حسين فاذهب يا بني وصف ما بينك وبينه وسأحفظ الخطاب حتى يتم بينكما الصفاء.

فأجبت الدكتور منصور فهمي بما نصه: «أنا على أتم استعداد لتصفية ما بيني وبين الدكتور طه ولكني لا أقبل ذلك في هذه الأيام» ولو أنك اقترحت ذلك منذ شهرين لقبلت.

أما الآن فلا تسمح نفسي بمصافحة الدكتور طه وأنا أعلم أن لذلك دافعاً من الغرض دفع إلى ذلك، ما الذي يزعجك يا سيدي العميد؟ أتظن أن الدكتور طه يتحين هذه الفرصة ويتشفى مني؟ إنه أعقل من أن يقترف مثل هذا الانتقام المفضوح فابتسم الدكتور منصور ابتسامة مرة وقال «أنت يا بني تسرف في حسن الظن بالناس».

حملة مجلة الصباح:

- ١ -

وانتهت بذلك حملة البلاغ الأولى وانتقلت المعركة إلى صفحات مجلة الصباح التي كان يحرر فيها الدكتور زكي مبارك وفيها كشف مبارك عن نفسه القناع فضرب وأوجع وأسف وأقذع بدأها قائلاً[(١)]:

الذي بيننا لم يكن خلافاً في الرأي وإنما هو قتال عنيف بين شخصيتين فالدكتور طه يرى أنني كنت تلميذه ومن واجب التلميذ فيما يزعم ألا يخالف الأستاذ، أما أنا فأرى الدكتور طه رجلاً قليل العلم والمعرفة بـالأدب العربـي.

---

(١) مجلة الصباح: ٢٣ أغسطس ١٩٣٥.

Twitter: @abdulllah1994

وأراه استمرأ السطو على آراء المستشرقين وأراه في حياته العلمية نموذجاً للفوضى والقلق والاضطراب. قد تقولون: وكيف سكت زكي مبارك عن نشر عيوب طه حسين وهو يصاحبه منذ خمسة عشر عاماً؟ وأجيب بأن الدكتور طه ابتدأ التدريس في الجامعة المصرية قبل أن يقدم الدراسات الأدبية فكان منذ سنين مستور العيوب.

على أن الخواص يعرفون أنني بدأت أعارضه منذ ١٩٢٧ حين اطلعت على عجزه الفاضح وعرفت أنه يعيش من سرقة آراء الأدباء والعلماء وأنتم تعرفون أني رجل صريح لم تستطع الأيام أن تروضني على المجاملة والمداراة فلم يكن بد من أن يعرف الدكتور طه أنني لا أحترمه ولا أحترم مسالكه الأدبية ولا أحترم تهافته الفاحش على موائد الأحزاب وكذلك هدفه وغريزته إلى وجوب محاربتي في عملي بالجامعة المصرية وساعده على ذلك ناس كنت شجاً في حلوقهم وكان هو في أنفسهم مثل الخادم الأمين.

فإن الدكتور طه انتصر حين وجد من يساعدونه على إخراجي من الجامعة فليذكر ويذكر من عاونوه على شفاء صدره أن انتصارهم ليس إلا هزيمة شنعاء وسوف يعلمونه.

ـ ٢ ـ

وتنتقل المعركة إلى حد الإسفاف المزري حينما يردد الدكتور مبارك دعاواه القديمة والتي مل من سماعها القراء حينما يدعي أن طه حسين بنى مجده الأدبي على السرقة من المستشرقين وأن طه حسين جاهل وكان عنوان المقال «مثال من جهل طه حسين»[1] يقول: «سبحان الله وكيف يكون جاهلاً وهو رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة المصرية من الذي وضع طه حسين في ذلك المنصب؟ إن الذي وضعه هو لطفي السيد مدير الجامعة ولطفي السيد ليس حجة في الأدب العربي ولم ير في حياته جامعة أوروبية حتى يعرف كيف تكون الدراسات العالية».

---

(١) الصباح: ١٣ سبتمبر ١٩٣٥.

Twitter: @abdulllah1994

ـ ٣ ـ

وفي نص المقال الثاني[1] يقول: «إن مصر لا يسرها أن يقوم مجدها الأدبي على أساس أوهى من خيوط العنكبوت وطه حسين أديب مزيف ومن الواجب أن يسبق المصريون إلى كشف القناع عن وجهه قبل أن يتقدم أدباء الشرق فيعايروننا بسيطرة هذا الجاهل على الحياة الأدبية.

وهل خلت مصر من الرجال حتى يكون طه حسين عنواناً على مجدها الأدبي؟.

ـ ٤ ـ

ويقول في المقال نفسه: «إن هذا الرجل لم يكن في جميع أدوار حياته العلمية إلا مرتزقاً يلتمس فتات سادته كلما نصبوا موائدهم وأوقدوا نارهم ولم يستطع حتى الآن أن يواجه تلاميذه ببحث أصيل يشدهم بأنه من أهل الفكر والبيان».

ـ ٥ ـ

وفي مقال جديد[2] أضاف إلى الأسباب سبباً جديداً في العداوة بينهما ثم أورد قصة يبدو أنها من بنات أفكاره يدعي فيها أنه حينما خطأ الدكتور طه خمس مرات فقط في محاضرة واحدة ألقيت بالجامعة الأميركية بعث إليه الدكتور طه من يرجوه أن يكف عنه.

عندئذ تبينت أن من الذوق أن أترك طه حسين يخطىء كيف يشاء إلى أن تصلح حاله وتستطيع الفصال. وذهبت إلى الجامعة الأمريكية لأسمع محاضرته الثانية فلما انتهى من إلقاء الدرس نظرت فرأيته قادماً فأسرعت إليه وحييته فلما وضع يده في يدي شعرت بأنه يرتجف ارتجافاً عنيفاً وكاد يسقط من شدة

---

(١) الصباح: ٢٠ سبتمبر ١٩٣٥.

(٢) الصباح: ٤ أكتوبر ١٩٣٥.

Twitter: @abdulllah1994

الاضطراب ولكنه تمالك نفسه وقال: أنت مخطىء، قلت صدقت ولما خرج الدكتور طه أقبل تلاميذي بالجامعة الأمريكية وقالوا عاتبين: كيف تسكت عن مناقشة الدكتور طه وتعترف بأنك مخطىء وأنه مصيب؟ فقلت: انتظروا حتى أشتري بخمسة تعريفة ذوق وأوزعه عليكم.

أتظنون أن أدبي يسمح لي بملاحاة طه حسين أمام الناس؟.

إن ذلك كان في جريدة البلاغ ثم علمت أن الدكتور طه راح يزهو ويختال ويقول إنه فند مزاعم زكي مبارك على رؤوس الأشهاد. إنني سكت عنه يومئذ إيثاراً للترفق برجل ضعيف أما اليوم فهو بخير وعافية وكشف أغلاطه من الواجبات فليجبنا إن كان يملك الجواب.

ثم تستمر المعركة في «الصباح» على هذا النحو الهازل ولا جديد فيها يضاف سوى تكرار القذف للرجل بالجهل والنقل من المستشرقين والادعاء بدون علم والتفكير الغريب لكل ما هو فرنسي «إن الدكتور طه مقلد في كل شيء حتى لنراه يهز كتفيه على الطريقة الفرنسية».

وتكون خاتمة المطاف في حملته (الصباح) ذلك التعليق الذي نشرته المجلة[1] بعد أن انتقلت الحملة مرة أخرى إلى صفحات البلاغ التي بدأها الأستاذ المازني بمقاله المنصف للدكتور مبارك.

قالت مجلة الصباح تحت عنوان «لو جاع أطفالي لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه» يعرف القراء حديث طه حسين وزكي مبارك وكيف أن الأول اجترأ على الثاني فحاربه في أدبه فلم يفلح فحاربه في رزقه فأفلح لأن العيش أراد أن يكون زكي مبارك بعيداً وأن يكون طه حسين كبيراً من أساتذة الجامعة فيكون للثاني الغلبة على الأول. ودارت رحى الحرب على صفحات الصحف تكلم زكي مبارك وحده فلم يجد أنصاراً وسكت طه حسين وتكلم أنصاره حتى تحرك قلم المازني فقال وإني لأحدث نفسي أحياناً بأني لو كنت أقول الشعر في هذه الأيام لرثيت طه حسين فإنه يخيل إلي أنه قد مات طه حسين الذي عرفته وأحببته وأكبرته، وجاء غيره الذي أنكره».

---

(١) الصباح: ١٧ يناير ١٩٣٦.

Twitter: @abdulllah1994

وحين يقول المازني وهو من خلصاء الدكتور طه ذلك فقد حكم في القضية فانتصر زكي مبارك.

تجدد حملات البلاغ (١٩٣٥):

- ١ -

وما تكاد حملة (الصباح) تهدأ حتى يطالع (البلاغ)[١] قراءه بمقال للأستاذ المازني يعـاتب فيه الدكتور طه عتاباً مراً قاسياً على موقفه من زكي مبارك فهو يقول له إن الدكتور طه قد خرج من زمرتنا معشر الأدباء الأحرار ودخل في زمرة الملقبين وذوي الجاه والسطوة والسلطان. ولست أعني أنه اكتسب لقباً جديداً متى حدث له شيء من ذلك ولكن أعني أنه محشور ـ بكرهه أو رضاه ـ في هذه الزمرة وأنا أكرهها ولا أطيقها أو أحتملها لما بلوت من سخافة أخلاق أهلها وما عرفت رجلاً علت به الألقاب أو المناصب إلا رأيته يشيل في ميزاني وإلا وجدتني أنفسه وأنبذه.

الفيتني أشعر أن ما بيني وبينك من قرابة الأدب ونسبه يكاد ينفصم على الأيام، والأدب ينكر الأرستقراطية ولا يعرفها. ولست أصانعك أو أتملقك فما تملك لي نفعاً أو ضرراً فإن أمري بيد الله ثم بيدي.

ويعز علـيَّ يا صاحبـي أن أقول إني أراهم عدوك ببعض ما فيهم، فما كدت ترجع إلى الجامعة حتى صببت نقمتك على الدكتور زكي مبارك تلميذك القديم الذي كان من حقك أن تفرح به ولكنك قطعت عيشه وحرمته وظيفته الصغيرة في الجامعة لأنك صرت ذا سلطان وأصبح بقاؤه وطرده في يديك، وقد كنت أصدق أنك تفعل كل شيء إلا هذا فلما كان منك ما كان مع زكي مبارك صعقت ولا أزال من هذا كالمضروب على أم رأسه لقد فجعتني ودفعتني إلى الكفر بالخير في هذه الدنيا.

---

(١) البلاغ: ٣١ ديسمبر ١٩٣٥.

Twitter: @abdulllah1994

وأقسم مرة أخرى إنك المسؤول لا مما أصاب زكي مبارك أو يصيبه فعسى أن يكون الأمر أهون مما أظن ـ بل عما أصابني أنا في نفسي من التحول وما اضطرم فيها من الثورة.

إنك إذن من أصحاب السلطان يا صاحبي ومن يملكون أن يقطعوا أرزاق العباد أو يصلوها فلست اليوم بالأديب الذي عرفته وأحببته وأجللته وحدثت الناس عن رجولته ومروءته وحسن شمائله. وإنما أنت رجل يدني ويقصي ويرزق ويحرم ويطعم العيال أو يجيعهم ويضرب اليد التي ترتفع باللقمة إلى الفم فيطيرها ويوقعها على التراب لتلتقطها الكلاب والقطط ويأباها على أخيه الإنسان. وإني لأحدث نفسي أحياناً بأنني لو كنت أقول الشعر في هذه الأيام لرثيت طه حسين فإنه يخيل إلي أنه قد مات طه الذي عرفته وأحببته وأكبرته وجاء غيره الذي أنكره.

ـ ٢ ـ

وما يكاد يظهر مقال الأستاذ إبراهيم المازني في (البلاغ) حتى تتلقفه المجامع والأندية الأدبية في مصر والعالم العربي فتعلق عليه وتختلف حوله، وما يكاد مبارك يقرؤه حتى يهلل ويكبر ويملأ الدنيا صياحاً وهرجاً وكأنه الطفل الصغير المحروم من الحنان والعطف قد وجد من يحنو عليه ويشفق. وحق له أن يفرح فلقد قاد حملته ضد طه حسين منذ قادها ضد المنصب والجاه والسلطان واللقب فلم يجد من الأدباء على وفرتهم من يقول له أين أنت؟ أو ماذا تقول إلا المازني وسلامة موسى. ومن ثم فقد كتب في (البلاغ) فرحاً شامتاً وكأنه يقول لطه حسين: والمازني أيضاً معي.

ثم هو يردد كلمة المازني ويلف ويدور حولها فيعلق على قوله وأني لأحدث نفسي أحياناً بأني لو كنت أقول الشعر لرثيت طه حسين الخ... قائلاً: فإن كان المازني يود أن ينظم قصيدة في رثاء الدكتور طه حسين فإني أولى منه في تأدية هذا الواجب فقد كان لي صديق اسمه طه حسين صاحبته عشر سنين وكان كما وصفه الأستاذ المازني حلو الشمائل دمث الطبائع ثم ضيعته الأيام.

Twitter: @abdulllah1994

وأقسم ما تذكرت طه حسين إلا تشوقت إليه فقد كان رحمه الله مثال المروءة والوفاء أما طه حسين الجديد فهو لا يرعى العهد ولا يحفظ الجميل.

وكانت كلمته هذه تحت عنوان «هل مات طه حسين؟»[1].

بدأها بقوله: شغلت الأندية الأدبية بالفصل الممتع أو الخطاب النفيس الذي وجهه الأستاذ إبراهيم المازني إلى الدكتور طه حسين، ومن النادر أن يخرج الأستاذ المازني من صومعته الساخرة بالحياة والأحياء ليكتب مثل هذا الخطاب وأغلب الظن أن الدكتور طه حسين لم يكن ينتظر ذلك الذي صب على رأسه صاحب «خيوط العنكبوت» ولكن الدكتور طه حسين يعاني في أعوامه الأخيرة أزمة روحية لم يشهد مثلها من قبل، فقد تفرق عنه أصحابه جميعاً، ولم يبق حوله غير المرائين المنافقين الذين يعز عليهم أن يتركوه للوحدة والاكتئاب.

وهو يحاول اليوم رأب ما صدعته الأثرة والغفلة من عواقب الإجحاف وسبيله إلى ذلك أن يتخذ محطة الإذاعة مطية لوصف المؤلفات الجديدة على طريقة «شوبش يا حبايب».

إنه لا يسرف في المدح حباً في تشجيع المؤلفين ولكن يريد أن يمدحهم جميعاً ليؤلف منهم جمعية أدبية يقارع بها خصمه الذي تعرفون.

... ولكن رأسه انبطح حين اصطدم بالصخرة المازنية وانكشف للناس حين أراد التقرب من صاحب «حصاد الهشيم».

ـ ٣ ـ

ويكتب المازني في البلاغ كلمة ثانية يقول فيها[2]:

«لما كتبت أعاتب الدكتور طه حسين في فصل الدكتور زكي مبارك من

(١) البلاغ: ٣ يناير ١٩٣٦.

(٢) البلاغ: ١٣ يناير ١٩٣٦.

Twitter: @abdulllah1994

الجامعة وأقول إن الدكتور طه حسين أصبح ممن يملكون إشباع البطون وإجاعتها وإنه صار يضرب اللقمة التي ترتفع بها اليد إلى الفم ويطيرها فتسقط على الأرض فيعثر بها الكلاب ويحرمها الإنسان.

لما قلت هذا لم أكن أعني أني أخشى على الدكتور زكي مبارك وأولاده الجوع من أجل أنه حرم وظيفة صغيرة في الجامعة ومعاذ الله أن يخطر لي هذا على بال لا لأن الأدباء لا يتفق أن يقدموا القوت إلى أكثر من جاع منهم في حياته، بل لأني أعلم أن الدكتور زكي مبارك رجل كفء للحياة قادر على الاضطلاع بأعبائها وأنه أذكى وأعظم رجولة من أن يبالي كيف يكسب رزقه ما دامت وسيلة الكسب مشروعة لا عيب فيها ولا دنس يعلق بها.

وقد أعجبني من الدكتور زكي مبارك قوله إنه لو خاف الجوع على عياله لشوى لحم الدكتور طه حسين وأطعم عياله. وليس الذي أعجبني أنه مستعد لشي لحم الدكتور طه، كلا، ولو أنه هم بذلك؛ لكنت أول من يقاتله عليه ويحمي طه منه وإنما الذي أعجبني هذه الفحولة الساذجة التي لم تفسدها باريس.

- ٤ -

ثم يواصل مبارك حملاته على صفحات البلاغ[1] فيقول:

١ - يا دكتور طه تذكر أن الدنيا تغرب وأن انتهاب آراء الناس لا يغني ولا يفيد. وتذكر أنك تتكلم باسم الجامعة وهي توجب على مثلك أن يدرس ويبحث ولا تقنع منه بالطواف حول ما كتب الناقدون عن المتنبـي.

لقد أثبت آراء الباحثين المصريين وسطوت على آراء المستشرقين ثم مضيت في تعثر واضطراب لا يلقيان ممن يفهم الكلام عن المتنبـي أي تقدير.

(١) البلاغ: مقتطفات من الأعداد ١٤ مارس، ٥ يونيه، ١٢ يونيه ١٩٣٦.

Twitter: @abdulllah1994

٢ ــ إنما نشاغب عمداً لننبه الغافلين من أدعياء البيان ــ وأنا أسعى إلى غرض وهو شغل الناس بالأدب وجعل الأفكار الأدبية والاجتماعية والفلسفية ضرورة عقلية لا يستغني عنها أحد من المثقفين.

إن شهـرة كتابنا لا ترجع في الأغلب إلى الناحية العقلية وإنما ترجع إلى ما يتصل بها من الأحداث السياسية وكذلك نهضة الأدب متصلة بالنهضـة السياسية أوثق اتصال.

أنا لا يرضيني الإنصاف، لأن الظلم هو الذي أشعل قريحتي ولو كنت لقيت العدل في حياتي لعشت منزوياً في كلية الآداب أحقق الخلاف بين ابن جني وابن خروف.

٣ ــ إن ما بيني وبين الدكتور طه لا يصرفني عن التنويه بكتاب «على هامش السيرة» هذا الكتاب النفيس. فإنني أحب أعدائي وأتمنى لهم طيب الأحدوثة وبعد الصيت.

٤ ــ هاجم زكي مبارك مؤلفي كتاب المجمل: وقال الدكتور طه حسين لا يعرف عقلية التلاميذ في المدارس الثانوية، وإن عمله في التدريس لا يزيد عن إلقاء محاضرات في كلية الآداب، أما أحمد الاسكندري فهو باحث مفضال ولكن ترك المدارس الثانوية منذ ثلاثين عاماً، أما عبدالعزيز البشري فهو كاتب بليغ ولكن لم يدخل في حياته مدرسة أميرية ولا يعرف كيف يخاطب التلاميذ. وأحمد ضيف لم يشتغل بالتدريس في غير الجامعة ودار العلوم. وأحمد أمين لا يعرف المدارس الثانوية إلا بمقدار ما يعرفها عبدالعزيز البشري، وعلي الجارم أديب وشاعر ولكن صلته بالتعليم الثانوي وقفت عند التفتيش والمفتش يتوهم أنه يعرف المدارس.

ونهي حملة البلاغ الثانية عام ١٩٣٦ لتتوقف الخصومة مدة من الزمان إلى أن يعاود الدكتور مبارك في مطلع الأربعينيات إشعالها من جديد.

Twitter: @abdulllah1994

حملة مجلة الرسالة:

- ١ -

يبدأ (مبارك) حملة الرسالة سنة ١٩٤٠ بتوجيه خطاب إلى طه حسين يؤجج به المعركة من جديد فيقول[١]: يظهر أن المقادير لا تريد أن أسكت عنك أو تسكت عني وفي ذلك الخير كل الخير لو تعرف وأعرف، وهل ارتفع العقل إلا بفضل الخلاف؟ وهل تصور الناس وجوداً للحيوية التشريعية لو لم يثر الخلاف بين الشافعية والحنفية؟ وهل تأصلت مشكلات النحو والصرف إلا بفضل الجدال بين البصريين والكوفيين؟ وهل تفوق العقل المصري في العصر الحديث إلا بسبب النزاع حول القديم والجديد والصراع حول المذاهب الاجتماعية والأحزاب السياسية؟

إن بداوة الطبع التي كثر الكلام في ذمها وتجريحها لم تكن من المثالب إلا في كلام الشعوبية وهم قوم أرادوا الغض من شمائل العربية، ولولا ذلك الهجوم لبقيت من المحايدين، فكيف تنكر على رجل مثلي أن يظل بدوي الطبع في زمن توارت فيه الصراحة وكثر فيه تنميق الأحاديث. لا بد من الخلاف بيني وبينك لتجد الأبحاث الأدبية والفلسفية وقوداً يحيا به اللهب المقدس في حياة العقل والوجدان.

فإن ضاق صدرك بهذه الحقيقة اكتفيت بمحاورة الرجل اللطيف الذي يقول إن الصحراء تشكو الظمأ وإن البحر يشكو الري وإن الخير في امتزاج البحر بالصحراء إن كان ذلك ما يرضيك فشرق في محاورته وغرب كيف شئت وكيف شاء. ثم يعدد أسباب الخصومة بينه وبين الدكتور طه حسين[٢] فيرجعها إلى جملة أسباب من بينها.

١ ـ ما كتبه زكي مبارك في جريدة البلاغ تحت عنوان «الدكتور طه حسين يغلط خمس مرات فقط في محاضرة واحدة»[٣].

---

(١) الرسالة ٢ فبراير ١٩٤٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) يراجع ذلك في موضعه الذي أشرنا إليه آنفاً (ص ١١٦).

Twitter: @abdulllah1994

٢ ـ ما حدث في صيف ١٩٢٩ ويوجزه مبارك قائلاً: أنكرت عليّ أن أتخذ شواهد لتطوير النثر الفني من رسائل عبدالحميد بن يـحي وقلت إنـه شخصية خرافية كشخصية امرىء القيس وكان ذلك بمسمع من شابين واعيين هما محمد مندور وعلي حافظ وكانت حجتك أن عبدالحميد بن يـحي لم يرد اسمه في مؤلفات الجاحظ، فرجعت إليك بعد أيام وأخبرتك أن الجاحظ تكلم عن عبدالحميد بن يـحي مرات كثيرة.

وأن مؤلفات الجاحظ تعرف رجلين أحدهما عبدالحميد الأكبر والثـاني عبدالحميد الأصغر فلم تجب بحرف واحد.

ثم ألقيت وأنا في باريس محاضرة قلت فيها: إن عبدالحميد بن يـحي أخذ أشياء من أدب اليونان وفاتك أن تنص على اسم الرجل الذي أقنعك بأنه لم يكن شخصية خرافية.

وقد حملني العفريت الذي يحتل رأسي حين أخلو إلى قلمي على أن أسجل هذه القصة في أحد هوامش كتاب النثر الفني فكانت فرصة أغتنمها صديقك الأستاذ أحمد أمين ليقول في مقال كتبه في مجلة الرسالة: إن زكي مبارك يعوزه الذوق في بعض الأحيان.

٣ ـ ثم يشير إلى حادثة إسقاطه في الليسانس بالجامعة المصرية.

٤ ـ ثم يروي ما وقع في نوفمبر سنة ١٩١٩ من أن الدكتور طه احتاج إلى من يقرأ له نصاً بالفرنسية فقرأه له مبارك فسر به وقال إنه سعيد حينما يجد بين طلاب الجامعة المصرية من يفهم أسرار اللغة الفرنسية ثم يخاطبه قائلاً: إن الشاب العربـي الذي أدخل السرور على قلبك سنة ١٩١٩ هو الكهل الذي تنكره سنة ١٩٤٠ ثم يخاطبه قائلاً: أنا أعرف ما تكره مني أنـت تكره مني الكبرياء. وكيف أتواضع وقد أعانني الله على بناء نفسي؟ وكيف وقد أقمت الدليل على أن الشباب المصري خليق بعظمة الاعتماد على النفس؟

وهـل رأيت رجلاً قبلي أتم دراسته في أوروبا وهو مثقل بتكاليف الأهل والأبناء؟

Twitter: @abdulllah1994

هل رأيت رجلاً قبلي يهتز بأطوار الشباب وهو ثخن بجراح الزمان بعد الأربعين؟

وهل رأيت رجلاً قبلي يؤلف الكتب الجيدة في البواخر والقطارات والسيارات؟ ومن يصدق أنني أنفق في سبيل الورق والمداد أضعاف ما ينفق بعض الناس في سبيل الطعام والشراب؟

- ٣ -

ثم يواصل زكي مبارك حملة الرسالة[1] فينشر مقالاً بعنوان: «أحمد الله إليك» يورد فيه خطاباً يزعم أنه ورد إليه وهو في باريس من الدكتور طه حسين وبذلك يكشف وثيقة جديدة في القضية التي يريد أن تنتهي – يقول:

في شهر يوليو ١٩٢٨ تلقيت وأنا في باريس خطاباً من الدكتور طه حسين جاءت فيه عبارة «أحمد الله إليك» فالتفت ذهني إلى هذه العبارة لأنها لم تكن من العبارات المألوفة في رسائله إليَّ.

وصح عندي بعد التأمل أن الدكتور طه قد يكون مشغولاً بمراجعات متصلة بالسيرة النبوية لأن عبارة «أحمد الله إليك» تكثر في الرسائل المأثورة عن عصر النبوة وعصر الخلفاء.

وبعد أعوام أخرج الدكتور طه كتابه «على هامش السيرة» فكتبت في جريدة البلاغ أن الدكتور طه يجيد أعظم الإجادة حين يتروى في التأليف وكتابه الجديد أثر من آثاره الجيدة فهو مشغول بموضوعه سنة ١٩٢٨ وإن لم يقل ذلك فقد كتب إلي خطاباً في يوليو من تلك السنة يقول «أحمد الله إليك» قال الدكتور طه إنه اختراع من اختراعات زكي مبارك في الأسماء والأحاديث وهذا نص الخطاب كما رواه زكي مبارك.

«أحمد الله إليك على ما أنت فيه من رضا بالإقامة في باريس وأتمنى لك

(١) الرسالة: ١٥ يوليو ١٩٤٠.

Twitter: @abdulllah1994

المزيد من هذا الرضا كما أتمنى أن تنتفع بأيامك في فرنسا إلى أبعد حد ممكن وتقبل من السيدة ومني تحية خالصة وشكراً جميلاً».

وسرد زكي مبارك نص خطاب آخر وجده في أوراقه جاء فيه: «. . . وكل ما أرجوه لك أن تصدر فيما تكتبه عن الحرية الصادقة القاسية لا عن الإخاء والمودة اللذين يدفعان في كثير من الأحيان إلى شيء من الرفق الذي لا يخلو من إثم. وأنا أعيذ أصدقائي من أن يتورطوا من أجلي في إثم الإسراف في البر كما أكره أن يتورطوا في إثم العقوق».

وتاريخ هذا الخطاب أغسطس ١٩٢٥.

فإن يقل: وكيف أمكن بعد ذلك الوداد الوثيق أن تفسد العلائق بيني وبين الدكتور طه حسين فإني أجيب بأن لله حكمة فيما وقع بيني وبين الصديق.

لم يكن لي بد من خصومة اتخذ منها فرصة لتوجيه الجمهور إلى الحقائق الأدبية وكذلك خاصمت عدداً من رجال الأدب كان أظهرهم الدكتور طه حسين.

ـ ٤ ـ

ويتابع الدكتور مبارك نقد كتب طه حسين التي تظهر، وهذه مقتطفات مما كتب في الرسالة:

١ ـ الأيام[١].

هذا الرجل موهوب بلا جدال ولكنه قليل الصبر على تكاليف المواهب فهو يسطع في اللمحة الأولى ثم يجنح إلى الأفول. ويقول:

أخرج الجزء الأول من الأيام فكاد يكون أعجوبته ثم فتر في الجزء الثاني.

٢ ـ ثم يقول: «الحب الضائع»[٢] والكتاب ليس بجديد لا في الروح

---

(١) الرسالة: ١٦ ديسمبر ١٩٤٠.

(٢) الرسالة: ٨ يونيه ١٩٤٠.

Twitter: @abdulllah1994

ولا في الأسلوب فله أمثال تعد بالعشرات وبالمئات، ومع ذلك فلن يقـول الفرنسيون حين يترجم الكتاب هذه بضاعتنا ردت إلينا لأن طه حسين حين يقتبس لا يفوته أن يضفي ثوب الابتكار على الاقتباس.

ـ ٥ ـ

طه حسين وإمارة الشعر[١]:

إن الدكتور طه حسين (مسيو) بالفعل فلغته ولغة زوجته وأبنائه هي اللغة الفرنسية ولكنه برغم ذلك من أعاظم الرجال في اللغة والدين. ولو كان الأمر بيدي لقتلت الدكتور طه حسين ولو كان الأمر بيده لقتلني. فقد تحاربنا سنين.

أردت أن أقتله فما استطعت وأراد أن يقتلني فما استطاع، نحن يا سيدي الدكتور لم نخلق للموت وإنما خلقنا للحياة وللمجد، فمن واجبك أن تكف شرك عني لأكف شري عنك وأنا على الشر أقدر منك. أشرت أن إمارة الشعر قد انتقلت إلى العراق أخطأت يا سيدي الدكتور إن الشعر لمصر حتى آخر الزمان أنت نفسك حاولت أن تكفر عن ذنبك فخلعت إمارة الشعر على الأستاذ العقاد وهو أديب فاضل بدليل أنك أهديت أحد كتبك إليه، ولكنه شاعر صغير بالقياس إلى العبقرية المصرية.

العقاد في الشعر كالزيات في النثر كلاهما يأخذ قوته من الانفعال وهذا لا يمنع من الاعتراف بأنهما أديا خدمات عظيمة للحياة الأدبية.

ـ ٦ ـ

ثم يجري وراء الدكتور طه بنبوت وحجر، حينما يصرح بأن إمارة الشعر انتقلت إلى العراق وكان قبل ذلك قد نصب العقاد أميراً لها في مصر.

يقول في مجلة الهلال تحت عنوان «عدوى طه حسين»[٢].

---

(١) الرسالة: أول ديسمبر ١٩٤١.

(٢) نقلاً عن أنور الجندي في كتاب المعارك الأدبية ص ٧٠٩ «مصدر سابق».

Twitter: @abdulllah1994

١ ــ إنه عدو عزيز؛ إي والله، فما أذكر أني عاديت إنساناً أحبه قبل الدكتور طه حسين، والعداوة والحب يجتمعان في القلب والوجد، وإن عجب من ذلك من لا يفهمون، وآية الصدق في هذه القضية أني لم أتورط في عداوة الدكتور طه حسين إلا منذ أشفقت عليه: فقد ابتدأ هذا الرجل حياته الأدبية بداية حسنة، ولكنه لم يستطع الصبر على مكاره الجد، ولم تقو نفسه على معالجة البحث العميق وعندئذ عرفت أن الرجل سيضيع نصيبه من الخلود، وعز علي ذلك فأردت أن يبقى اسمه في الدنيا بعد أن تبيد ملايين الأسماء ولا يبقى إلا من أشار إليهم صاحب النثر الفني.

وكان الدكتور طه في بداية هذه العداوة يظنها جمرة سريعة الخمود ولكنها تضرمت، واستطارت أقباسها في الشرق والغرب، ولم يبق إنسان يقرأ ويفهم إلا عرف أن في الدنيا رجلاً اسمه طه حسين وصار لا يدخل في حفل، ولا يتكلم في مجتمع ولا ينشر مقالاً في جريدة إلا قال الناس: هذا الرجل الذي رأينا اسمه في مؤلفات زكي مبارك.

الدكتور طه رجل فيه شيء من الذكاء، وقد هداه ذكاؤه إلى هذه الحقيقة فاندفع يعاديني بلا ترفق ليتم له من نباهة الذكر ما يريد.

٢ ــ ولكن للشخصية العلمية شيئاً غير ذلك، فالدكتور طه الذي يضر وينفع ويبرم وينقض، ويحدث فيحسن الحديث، هذا الرجل قد انهزم في الميادين العلمية، ولم يظفر من المجد الأدبي بأيسر نصيب... وأعيذكم بأنه ألف أقصوصة اسمها «الأيام» نشرها الهلال ثم ترجمت إلى الإنجليزية والروسية، فإن تأليف الأقاصيص ليس من الفنون العالية، وإنما هو فن يمثل سذاجة الإنسان الأول يوم كان يملأ الدنيا أساطير وأحاديث. وهل رأيتم في الدنيا كلها رجلاً يرأس كلية آداب، ثم يقف مجده عند الأقاصيص؟

انظروا ما وقع للدكتور طه يوم قرر المشاركة في تأليف كتاب فجر الإسلام، فقد كانت النية أن يؤلف من الناحية الأدبية أتعرفون ما وقع؟

Twitter: @abdullllah1994

كانت النتيجة أن نشر أحمد أمين أربعة مجلدات وطه حسين ساكت يترقب.

وكيف تفسرون ذلك السكوت؟ إن تفسيره سهل: وهو يتلخص في أن طه حسين لا يحسن الكتابة العلمية وإنما يحسن تلخيص الأقاصيص. وهناك جانب آخر من ضعف هذا الرجل وهو حرمانه من حاسة العدل فما أعرف أن هذا الرجل استطاع أن يقهر أهواءه وهو يعامل الناس، وقد اتفق له أن يصطنع النقد الأدبي حيناً من الزمان، فكانت أحكامه كلها وليدة الهوى والغرض ولم يستطع أن يكشف الناس عن موهبة مستورة أو نبوغ مكنون.

لو سئل طه حسين عما صنع في النقد الأدبي لعجز عن الجواب. وهل من النزاهة أن يقصر محاضراته في الراديو على ما أخرجته لجنة النشر والتأليف؟

إن طه حسين تسامى إلى منزلة أدبية عالية يوم سعى إلى الظفر بعمادة كلية الآداب، ولكن هل استطاع أن يخلق لتلك الكلية نصراً واحداً؟

هل استطاع أن يخرج من عمره كله بكتاب جيد يضيفه إلى منازل الباحثين من عمداء الكليات؟

وليته اكتفى بهذه المزايا العظيمة من الضعف؟ بل رأيناه يتكلم عن البحتري فيقع في أغلاط، فلما نبهناه أصر واستكبر ونشر المحاضرات في كتاب، وشكل الأغلاط ليدلنا على أنه لا يهتم بالنقد، ولا يحسب للحق أي حساب.

وقد ظن من لا يفهمون أننا نعني شخصه حين نجادله، وهيهات أن يكون الأمر كذلك، إنما يهمنا أن نحاسب من يشغل أكبر المناصب الأدبية حين يسيطر على كلية الآداب، ولا يرضينا من عمادة مثل هذا الرجل إلا أن يكون باحثاً نرى في وجهه وجه (بردنرودي لاكروا) من الذين تولوا كلية الآداب في جامعة باريس.

Twitter: @abdulllah1994

نحن قوم غلبتنا الأقدار في ميادين السياسة، فمن العيب أن نرضى مثل ذلك الحظ في الميادين العلمية، وإذا قيل إن الانجليز غلبونا في السياسة فلا يصح أن يقال أن العجز غلبنا في العلوم والآداب.

وتتواصل الحملة العنيفة من جانب واحد فقد سكت الدكتور طه كما أسلفنا بينما ازداد حنق مبارك لهذا السكوت فهو يضرب ويضرب وهو يشقق القضية ويؤججها ويشعل نارها كلما همدت جذوتها ونستطيع الزعم أن المعركة امتدت إلى نهاية حياة مبارك ولم يثنه عما شرع فيه وألزم نفسه به من الهجوم على طه حسين وتصيد أخطائه أن يعيده طه حسين حينما كان وزيراً للمعارف إلى وزارة المعارف وكأنه يكفر عن ذنب قديم وعطف جديد ولكن هيهات لقد بلغ السيل الزبى وتجاوز الحزام الطبين كما يقولون.

وإن كان ولا بد من إضافة تعليق أخير حول هذه المعركة الضخمة والتي لا يكاد يعرف تاريخ الأدب المعاصر أضخم منها كما يؤكد ذلك أنور الجندي[1] فلا مناص من أن نشير إلى جملة حقائق من بينها.

(أ) إن هذه المعركة لم تكن ذاتية خالصة، كما أنها لم تكن موضوعية خالصة وإنما هي عوان بين ذلك أو لنقل بمعنى أدق إنها جمعت من الخصومة الموضوعية والخصومة الذاتية وإن كانت إلى جانب النزاع الشخصي أميل.

(ب) عني مبارك ــ عرضاً لا أصلاً ــ بتصحيح بعض المفاهيم المغلوطة التي تورط فيها طه حسين فانتفع بذلك القراء المتابعون والدارسون المتخصصون.

(ج) أما القول بأن الحملة على زكي مبارك كانت مدبرة سلفاً وأن طائفة من المستشرقين هم الذين وجهوا طه حسين إلى أن يفعل ما فعل من نفي مبارك، وإقصائه عن الجامعة ثم عن وزارة المعارف وأن السبب في ذلك هو

---

(١) نختلف مع الأستاذ أنور الجندي في هذا التصور لأن ما أثير حول كتاب «الشعر الجاهلي» لطه حسين يعد في الأعراف الأدبية أضخم بكثير من هذه المعركة (الأحادية الجانب).

Twitter: @abdulllah1994

ما لحق آراء المستشرقين من نقد وتشويه وتعرية على يد مبارك فلا شك أن هذا الزعم يحتاج إلى وثائق.. كما يحتاج إلى أدلة وبراهين تثبت هذا الزعم فالقول القائم على غير أدلة واضحة لا يمكن أن يلحق بمصاف الحقائق العلمية الثابتة.

(د) سيظل تاريخ الأدب العربي يحتفظ في أرشيفه أو في ذاكرته بهذه المعركة كشاهد على بغي بعض الأدباء على بعضهم الآخر مما جعل معظم القراء يتعاطفون مع مبارك ضد طه حسين وبالذات عندما روج الكثير من المفاهيم المهتزة في رؤية المحافظين على قيم التراث وأصالة الحضارة والثقافة (الإسلامية)(*).

□ □ □

(*) يمكن الرجوع إلى نصوص هذه المعركة فيما يلي:
١ ـ جريدة البلاغ: مجلدات ١٩٣٤، ١٩٣٥، ١٩٣٦ والبلاغ الأسبوعي ١٩٢٦.
٢ ـ الصباح: الأعداد في الفترة من ٢٣ أغسطس ١٩٣٥ حتى ١٧ يناير ١٩٣٦.
٣ ـ مجلدات: ١٩٣٤، ١٩٤٠، ١٩٤١، ١٩٤٢، ١٩٤٣ من الرسالة.
٤ ـ بعض مؤلفات الدكتور زكي مبارك مثل مقدمة النثر الفني.. ومقدمة التصوف الإسلامي والأسمار والأحاديث، والبدائع... الخ.

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdullllah1994

معركة الصفاء بين الأدباء

تمهيـــد:

حينما انتشرت وشاعت الخصومات الأدبية والشخصية بين الأدباء إبان عام ١٩٤١ وما قبله استرعى ذلك انتباه الأستاذ توفيق الحكيم فكتب كلمة في الرسالة[1] دعا فيها إلى إجراء صلح سلمي بين الأدباء. وكأن الحكيم نسي أو تناسى أن أصحاب الصحف على اختلاف ألوانها واتجاهاتها هم مـؤججو هذه المعارك وهم مشعلوها لأن الفائدة المادية ستعود عليهم وعلى صحفهم بالرواج والربح فلو أنصف النداء إليهم فالأمر بيدهم إن شاؤوا أوقفوا الحرب وإن شاؤوا أشعلوها.

ومن ثم فقد أثارت دعوة الأستاذ الحكيم صراعاً وسجالاً دام مداهما مدة من الزمن وكأنها كانت دعوة للحرب وليست دعوة للسلام ولقد كان لزكي مبارك ــ النصيب الأوفر في إشعال هذه الخصومة حينما هيىء له أن توفيقاً يقصده بهذه الكلمة ويعجب الحكيم من مبارك ويكتب في الرسالة كلمة ثانية يقول فيها إنه لم يقصد بكلمته الأولى أديباً بعينه وإنما هي كلمة عامة للنفع العام. ثم كشف عن حقيقة الأمر فقال: إن الذي أوحى إليه بها هو مقال الأستاذ العقاد الذي يشكر فيه طه حسين إهداءه (دعاء الكروان) إليه وقال: وفي الحق أني لم أجد بالمقال الرقة التي كنت أنتظرها واستاءت نفسي من الأستاذ العقاد بعض الاستياء وأنا الذي أعتقد أنه يخفي وراء قناع الكبر والتكبر نفساً طيبة تتفجر إذا اطمأنت بأجمل عاطفة وأنبل إحساس.

---

(١) الرسالة: ٢ مارس ١٩٤٢.

Twitter: @abdulllah1994

واتسع نطاق المعركة فدخل العقاد بسخريته المعروفة وقال: إن الأستاذ الحكيم تناوله بما لا يحسن السكوت عليه وهو في قبضة الأديب الفلاح الدكتور زكي مبارك ويرد الأستاذ الحكيم قائلاً: من كان يتصور أن دعوتي إلى الصفاء بين الأدباء تثير خصومات أو ذكريات عن خصومات[1]. ثم وجه الخطاب إلى الأستاذ العقاد قائلاً: إنك للمرة الأولى تخاطبني بهذه اللهجة التي كنت تخاطب بها الرافعي رحمه الله.

أبهذه السرعة تضع الناس في صف أعدائك لعلك لفرط ما قاسيت من شر الناس ولقلة ما وجدت من خيرهم أصبحت مثل (هملت) تستل سيفك لتضرب من خلف الأستاذ دون تبين الوجوه فضربت صديقاً وأنت لا تدري.

ويرد العقاد بالرسالة ذاكراً أن الصفاء الذي أراده الأستاذ الحكيم بين الأدباء غير متيسر وأن ثلاث (لاءات) مضخمات هي أصدق جواب على ذلك.

فالصفاء بين جميع الأدباء معناه الصفاء بين جميع الناس وليس هذا بميسور ولا هو بلازم للأدب والأدباء. ويعقب الأستاذ العقاد على الأستاذ الحكيم فيسأل قائلاً:

إن الذي يطلب الصفاء لا يبحث عن أسباب الكدر بملقاط يخلقها خلقاً بين رجلين هما على أحسن ما يكون الصفاء.

وينبري الأستاذ الحكيم وكأنه دفع إلى المعركة دفعاً فيرد على الأستاذ العقاد في الرسالة تحت عنوان «في الصفاء أيضاً» يقول فيه ولكني الآن وقد وضعت بين تهمتين:

الزلفى ونكران الجميل فإني أوثر التهمة الأولى ويذكر أنه كان من رجال القضاء المحترمين ولم يكن في حاجة إلى الشهرة وينهي مقاله بقوله: «ما قيمة الشهرة بغير سعادة وما قيمة الأدب والفن بغير هناء»؟

---

(١) وكان الأستاذ العقاد قد أشار في مقاله إلى تلك الخصومة المشهورة بين طه حسين والحكيم بسبب شهـرزاد ورد الحكيم في مقاله الثاني بالرسالة شارحاً ظروف تلك المعركة عاتباً على العقاد.

Twitter: @abdulllah1994

ويتلقف القفاز ــ فارسنا المغوار ــ ليضرب ضربته التي يؤجج بها المعركة مرة أخرى بعد أن أوشكت على الخمود فيكتب مقالاً في الرسالة بعنوان «أحزان الحكيم» يعرج فيـه على طه حسين فينتقم منه انتقامه «التقليدي». ثم يأخذ الأستاذ الحكيم في قبضته فيلوح بها في الهواء قائلاً: لو كان بيدي شيء من النفوذ لقضيت بنفي توفيق إلى جزيرة (واق الواق) ليعرف أبناؤنا وتلاميذنا أن للأدب سيطرة سماوية تبغض التأدب مع غير صاحب السماء.

ويقول في هذا المقال «أنت في جماعتنا دخيل يا توفيق لأنك تقدم علينا رجال القضاء ولأنك تتهيب أصحاب النفوذ» (يقصد طه حسين).

ويتملك الحزن ــ فعلاً ــ الأستاذ الحكيم فيكتب في الرسالة عاتباً على الزيات الذي فتح صدر رسالته لما ليس من رسالتها ويهدد بهجر الرسالة وهجر الأدباء جميعاً فلن يذكرهم بخير أو بشر وإنما سينصرف إلى الإنتاج وحده من حيث هو إنتاج فقد يئس مما دعا إليه.

وأخيراً يتحرك قلم الزيات بعد مرور شهور من تأجج نيران معـركة راجت في أثنائها الرسالة رواجاً هائلاً فمن القراء من ترضيه هذه «المساجلات» الأدبية الحريفة والتي تثير أحياناً من القضايا ما هو أدسم وأهم.

وكانت كلمة الزيات التي خاطب بها الحكيم بمثابة إعلان فض المناقشة التي طالت فاعتذر للحكيم وعاتبه عتاباً رقيقاً اتسم به قلم الزيات. واعتذر عن زكي مبارك وقال طالما نهيته فلم ينته فماذا أفعل معه ثم شهد له (أعني مبارك) بسلامة الصدر وحرارة القلب ورياضة الروح. ورجا الأستاذ الحكيم أن يؤمن برسالته كما آمن ذوو الفضل من الكتاب وأن يصبر عليها كما صبر أولـو العزم من الرسل.

ويحسن بنا الآن ــ كدأبنا أن نترك النصوص تتحدث عن ملامح المعركة وسنغض النظر عن مناقشات العقاد ورد الحكيم عليها فلذلك موضعه. وقد لخصنا ما جاء فيها.

Twitter: @abdulllah1994

نصوص المعركة:

ـ ١ ـ

كتب توفيق الحكيم في مجلة الرسالة[1] تحت عنوان «تواضع الأديب الحق» فقال:

«مما يسترعي الالتفات أحياناً تلك اللغة التي يخاطب بها بعض الأدباء زملاءهم فتراهم يقولون «زميلنا أو صديقنا فلان يطلب إلينا كذا ونحن نقول له كذا والأجدر أن يسألنا كذا، إلى آخر هذا الكبر والتكبر في التعبير».

هؤلاء نسوا من غير شك أن تكبر الأديب الحق وتعاليه هو الفكر والتفكير لا في مخاطبة الآخرين: إني أرى شعار الأديب الحق هو (تواضع في معاملة الناس وتعال في معالجة الأفكار) لقد آن الأوان لأذكياء الشعراء أن يقفوا بالمرصاد لكل أديب يحاول أن يتعاظم بالحط من قدر غيره وأن يرفع قدر نفسه بوسائل لا تتصل بجوهر الرسالة العليا للفكر والأدب. حدث ذات مرة أن تفضل أحدهم فذكرني بقوله: صديقنا فلان فتساءلت أهو يريد أن يشرفني بصداقته أم يشرف نفسه بتعظيمها على حسابي يقولون أن الذوق شيء ليس في الكتب، ولكني أقول أن الذوق شيء ينبغي أن يكون في طبيعة كل كاتب.

ـ ٢ ـ

الدكتور زكي مبارك يرد على الأستاذ توفيق الحكيم في الرسالة[2] تحت عنوان «من زكي مبارك إلى توفيق الحكيم» فقال:

صديقي العزيز:

قرأت لك في الرسالة منذ أسابيع كلمة صغيرة تذكر فيها أن في مصر كاتباً قال في سياق حديثه إنه صديقك. وإنك تنكر أن يشرف الناس أنفسهم بالانتساب إليك.

---

(١) الرسالة: ٢ مارس ١٩٤٢م.

(٢) الرسالة: ١٣ أبريل ١٩٤٢.

Twitter: @abdulllah1994

ولم يخطر في البال أني مقصود بتلك الغمزة. لأني أعرف أن منزلتي في نفسك لا تبيح لك أن تقع في مثل هذا الخطأ ولكن ناساً حدثوني أنك تريدني بتلك الكلمة الصغيرة وقد أردت أن أستوثق من نيتك فكان جوابك أن تلك الغمزة موجهة إلى فلان فهل أجد عندك من الشجاعة ما تقوى به على التصريح باسم ذلك الفلان أوضح . . أوضح فإن لم تفعل فسأنوب عنك في الإيضاح، صنع الزمن ما صنع واستطال الدهر فمن يغريني وقد استباح بعض الناس أن يكتب كلمة توهم أنه أكبر من أن يكون صديقي.

ـ ٣ ـ

ويرد الأستاذ الحكيم[1] قائلاً تحت عنوان «الصفاء بين الأدباء» «كنت قد نشرت في الرسالة كلمة. وظاهر من روح هذه الكلمة أني أحض على توثيق صلات المودة الصادقة بين الأدباء بدعوتهم إلى نبذ الألفاظ التي قد تحدث في نفوس زملائهم شيئاً من الامتعاض ولكن الدكتور زكي مبارك فهم الأمر على وجه آخر».

إنما هي كلمة عامة للنفع العام ولئن كان لا بد من مناسبة أوحت بهذه الكلمة فربما كانت مقالة الأستاذ عباس العقاد التي يشكر فيها الدكتور طه إهداءه إليه «دعاء الكروان».

وفي الحق أني لم أجد بالمقال الرقة التي كنت أنتظرها واستأت في نفسي من الأستاذ العقاد بعض الاستياء. وأنا الذي يعتقد دائمًا أنه يخفي وراء قناع الكبر والتكبر نفساً طيبة تتفجر إذا اطمأنت بأجمل عاطفة وأنبل إحساس. فالذي يستطيع التأثير في نفوسنا بكتاباته الإنسانية عن «الكلب بيجو» لا بد أن يحمل نفساً خليقة أن تفيض بالمودة نحو إنسان تلك هي المناسبة يا دكتور زكي، ولكنك شئت أن تحمل الكلمة على أنها غمزة مني لك وأنا أبعد الناس عن الغمزات خصوصاً إذا تعلق الأمر بشخص فأنا لم أنشر قط يوماً كلمة تعمدت بها إيذاء أديب في شعوره.

---

(١) الرسالة : ٢٠ أبريل ١٩٤٢.

Twitter: @abdulllah1994

أنا الذي يجـرؤ على مهاجمة المبادىء والنظم إلى حد التعرض للخطر لا أجد من اللائق بأديب أن يهاجم أديباً ليخدشه في كرامته. لأن الأدب قبل كل شيء مودة ومحبة وصفاء، على هذا الوجه فهمت دائمًا الأدب فالأدب هو صنع الجمال. وعلى الذين يصنعون الجمال أن ينطووا على نفوس جميلة، وأنا الذي لا يختلط بالناس والأدباء إلا قليلاً لما في طبيعتي من وحشة وكآبة أشكو منها، تجدني مع ذلك أحب الأدباء وأقدرهم ولا أقول فيهم قولة سوء غير أني أيها الصديق العزيز وأنت تأخذ كلمتي على أنها موجهة إليك قد ذكرت لي أسباب ظنك فتحريتها بعد انصرافك فاتضح لي أنك على حق وأن الكلمة ينبغي أيضاً أن تنصرف إليك فقد تستعمل أداة التعظيم في مخاطبة الزملاء من الأدباء فماذا يضجرك أن أشكو منك ومن كل أديب يسهو من واجبات التواضع والمودة والمحبة التي تؤلف بين نفوس الأدباء جميعاً وتجعل منهم دولة متحدة مقرها حديقة الصفاء الغناء.

وليسمح لي الدكتور بأن أوجه إليه كلاماً وجهته إلى الأستاذ أحمد أمين منذ ستة أعوام فقد تثمر بهمته ما فيه من فكرة خيرة. لقد قلت وقتئذ: لا شيء في الوجود أقوى من الابتسامة ولكن من ذا الذي أعطى القدرة على الابتسام الصافي الجميل في كل موقف وفي كل حين، أهو الجبار وحده؟! ألا ترى معي أن الجبروت إنما هو الصفاء... «إذا أردت أن تسلك طريق الصفاء الدائم؛ فابتسم للقدر إذا بطش بك ولا تبطش بأحد» تلك الكلمة لعمر الخيام فإن كنت في رأي من هذا فإن لي عندك حاجة «أن تنثر معي تلك الابتسامة بين الأدباء فإن الأدب شيء جميل» هو جنة لا صخب فيها وهو معبد لا تدخله الأحقاد. وإن أعجب ظاهرة في أدبنا أنه لا توجد فيه صداقات عظيمة جديرة بأن يتحدث عنها تاريخ الأدب ما الذي يعوزنا نحن؛ أهو شيء في الخلق أم ضعف في النفس أم هو نقص في الصحافة؟ لست أعلم.

ـ ٤ ـ

وبعد مناورات طويلة بين الأستاذ العقاد والحكيم تهدأ المعركة ولكن ذلك

Twitter: @abdulllah1994

لا يرضي زكي مبارك فيثير غبار المعركة من جديد فيكتب في الرسالة[1] مقالاً تحت عنوان «أحزان توفيق الحكيم» يقول فيه «لم أكن أنتظر أن يكون عتبي على الأستاذ توفيق الحكيم فرصة مجادلات ومساجلات يجري بها قلمه مع الكاتبين العظيمين عباس العقاد وطه حسين.

يظهر أن أحزان توفيق الحكيم لن تنجيه من (الوقوع في قبضة الأديب الفلاح) فأسمعه اليوم كلاماً يسره في حين ويحزنه في أحيان وفقاً لحالته النفسية.

دار الأستاذ الحكيم في رده على الأستاذ العقاد حول (نفوذ) الدكتور طه حسين فماذا يريد أن يقول؟. هل يتوهم أن نفوذ الدكتور طه تميمة تعيذه شر أقلامنا إذا رأيناه انحرف؟ وما احتياجنا إلى نفوذ طه حسين ونحن نعرف أن ذلك النفوذ بلاء عليه، يستطيع الدكتور طه بكفايته العلمية أن يكون أكبر موظف في الحكومة المصرية ولكنه لا يستطيع الزعم بأن سلطان القلم يفوقه أي سلطان.

الدكتور طه رجل ضرَّار نفاع، ولكن من العيب على حامل القلم أن يرجوه أو يخشاه. فما هذا الذي تقوله يا عم توفيق... صديقنا توفيق يتألم ويتوجع لأن شهرته الأدبية أبعدته عن الانخراط في سلك القضاء فما معنى هذا؟ معناه أن الرجل يعيش بين رجال الأدب عيش الغرباء وإلا فهل يجوز لكاتب له عقيدة أدبية أن يتوهم أن في الدنيا حظاً أعظم من حظ أرباب الأقلام؟

وصديقنا توفيق الحكيم يقول بعبارة صريحة أنه لا يجد أسرة تعطف عليه فتزوجه بنية يسكن إليها وتسكن إليه لأن الشهرة الأدبية أضافته إلى المشبوهين.

غضبة الأدب عليك يا توفيق فما أوذي الأدب بأقبح ولا أشنع ولا أفظع مما جرى به قلمك الأهوج.

أيهون الأدب على أهله إلى هذا الحد من الهوان البغيض؟.

أيكون نفوذ طه حسين شيئاً يخاف فتحبر فيه المقالات الطوال العراض، آه ثم آه.

---

(١) الرسالة: ١٥ يونيه ١٩٤٢.

Twitter: @abdulllah1994

لو كان بيدي شيء من النفوذ لقضيت بنفي توفيق إلى جزيرة (واق الواق) ليعرف أبناؤنا وتلاميذنا أن للأدب سيطرة سماوية تبغض التأدب مع غير صاحب السماء. أنت في جماعتنا دخيل يا توفيق لأنك تقدم علينا رجال القضاء ولأنك تتهيب أصحاب النفوذ.

ـ ٥ ـ

ويضيق صدر الأستاذ الحكيم على النحو الذي وضحنا في التمهيد لهذه المعركة فيكتب إلى الأستاذ الزيات عاتباً ومهدداً على صفحات الرسالة[١] فيقول:

«صديقي الزيات، حتى أنت قد خاب أملي فيك. أنا الذي دعا إلى الصفاء بين الأدباء كما رأيت وبذلت في ذلك ما بذلت، فإذا كان هذا يسفر عن كلمة سمحت أنت بنشرها في العدد الأخير من الرسالة كلها إيذاء لشخصي دون مبرر، كلمة لم تدع إليها مساجلة أدبية. ولم ينتفع بها الأدب والفكر ولكن دعت إليها شهوة الهجوم والتجريح لمجرد الزهو والخيلاء بالهجوم عليَّ وتجريحي.

ولعل السبب الوحيد في ذلك أنني رجل هادىء الطبع كما تعرف نزَّاع إلى الخير ينزه القلم عن أن يستخدم هراوة للبطش. وكنت أحسب أن الشجاعة الحقيقية هي في احترام أصحاب هذه المبادىء والمنازعات. ولكن صدمني حقاً ما رأيت من أن الأدباء في مصر مع الأسف لا يحسبون حساباً لغير الكاتب الذي يبرز مخالبه ويكشر عن أنيابه، ويتهيأ دائماً للوثوب أنا الذي أراد من الأدب أن يكون حديقة غناء سياجها «الصفاء» إذ بـي أراه حرشاً من الأحراش المأهولة بالضواري.. ما هي في واقع الأمور رسالة الأدب إلى البشر؟ أهي شيء آخر غير ترويض كواسر الناس واتهامهم أنهم أرقى من الحيوان؟ إن الأدب الرفيع هو الذي يثير المشاعر الرفيعة بما فيها من صدق وحب وخير وجمال وإن الأدب الوضيع هو الذي يهيج فينا الغرائز الحيوانية بشهواتها للفتك والبطش والعدوان.

---

(١) الرسالة: ٢٢ يونيه ١٩٤٢.

Twitter: @abdulllah1994

كنت أظن يا صديقي الزيات أن تلك هي رسالتك وأن عملك في مجلتك هو توجيه الأدب إلى هذه الغاية الفضلى.

خاب أملي فيك ــ إنما الذي خيب أملي هو أني رأيتك قد حدت قليلاً عن رسالتك في «الرسالة» وفي هذا خطر على شرف الغاية التي عاهدت نفسك والناس عليها وقد أغتفر لك إهدار حق الصداقة والزمالة أما هذه فلا.

هنا ونفترق. وليكن اليوم آخر عهدي بك و«بالرسالة» والأدباء. لن أكتب شيئاً لك ولن أذكر بعد اليوم أديباً بخير ولا بشر. سأصمت عن أشخاصهم صمت القبر لأنصرف إلى الإنتاج وحده من حيث هو إنتاج.

فلا حلم في صفاء ولا أمل في عودة بين أدباء. على أني قبل ذلك أحب أن أنوه بحق لك عندي وفضل لا أود أن أنساه، لقد كنت أنت الذي اقترح علي فكرة تدوين ذكرياتي المنسية من عهد اشتغالي بالقضاء فخرج كتاب «يوميات نائب في الأرياف» ربما لولاك ما اتجه ذهني إلى هذا الأمر ولضاعت إلى الأبد معالم تلك الأيام.

ــ ٦ ــ

وينهي الزيات المناقشة حينما يكتب كلمته الهادئة في الرسالة[1] مخاطباً الحكيم قائلاً: «لو لم يكن النسيان عرضاً ملازماً لك يا صاحب أهل الكهف لذكرت أن اسمي الزيات لا زكي مبارك، ولو أنك ذكرت ذلك لما كان منك ذلك الكتاب ولا كان مني هذا الجواب، ولكنك لا تستطيع أن تنكر أنك كفرت بنفسك وكذبت برسالتك لأن الرسول الصادق لا ينذر بالكدر وهو يبشر بالصفو ولا يبادر إلى القطيعة وهو يدعو إلى الصلة.

لم يكفر برسالتك غير العقاد ولا شك في إخلاصك للأدب غير المبارك فما بالك يا توفيق تئن قبل التعذيب وتلقي يديك ورجليك إلى الصليب وتفضح بهذا الجزع نبوة الأدب.

---

(١) الرسالة: ٢٩ يونيه ١٩٤٢.

Twitter: @abdulllah1994

تقول: إنني حدث قليلاً عن رسالتي في الرسالة وقليلاً هنا معناها (زكي مبارك) وزكي مبارك يا توفيق لون من ألوان الأدب المعاصر لا بد منه ولا حيلة فيه فهو الملاكم الأدبـي في ثقافتنا الحديثة، أما عنفه وشماسه فهما الطبع المميز للونه فلو شئت أن تجرد هذا الملاكم المبارك من عنف الهجوم وخشونة المراس لما بقي منه غير توفيق الحكيم وأسلوب الحكيم وحمار الحكيم.

على أنه هو نفسه أول الشاهدين على أن صفارتي قد بحت من طول ما أهبت به وهو في قفازه السنتريسي يهدر في المجال بين الحبال مغضياً بعض الإغضاء عن قواعد الملاكمة. وزكي مبارك بعد ذلك سليم الصدر، صريح القلب، رياضي الروح لا يتحرج أن يطلب إلى صديقه أن ينصره ظالماً أو مظلوماً، ثم تقول إن الأدباء في مصر مع الأسف لا يحسبون حساباً لغير الكاتب الذي يبرز مخالبه ويكشر عن أنيابه ويتهيأ دائمًا للوثوب فهل مصداق ذلك يا توفيق أنك أدرت ظهرك لخصمك وحملت عليَّ؟ أما قطعك للأسباب بينك وبين الرسالة والأدباء فأمر يهون ما دمت تخرج كتبك إلى قرائك الأوفياء وإذا جاز لي أن أواجهك مرة أخرى فإني أفصح لك يا توفيق بأن تؤمن برسالتك كما آمن ذوو الفضل من الكتاب وأن تصبر عليها كما صبر أولو العزم من الرسل وهكذا ننهي معركة الصفاء.. وأحياناً يزرع الطريق إلى السلام بالأشواك ولن ينتهي أبداً بين الناس الخصام فالبشر مذ كانوا ودائمًا إما في حرب أو في انتظار حرب، ولن يستطيع أحد أن يغير طبائع الناس ولا نزوات الأدباء وتطلعهم إلى الشهرة والمجد من خلال ما يصطنعون من معارك، ويدبرون من هجوم(*).

□□□

(*) نجد نصوص هذه المعركة في مجلة الرسالة (المجلد العاشر ١٩٤٢):
الأعداد: ٢ مارس ١٩٤٢؛ ١٣ أبريل ١٩٤٢؛ ٢٠ أبريل ١٩٤٢؛ ١١ مايو ١٩٤٢؛ أول يونيه ١٩٤٢؛ ٨ يونيه ١٩٤٢؛ ١٥ يونيه ١٩٤٢ (كما يمكن العودة إلى كتاب المعارك الأدبية لأنور الجندي ــ مصدر سبق).

Twitter: @abdulllah1994

مع القاياتي

تمهيــد:

وهذه واحدة من المعارك الشخصية التي استمرت وقتاً غير طويل من الزمن وسخرت فيها الأقلام لنشر المعايب وكأن ليس بين المتخاصمين غير تراشق التهم واستعراض ألوان الهجاء[1].

بدأت المعركة عندما كتب الشيخ حسن القاياتي إلى بريد الرسالة[2] يتهم (زكي مبارك) بأنه يتقول عليه أمام الناس وأنذر بأنه يريد الهجوم على حسن القاياتي الأديب الذي خلقته الظروف ورفعته السياسة وجامله الأدباء. وتعجب من الدكتور مبارك أن يفعل ذلك مع شيوخ الأدب الذين شقوا في سبيله. ثم أنذر الدكتور مبارك بأنه أعد عشرين مقالاً في نقد كتابه «النثر الفني» وهو يرجو أن يتسع صدر الرسالة لنشرها. ثم طالبه:

أولاً: أن يسمعه كلمة الحق على صفحات الرسالة، ولكنه بدلاً من أن يستمع إلى كلمة الحق سمع كلمة التنصل عما قيل ثم أتبع ذلك بكلمات شداد منها أنه مستعد لتلقي ما يكتب القاياتي عن «النثر الفني» وأن الرسالة لا تجامل أحداً بل هي ترحب بذلك. وجاء رد الرجل الشيخ بعيداً عن الموضوع فتحدث

---

(١) تمثل هذه المعركة لوناً من ألوان الجدل الذي كان يدور بين الشيوخ والشباب يدفع إليه تنازع البقاء من جانب الشيوخ، وتأكيد الذات من جانب الشباب.

(٢) الرسالة: العدد ٥٢٩، المجلد الحادي عشر.

Twitter: @abdulllah1994

عن نفسه طويلاً وذيل مقاله باسمه ممهوراً بعضو المجمع اللغوي وكأنه يريد أن يذكر المعارك بأنه خصم قوي وعنيف.

وكان ذلك الرد حافزاً لزكي مبارك فضرب ضرباته الأخيرة بقوة وعنف حتى أسكت الرجل الشيخ بعدها سكوتاً مخزياً أعتقد أن الرجل ظل يلعقه حتى مات. وحتى أنه طوى مقالاته العشرين التي وعدنا بها دون أن نظفر منها بواحدة.

نصوص المعركة:

- ١ -

كتب الشيخ حسن القاياتي في بريد الرسالة الأدبي يقول تحت عنوان «إلى الدكتور زكي مبارك» قالوا لي يا دكتور أنك تريد أن تهجم على (حسن القاياتي) الأديب الذي خلقته الظروف، ورفعته السياسة، وجامله الأدباء، بقدر ما لبيته القديم في النفوس، وألاعيب (مصطفى القاياتي) في السياسة... وأنت يا سيدي الدكتور قد آذيتني أعنف الإيذاء يوم نشرت مقالك عن السهرات الأدبية في رمضان في جريدة البلاغ حيث قلت: إن البيت (القاياتي) قد خلا من الرائد وعاف مجلسه الأديب ولم يبق فيه إلا وجه السيد (حسن) أبقاه الله.

وهي غمزة أعرفها منك يا دكتور وأحتسبها عليك، وأجازيك عليها جزاء من أخلص للأدب، وامتزجت نفسه به طوال أربعين عاماً بين شاعر يدرسه، أو بحث شائق في اللغة يكتبه.. ثم ماذا؟

ثم يكون حظه من ناشئة البيان منتكساً، وقلمه بين تلاميذه منكسراً، وأدبه بين الأدباء ضعيفاً... مما جعل الدكتور تحدثه نفسه بالهجوم عليه، والنيل منه لك الله يا دكتور مبارك. فلقد كنت أود أن تكون ألاعيبك بين ناشئة الأدب فتحملهم على احترامك بالشدة، وتروضهم على مطالعة أدبك بالعنف... خير لك من أن تهاجم رجلاً قد هاجم شوقي وحافظ في عنفوان أدبها، وضخامة شخصيتها،

Twitter: @abdulllah1994

وخلود اسميهما، دون أن يتطاولا عليه ما تطاولت، أو ينالا من شخصه ما نلت، إن اللغة العربية يا دكتور لم تجد لها حصنًا منيعاً من سنوات عديدة إلا الدار (القاياتية) ولن تجد من يذود عن حماها إلا القلم (القاياتي) العنيد؟

فسل نفسك يا دكتور يوم أن كنت صديقاً وراوية للسيد (مصطفى) إن (حسن القاياتي) لن تنال قلمه هذه الترهات ولن تؤثر في نفسه هذه الصراعات العنيفة التي ترسلها دون أن تذكر الدار القاياتية، ومجدها القديم في اللغة، وحاضرها الجديد في البيان، أتذكر كل هذا يا دكتور؟ وقد أعددت لكتابك الفريد «النثر الفني» عشرين مقالاً أرجو أن يتسع صدر «الرسالة» فتنشر لي هذه المحاولات الجريئة في النقد دون أن تجامل (محمد عبدالسلام مبارك) علها تظهر للناس الكاتب الأول والشاعر الأول (زكي مبارك) ولكن بعد أن أسمع منه على صفحات «الرسالة» الزهراء كلمة الحق... والحق أحق أن يتبع...؟

- ٢ -

ويرد الدكتور زكي مبارك في البريد الأدبي بالرسالة[1] تحت عنوان «إلى السيد حسن القاياتي» قرأت خطابك إليَّ فوجدته دون ما يحسن صدوره عنك، وإلا فكيف جاز لك التوهم بأني أقول فيك ما دونته بقلمك نقلاً عن أراجيف المرجفين؟

أنا أقول إنك أديب خلقته الظروف، وألاعيب مصطفى القاياتي في السياسة، هذا الكلام لا يقوله من يعرفك، كما أعرفك وهو أيضاً كلام لا يقوله صديق في صديق، وأنت تعرف جيداً أني لا أقبل إيذاء أصدقائي بمثل ما نقل إليك وبأيسر مما نقل إليك، فاقطع ألسنة الدساسين، واحفظ ما بيننا من العهود، احفظ أنت أما أنا فكما عهدت، ولن أتحول ولن أخون.

ثم تطلب إلي أن أسأل نفسي عن الصلات التي كانت بيني وبين الدار القاياتية، وأنا أوجه مثل هذا السؤال إليك، فما أظنكم عرفتم رجلاً أصدق مني،

---

(١) العدد ٥٣٠، المجلد الحادي عشر.

Twitter: @abdulllah1994

ولا أحسبك تنسى أني أديت للشيخ مصطفى جميلاً يفوق الوصف ويفوق الجزاء، وهو جميل سجلته أنت بقلمك في مجلة الكشكول سنة ١٩٢٤ يوم كان إيذاء الشيخ مصطفى من هواك. أينا أوفى لذكرى هذا الرجل أنا أم أنت؟

لو نطق التاريخ الأدبي لقال إني لم أكن راوية يوم عرفت داركم، وإنما كنت أستاذاً يساعد على خدمة أدبية تعرفها الجامعة المصرية يوم اختارت الشيخ القاياتي خلفاً للشيخ المهدي. وتقول إنك ستنشر في الرسالة إن ضمنت أنها لا تجاملني، وأنك تنتظر مني كلمة الحق. إنك أعددت عشرين مقالاً في نقد كتاب «النثر الفني» لنشرها في الرسالة. وأقول: إن الرسالة لا تجامل أحداً، فقدم إليها في نقدي ما تريد. ثم أقول إن هذه الكلمة هي كلمة الحق، فانقضها إن كنت تطيق. وجاء منك في كلامك أن لي في الأدب ألاعيب وترهات فمتى كان ذلك؟ أنا يا صديقي لا ألهو في الأدب ولا ألعب، فجد الأدب جد وهزله جد ولا يصدر عن قلمي إلا ما يرضاه وجداني.

أما بعد فهذا ما تقرأ لا ما تسمع، فخذ عني ما تقرأ ودع ما تسمع فما أذكر أني حادثت أحداً بالقاهرة منذ شهور طوال، ولا أذكر انك خطرت في بالي قبل أن تنقل إليَّ الرسالة خصامك العنيف يا أعز الخصماء.

أنا ما أسأت إليك، وإنما أسأت أنت إلى نفسك بكسلك ومع هذا تقول إن اللغة العربية لا تجد من يذود عن حماها غير قلمك، ونحن نعرف طاقتك في البيان، توكل على الله وانفض الغبار عن نفسك المكسال، فقد تصبح ولك مثلي ترهات وألاعيب. وليس من العسير جداً أن تكون في منزلة الكاتب الأول والشاعر الأول زكي مبارك.

ـ ٣ ـ

ويحسب السيد القاياتي أن الدكتور بخطابه الأسيف قد أنهى القول وما كان يدري أنه بدأ؛ فيبعث إلى الرسالة بكلمة إلى الدكتور زكي مبارك تنشر في البريد الأدبي[1] وفيها يعدد مفاخره ويعرض بالدكتور مبارك ثم لا ينسى أن يزيل

---

(١) العدد ٥٣١ من الرسالة، المجلد الحادي عشر.

Twitter: @abdulllah1994

اسمه على خلاف ما سبق (بعضو المجمع اللغوي) وكأنه يقول للدكتور هذا عملنا فما عملكم؟ والآن نترك له الحديث.

قرأت بإعجاب خطابك الأسيف الذي تواضعت «الرسالة» فنشرته لك، وهي بعد تعرف القاياتي الذي لا يود أن يحاط اسمه بالسياج الباهت من الدعاية الكاذبة. ويفخم اسمه بين الأسماء الشاعرة.

إن القلم القاياتي يا دكتور نسيج وحده تعرفه الأسواق الأدبية الحرة يوم يكون في مصر للقلم الكبير أسواق.. تجزي المحسن وتلفظ المسيء.

القاياتي أيها الناس نظم الشعر وكثير من أدبائنا الذين تطنطن الصحف بذكرهم اليوم أسماء لا يحلو ترديدها إلا على ألسنة الفتوات في الحارة أو الأتراب بالقرية.

القاياتي شاعر من شعراء المدرسة القديمة تلقى فيها الدكتور أول درس في اللغة وآخر درس في البيان.

وليست الصحف التي تملأها بالصحف التي تروق الذين نحب أن تكون واسطة عقدهم، «الأدب الحساس» لا يزينه إلا الحس المرهف ولا يفيد إلا المشاعر الحية. أخال فلاناً لا أراني الله شخصه. وقد وصفته نقابة الصحافة في قاهرة المعز الفاطمي بأنه متسول، ثم بعد اللتيا والتي من هيئة النقابة. وواحد الصحافة وزعيم الأغلبية. لك الله يا بلد المعز فقد جعلت دهاة الأدب يحكمون هذا الحكم الأعرج على جماعة الأدب في الشرق ويزنون الناس بغير ميزان. تخاطبهم صعاليك الصحافة وتجهلهم الأخلاق المريضة وليس بكثير على الدكتور مبارك أن يرميني بالكسل والكسل الهازىء حتى تنجح قضيته الخلابة ويروق منطقه الساخر.

أجل أنا لا أريد أن أكثر يا دكتور. وفي كل يوم لي مقطوعة ستكون الشاهد في يوم يحتاج الأدباء إلى شهود ترفعهم إلى درجات المجد وترقى بهم إلى السماء، إن ديواني (يا دكتور) يكلم الناس من أربعين عاماً.. وأنت بعد ما تزال حدثاً تكلم الناس بلسان الحكائين وتحدثهم بمنطق الأطفال. ثم ماذا؟

Twitter: @abdulllah1994

ثم تكون لي ثروة شعرية تحت يدي تقع في مجلدات ضخمة غير ديوان الناشىء وباكورتي من نصف قرن. ثم هذه الكلمات العريضة التي اعترف بها البيان وخلدتها الصحافة. وانتفع بها شيوخ الأدب وكانت دروساً ألقيت في مدارس البيان، (القاياتي) يا دكتور مبارك لا يعجبه هذا الأسلوب الخادع. فهو أعرف بطوايا قلمك. وخفايا نفسك ولقد توكل على الله يا ولدي العزيز قبل أن يعرفك. وكان قلمه من بين الأقلام المتوكلة عليه سبحانه فانتفع ونفع وجاهد في سبيل الأدب وخدمة اللغة وسيجاهد إلى أن يرضى الله عليه بالفناء.

والرسالة التي تقول عنها: إنها لا تجامل أحداً.

أعتب عليها هذا العتب البريء ـ فأقول: إنها تجامل كثيراً أدباء عرفتهم الصحافة لهم حاضر في الأدب يحاول الشباب أن يهدمه بالحق وللحق ولكنها تطوي رسائله طياً وفي هذا موت للشباب. وحياة للمصانعة الخاتلة، رب رسالة شابة خير من جهاد شيخ يتوكأ على عصا الشهرة ويمشي على سراج خافت ولقد صدق الله إذ يقول:

﴿تبت يدا أبـي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب...﴾!!!

ـ ٤ ـ

ويضرب الدكتور مبارك ضربته الأخيرة حين يكتب كلمة تحت عنوان «ترفق بنفسك يا صديقي» في أحاديثه ذوات الشجون[١] يكشف فيها الستر عن بعض الوقائع الأدبية التي قال عنها الدكتور إنها تسجيل لتاريخ صحيح أراد بعض الناس أن ينالوا منه بالتحريف. ويحسن بنا أن نترك القول لفارسه فقد كتب الدكتور مبارك تحت عنوان:

«ترفق بنفسك يا صديقي» رأى قراء الرسالة أن السيد حسن القاياتي عاداني من غير موجب للعداء، وساق إلي ألفاظاً لا تصدر عن صديق، مع أني

(١) الرسالة: العدد ٣٣٥، المجلد الحادي عشر.

Twitter: @abdulllah1994

لم أسىء إليه في سر ولا علانية وكانت حجته أن ناساً حدثوه أني قلت فيه كيت وكيت، وهو يعرف أني أبالغ في إكرام أصدقائي، وأني لا أتعرض لأعزائي بكلمة مؤذية، إلا إن حاربتهم في الجهر لا في الخفاء والآن، ماذا يريد السيد حسن القاياتي؟

أيريد أن أجزيه إثمًا بإثم، وعدواناً بعدوان؟

أنا حاضر وفي يدي قلمي، ولكني لا أشترك في حرب يكون فيها الغالب أسوأ حالاً من المغلوب، فترفق بنفسك يا صديقي واذكر عهوداً يذكرها كرام الرجال.

تقول إنك كنت شاعراً كبيراً يوم كنت أنا طفلاً يلعب فما قيمة هذه الحمية يا عضو المجمع اللغوي كما ذيلت اسمك؟ هل كان يجب أن أسبقك إلى الدنيا لأسبقك إلى الأدب وماذا أفدت أنت من سبقك اللطيف بحكم شهادة الميلاد؟ وماذا أفادت جهودك الشعرية في نصف قرن؟ وأنت الذي صرحت بأن باكورتك ظهرت قبل نصف قرن يا عجوزاً سبقني إلى الوجود؟ اترك هذه الحجة الواهية، إن كنت تريد الحجاج، ثم ماذا؟ ثم طاب لك أن تتحداني وتتحدى الأستاذ العقاد بكلمتين جارحتين ظلم منك؟ فالعقاد يملك في محاسبتك ما لا أملك، لأنه ليس بصديق، فهو لا يبالي تجريحك ولا يؤذيه أن تبيت معصوب الجبين.

أما أنا فأتردد ألف مرة قبل أن أصوب رمحي إلى صدرك وقد يرضيني أن أسكت عنك، لأنجو من محاسبة الضمير على إيذاء صديق.

تقول إنك أعظم مني؟ هو ذلك يا أخي!

أيؤذيك أن أكون أشهر منك؟ إن كان ذلك فأنا أخلع الشهرة عليك خذ هذه الشهرة، خذها، فقد آذيتني أعنف الإيذاء.

ما رأيك في الصديق الذي يجازف بصداقة دامت عشرين سنة أو تزيد. وما رأيك فيمن يشتم أخاه في مجلة مثل الرسالة وهو يعلم قيمة صوتها في الشرق؟ قد ظهر السر في إخفاقك وهو أنك رجل بلا قلب إن كان لك بعد

Twitter: @abdulllah1994

اليوم حياة أدبية فهي من صنع يدي، فأنا الذي أغضبتك على كسلك، وأنا الذي رفعت النقاب عن قلبك العقوق، ولن أتركك تصـير أديباً يعتز بحاضره لا بماضيه، فما يعتز بالماضي غير الفانين هل تذكر هذا الجميل؟

من قبلك ناس جحدوا جميلي وادعوا أنهم نظرائي، فكن أنت خاتم الأوفياء يا عقوق.

ثم يزعم أنه في سنة ١٩١٧ كان يحضر الدروس للشيخ مصطفى القاياتي عندما دعي لإلقاء محاضرات في الأدب بالجامعة المصرية القديمة خلفاً للشيخ محمد المهدي بك. ثم يعلل ذلك بأن الشيخ مصطفى كان من أخطب الخطباء في عصره ولكن الكتابة كانت عسيرة عليه لأنه نشأ واعظاً فقويت عنده ملكة الخطابة بينما ضعفت عنده ملكة الكاتب البليغ ثم يقول:

«لم يكد الشيخ مصطفى يطمئن إلى معاونتي حتى شعرت بأن واجبي أن أحفظ سمعة الأزهر بالجامعة المصرية، فشرقت في تاريخ الأدب وغربت، وأعددت أربعين محاضرة لو نشرت اليوم لكانت غاية في قوة البحث ونضارة البيان، وهي لا تزال في حيازة الأستاذ يوسف القاياتي، فمتى ينفض عنها غبار النسيان. والمهم أن أسجل أن حرصي على الصدق في أن تصان سمعة الشيخ مصطفى من لغو اللاغين فرضت على أن أجعل محاضراته في قوة محاضرات الشيخ المهدي.

وقد نجحت ونجحت، وكانت جهودي في تلك السنة ذخيرة باقية لحياتي الأدبية، فقد استقصيت فيها مراحل الأدب في القديم والحديث.

وبفضل الشيخ مصطفى القاياتي كان لي تـلاميذ بـالجامعـة المصريـة سنة ١٩١٨ منهم الأستاذ حسن إبراهيم وأحمد البيـلي وعبدالحميـد العبادي وإبراهيم الجزيري.

ثم ماذا؟ ثم كان زكي مبارك من تلاميذي، لأنه أدى امتحاناً أمام الشيخ مصطفى القاياتي في الدروس التي أعددتها بنفسي فإن أنكر زكي مبارك أنه

Twitter: @abdulllah1994

تلميذي فسأفحمه بشهادة السيد حسن القاياتي، وهو رجل شهد ذلك التاريخ المجيد.

وبانتهاء هذه المعركة ندرك تعدد أساليب (المبارك) في قهر خصومه فمرة بالجدال العلمي المركز، ومرة بالتخويف والترهيب والتحذير ومـرة بكشف الأسرار.

وكأن عنده سجلات منظمة يحفظ بين أضابيرها وقائع لكل أديب ومخازي لكل مفكر ـ رحم الله الرجل ـ فقد كان في المعارك ـ طاقة هائلة ـ وأمة وحده(*).

□ □ □

(*) نجد نصوص هذه المعركة في مجلة الرسالة المجلد الحادي عشر ١٩٤٣، الأعداد ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢.

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdullllah1994

حول المبرد والمرصفيَ مع السباعي بيومي

تمهيـــد:

أما هذه المعركة فقد شغلت النقاد والباحثين حول أدب المعارك زمناً فقالوا جميعاً: إنه سلم الراية، وتخلى عن مواقعه للأستاذ السباعي الذي ألقمه حجراً قوياً أسكته سكوتاً مراً، فالأستاذ أنور الجندي وهو من المختصين في أدب المعارك يقول معلقاً: «إنها كانت من أقسى المعارك التي خاضها الدكتور زكي مبارك، ولأول مرة تصادفه الهزيمة إذ لم يواجه لدداً أقسى، وعنفاً أشد من مصارعة الأستاذ السباعي بيومي الذي كان قوي العارضة في مواجهة سجال زكي مبارك حتى حمله على أن يفر سريعاً من المعركة فيلجأ للصلح[1]. والحق غير ما قاله الأستاذ الجندي وغير ما قاله النقاد؛ فلقد كانت المعركة كما كان غيرها من المعارك «اللاموضوعية» من ذلك النوع الذي لا نصر فيه ولا هزيمة، إنما قدرة على نشر المثالب الذاتية وذكر العيوب الشخصية، ولقد تمكن مبارك في بادىء المعركة من أن يلقن غريمه السباعي درساً مشوباً بالسخرية والنيل من الكفاءة العلمية ويبدو أن الأستاذ السباعي أشعل ذكاءه فكشف عن سر «التكتيك» المباركي في الهجوم فكال له من نفس الكيل وحاربه بنفس الأسلحة التي يجيـد استخدامها فبدا للناس أنه انتصر عليه وما هو بذلك. ولعل دليل النقاد الوحيد أن (المبارك) ترك السجال بعد جولات قصار. وأنه ترك صاحبه وهو يتحفز للهجوم عليه من جديد، وأنه بسط رداء السلام طالباً الصلح بعد طول خصام

---

(١) المعارك الأدبية، ص٤٤١، أنور الجندي.

Twitter: @abdulllah1994

ولكن أكل من ترك السجال عد مقهوراً في عرف النقاد؟ كذلك فلم تكن المعركة قاسية كلا ولا هي عنيفة فليست ـ مطلقاً ـ أشد عنفاً من معركة الدكتور زكي مع الدكتور طه حسين والتي أسماها النقاد بمعركة «لقمة العيش» ولا هي أشد ضراوة من معركته مع أحمد زكي باشا (شيخ العروبة) ولست أدري ماذا كنا نأمل من مبارك كي ينتصر هل يذهب إلى مساجلة السباعي في الخطابة في مكان عام كما طلب منه فإذا لم يذهب عد مهزوماً !.

وإذا كان مجرد الانسحاب من المعركة قد أضفى عليه طابع الهزيمة فلماذا لم نحكم على أحمد أمين وطه حسين بالهزيمة أمام ضربات مبارك حينما لم يستجيبا لما كتب ولم ينزلا معه ميدان العراك؟ أو لماذا لا نحكم على الأستاذ طنطاوي جوهري باليأس والفرار أمام الدكتور مبارك حينما حاوره حول كتاب «أحلام السلام» فأنهى الأستاذ الحوار ولم يعد إليه؟ إنها مقاييس في النقد خاطئة يحسب باعثوها أننا في معركة (بولاقية) لا بد لمن يبغي الانتصار فيها أن يظهر (عضلاته) وإلا ضاع وضاعت كرامته وهيبته ومجده.

والآن إلى النصوص لنشاهد ملامح المعركة.

نصوص المعركة:

ـ ١ ـ

يدور رحى المعركة على صفحات الرسالة في الفترة الواقعة بين ٦ يناير ١٩٤١ إلى ١٠ مارس ١٩٤١ ولقد بدأت طلائع المعركة حينما نشر قارىء من قراء الرسالة يذكر فيها أن الأستاذ السباعي بيومي المدرس بدار العلوم قد قال كلاماً في الهجوم على الشيخ المرصفي وهو عاجز عن الرد. ويجدها مبارك فرصة مواتية لإشعال نار معركة ولرد بعض من الدين لأستاذه القديم فيتوجه بالخطاب إلى الأستاذ بيومي قائلاً: «نشرت الرسالة كلمة بإمضاء (من فهيم عبيد) عن كلام وقع منك وأنت تحاضر عن (المبرد) بمدرسة دار العلوم فقد تحدثت عن أخلاق الشيخ سيد المرصفي بما لا يليق فإن كان ذلك الكلام لم يقع منك فانفه في العدد المقبل، وإن كان وقع منك فسارع إلى الاعتذار، إبقاء على ما بيني

Twitter: @abdulllah1994

وبينك من وداد فما أستطيع أن أسكت عن رجل يتعرض لأخلاق الشيخ سيد المرصفي بسوء ولو كان من أعز الأصدقاء.

وإلى أن يثبت أن الراوي افترى عليك، أعلن غضبي على ما بدر منك فقد كنت أظن أنك تعرف أن الشيخ سيد المرصفي له تلاميذ يحفظون عهده الوثيق وسترى كيف تجيب، إن كنت في العدوان على ذلك الرجل العظيم من الأبرياء».

وبالرغم من أن طلاباً من دار العلوم قد سارعوا إلى الدفاع عن أستاذهم السباعي مؤكدين أنه لم يقل عن المرصفي سوى ما قاله عن نفسه من أنه كان يملكه الغرور.

إلا أن الدكتور مبارك يعود إلى الهجوم مرة أخرى على صفحات الرسالة ويستصرخ الأزهريين ويستنكر عليهم سكوتهم عن إنصاف شيخهم المرصفي ذلك الرجل الذي لم ير الأزهر مثله منذ أجيال على حد تعبيره.

ثم قال: وكأنه يجر قلم السباعي إلى السجال فهو يعلنها معركة أدبية ويقول «سأنقل القضية من وضع إلى وضع فأصيرها قضية أدبية لا قضية شخصية (وليته فعل) وأبين أن السباعي بيومي يستر جنايته على المبرد بجنايته على المرصفي».

ـ ٢ ـ

وأخيراً استجمع الأستاذ السباعي قوته واستعد لدخول المعركة فبدأ دفاعه الأول في مجلة الرسالة مرحباً بالخصومات لأنها أسلم مجال للبحث الدقيق، ثم دافع عن نفسه ونفى أنه اتهم الشيخ المرصفي بشيء غير ما خالط مؤلفاته من نزعة الغرور والادعاء، وأن ذلك يظهر في شرحه للحماسة والكامل وكيف أنه تطاول ــ أي المرصفي ــ في أسلوب غير حميد على المبرد.

ثم قال: وما زلت معتقداً هذا رضي الدكتور (مبارك) أم سخط إلى أن يقول: هذا يا صديقي الدكتور هو الأمر الأصيل على جبلته وقد بسطته موضوعاً

Twitter: @abdulllah1994

في نصابه مقرراً على وجهه، لا كما تطايرت به الإشاعات، وقديماً قالوا: وما آفة الأخبار إلا رواتها.

ثم يختتم مقاله بالسخرية من الدكتور قائلاً:

أما قولك «وإلى أن يثبت أن الراوي افترى عليك أعلن غضبي على ما بدر منك» فسبحانك اللهم وتعاليت فما كان لأحد أن يقول﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾إلا أنت».

ـ ٣ ـ

وكأن الأمر تكشفت أوائله واستبانت طرقه فها هو الأستاذ السباعي قد جاء بنفسه طالباً العراك ويبتهج الدكتور لأن الله فتح أمامه أبواب معركة جديدة فيجلي فيها قلمه ويحرك على ميدانها جيوش عواطفه المشبوبة إلى النزاع والقتال والمراوغة فيكتب مقاله الثالث في الرسالة قائلاً:

«هذه طلائع لغزوة شريفة تنقل عقل الأستاذ السباعي من وضع إلى وضع، وذلك فضلي عليه، إني لن أصفح عنه أو يشتغل محرراً، متطوعاً بمجلة الرسالة ثلاث سنين كما قهرت أخاً له من قبل على أن يشتغل محرراً متطوعاً بجريدة البلاغ، هي محنة صبت من شاهق على الأستاذ السباعي فليتحملها صابراً وليوطن نفسه على أن الخصومة بيني وبينه لن تنتهي قبل بداية شهر مايو وهو الموعد الذي حدده الشيخ الأسيوطي لنهاية الحرب بين الانجليز والألمان.

وكيف يخيفني تهديد الأستاذ السباعي وليس في ماضيه الأدبي غير نقل نصوص كتاب الكامل من مكان إلى مكان وتلك مهمة يقوم بها أحد النساخين بدراهم معدودات.

أمثلي يخاف من عواقب الجهر بكلمة الحق وقد قضيت دهري ممتحناً بعداوات الرجال؟.

لقد تلطفت معه أكثر مما يجب، ولم يحفظ عملي، فكيف يراني أعطف عليه وقد ارتدى بثوب العقوق؟.

Twitter: @abdulllah1994

ـ ٤ ـ

وينبري الأستاذ السباعي بعد هذا الهجوم من الجبهة المباركية فيتساءل في عجب كيف ساغ للدكتور مبارك أن يصف كلمته «بالهجوم الآثم» على الشيخ المرصفي فيقول: «وإذا سوغك تطاولك أن تسميه هجوماً فكيف وصفته متسرعاً بالإثم بما وصفت»؟.

ثم هو يتهم الدكتور بأن الخطابات التي يدعي أنها وصلته تدعوه إلى مواصلة الدفاع عن الشيخ المرصفي ما هي إلا أكذوبة من الأكاذيب التي تعودها الدكتور.

ثم يمضي الأستاذ السباعي في مناقشة كلمات الدكتور التي سبق أن وصفناها بعدم الموضوعية كدفاعه عن نفسه بأنه وإن كان صديقاً للدكتور إلا أنه ليس تابعاً له.

ثم يشير إلى ما ذكره الدكتور من سكوت الأزهريين عن الانتصار للمرصفي ويصفه بأنه استعداء ذليل وملق رخيص وأن الأزهريين يعرفون حرية البحث في دراستهم وأنهم يرثون المبرد قبل أن يرثوا المرصفي.

ثم هو يهدده في نهاية المقال بأنه مسرور لهذه الخصومة لأنه يستطيع أن يعرضه على الجمهور على حقيقة.

ومن ثم ينزل الأستاذ السباعي الخصومات الشخصية فهدد بالكشف عن تحقيق الدكتور لكتاب «زهر الآداب» ولا يفوته أن يصرح أن هذا هو انتقامه عن صنع الدكتور عما أسماه بالخيانة الأدبية على كتاب الكامل للمبرد وكأني أسمع الأستاذ السباعي يقول «كتاب مقابل كتاب».

ـ ٥ ـ

وكان من المستطاع أن تدخل المعركة دورها الموضوعي ما دامت قد وصلت إلى هذا المستوى العلمي من تهديد الأستاذ السباعي بكشف حقائق عن كتاب «زهر الآداب» ولكن الدكتور مبارك يشعلها حرباً فائرة لا هوادة فيها

Twitter: @abdulllah1994

ولا موضوعية فهو يخلط التبر بالتراب ويمزج الجـد بالهزل. وسنعرض لهذا عند نهاية البحث. ومن ثم فقد خرج بمقاله الرابع في الرسالة[1] محملاً بكثير من التهم التي لا طائل تحتها ولا مغنم من ورائها. وقد دار مقاله حول هذه النقاط:

١ ـ اتهم الأستاذ السباعي بسرقة نظرية عن نشأة المقامات من كتابه «النثر الفني» وأنه كتم ذلك أربع سنوات لأنه يشعر بالارتياح كلما غار عليه أحد من الفضلاء.

٢ ـ حين يهاجم الدكتور طه حسين دار العلوم لم يتحـرك الأستاذ السباعي ولم يغضب.

«وكيف يغضب الدكتور طه وهو رجل يضر وينفع وهو يملك المحو والإثبات من بعض اللجان بوزارة المعارف وأما الشيخ المرصفي فهو اليوم جسد هامد لا يملك دفع الضر عن سمعته.

ثم يشير إلى أن السباعي طارد المرصفي وكتابه «شرح الكامل» من دخول دار العلوم ليجهل طلبـة تلك الدار أسرار كتاب الكامل وليجهلوا مبلغ أستاذهم السباعي من العلم بما وقع في الكامل من تحريف وتصحيف.

ثم قال: إنه سيصحح كتاب السباعي بيومي خدمة لأبناء دار العلوم ولطلاب الأدب العربـي. ثم يخرج إلى التهديد بعد أن يشمر عن ساعده للعراك فيقول:

وعلى الأستاذ السباعي أن يناقش إن استطاع وهو لن يستطيع ولو ظاهره ألوف من المعجبين بقدرته على الاستهانة بفضائل التوفيق والتحقيق. والأستاذ السباعي قد شتمني في مجلة الرسالة مرتين ليكف عن شتمي غير مأمور فإن الألسنة والأقلام لم تبق من شتمي مزيداً لمستزيد.

ثم يقول في ضراعة متكبرة ساخرة لا تشتمني يا سيد سباعي فحسبـي

---

(١) ٢٤ فبراير ١٩٤١.

Twitter: @abdulllah1994

ما أعاني من البلوى بمحنة النقد الأدبي. ألا تراني أحاور أناساً لا أرتضيهم نساخاً لمقالاتي ومؤلفاتي؟.

ثم ينزل بسخريته إلى حد يؤجج من نار الخصومة الشخصية فهو يقول مفتخراً بأنه رجل (شتيم)، لا لا تشتمني يا سيد سباعي فأنا رجل (شتيم) وذلك عرف لا يخفى عليك لا تشتمني فما أملك محاسبتك لو أردت الانتصاف لنفسي ــ وماذا أقول في تجريحك ولست بشاعر ولا كاتب ولا مؤلف ولا خطيب؟.

ــ ٦ ــ

وحينذاك أصبح من غير المأمول أن يخرج الأستاذ السباعي بالخصومة إلى جو علمي ما دام الدكتور مبارك قد أرادها خصومة شخصية ومن ثم جاء رده مقتصراً للرد على بعض النقاط التي أثارها الدكتور في مقاله السالف ونستطيع أن نقرأ مقال الأستاذ بيومي الذي نشره بالرسالة[١] يقول مخاطباً الدكتور:

١ ــ لم يكن أحد كتبك موضع الدرس في دار العلوم كما أبلغك أحد الأصدقاء ولو حدث ما سميت دار العلوم.

٢ ــ تقول إنك لن تصفح عني أو أشتغل محرراً متطوعاً بالرسالة ثلاث سنين وما هذا بالتهديد فما أنا ممن يضرهم التحرير ولا ممن تعودوا أخذ أجر على ما يكتبون لأني أكتب للكتابة لا طمعاً في المال ولذلك يصدر ما أكتب من غير كلفة ولا إكراه.

٣ ــ قلت: «فليواجهني إن استطاع وأنا ماض إليه بقلم أمضى من السيف وأعنف من القضاء» وستعرف أنني الذي سيكون قلمه أمضى من السيف أما أن قلمك أعنف من القضاء فمعاذ الله أن أشاركك هذا الكفران.

٤ ــ لقد رددت على الدكتور طه حينما هاجم دار العلوم ولكنك لم تقرأ ما كتب وما ذنبي إذا كنت أدعى إلى (عضوية اللجان) وتترك وأعرف وتنكر.

---

(١) الرسالة: ١٠ مارس ١٩٤١.

Twitter: @abdulllah1994

٥ ـ وأخيراً تكثر من الجملة «لا تشتمني يا سيد سباعي» معللاً إياها بتعاليل هي الأباطيل فـالشتّام أنت وأنا عن الشتم بعيد وإذا كنت تلحن لي في ذلك بأنك (شتيم) فإني ألحن لك بأني (بشر بن عوانة).

٦ ـ وتقول: فما أنت بشاعر ولا كاتب ولا مؤلف ولا خطيب، أما الشعر فلو رضيت لنفسي ما قلته كما رضيت أنت ما قلته لسويته ديواناً كما سويت، ولوقعت في الشرك كما وقعت فقد اغتررت في طبع ديوانك باستجابتك لمن غرروا بك وخالفت قول من نصحوا لك وما ديوانك بشعر شاعر ولكنه تجميع ناظم، أما الكتابة فها نحن في ميدانها وسيصدر الجمهور كلمته.

أما التأليف فقد عرفت من علمي فيه «تهذيب الكامل» وستعرف غيره من مؤلفاتي متى انتهيت منه وتناقشنا فيه الآن فاثبت ولا تفر من الميدان.

أما الخطابة فرأيي لك فيها يا دكتور أن نتلاقى في حلبتها أمام جمع من الأدباء وجمهرة من السامعين ويقترح على كلينا التكلم بداهة في موضوع عام من أدب أو اجتماع فهنالك وهنالك فقط (ولست مزكياً نفسي) تجد بحراً يغمرك وأمواجاً تقطعك وتبهرك؛ فتندم طالباً النجاة ولات حين مناص.

ـ ٧ ـ

وينهي الدكتور المعركة قائلاً بالرسالة[1]:

إنه لم يعرف أن اللغة العربية غنية بألفاظ الهجاء قبل أن أقرأ كلمته الثانية وأنا من الذين يدينون بوجوب طلب العلم من المهد إلى اللحد، فمن واجبي أن أرحب بمن يعلمني طرائق السباب، ومن أجل هذا أرفض الصلح. ثم يذكر: إن السباعي يهدد ويهدد وينقد مؤلفاتي وهو من فضلها يعيش فهل رأيتم أقبح وأشنع من هذا الكفران؟. وإلى هنا انتهى الجدل الذي أثاره وأنهاه الدكتور مبارك وكأنه يؤقت ويحدد لمعاركه، فهو يختار الزمان وهو يختار المكان. وكانت

---

(١) ١٠ مارس ١٩٤١ المجلد التاسع.

Twitter: @abdulllah1994

حجته في وقف العراك. أن بعض كبار المفتشين في وزارة المعارف أراد وقف الجدال وحجتهم أن الجدال وصل إلى درجة من العنف تؤذي كرامة المشتغلين بخدمة اللغة العربية ثم أعلن: «أنه قبل هذه الدعوة لأنها أول دعوة كريمة لكف الشر بينه وبين من يخاصمهم بقلمه لا بقلبه».

ثم هو يقول: مما يكشف في صدق عن طيبة قلبه وإنصافاً فلنفسي أقول: إنني كتبت ما كتبت وأنا أبتسم فإني قد أخاصم ولكن لا أعادي فما استطاعت الدنيا بأحداثها الفواتك أن تضيفني إلى أرباب الضغائن والحقود. وانتهت المعركة عند ذلك بالرغم من أن بعض النقاد في ذلك الوقت كتب يثير الدكتور (مبارك) ويقول: إن وساطة المفتشين كانت منصبة على أسلوب الجدل لا على موضوعه. فإذا كان لدى الدكتور ما يقوله بالأسلوب اللائق فليستمر. ولكن (زكي مبارك) يعرض ولا يستجيب(*).

□□□

(*) نستطيع الرجوع إلى نصوص هذه المعركة في:
مجلة الرسالة (المجلد التاسع ١٩٤١)؛ الأعداد: ٦ يناير ١٩٤١؛ ١٠ فبراير ١٩٤١؛ ١٧ فبراير؛ ٢٤ فبراير؛ ١٠ مارس ١٩٤١.

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdulllah1994

الزيات والرسالة

تمهيـــد:

ظلت أواصر الصداقة التي يوجبها العمل تمد ظلالها على الرجلين ــ أعني الزيات ومبارك ــ حيناً من الدهر وصلح رأي الرجلين كل في أدب أخيه فالزيات يقدم كتاب التصوف الإسلامي على صفحات الرسالة عام ١٩٣٩ فيقول:

«وزكي مبارك ــ إن أردت فيه كلمة الحق ــ مجاهد باسل من المجاهدين القلال الذين شقوا طريقهم في الحياة بالقوة وأخذوا نصيبهم من المعرفة بالكد وأحلوا أنفسهم محلها اللائق بالصراع وهو أحد الأدباء الذين لم يقم مجدهم الأدبـي على الظروف والحظ وإذا كان الحظ قد وقع في حياته فهو الحظ المفقود؛ لأنه تعلم بكدح قلمه وتقدم بفضل جهاده ثم كانت الظروف التي تساعد غيره تلح عليه بالنكران والحرمان من غير هوادة».

وهو بهذا القول ينصف مبارك غاية الإنصاف فقد قال: للمبارك ما له وما عليه في حيدة تامة وتحليل دقيق عهد به الزيات.

كذلك فقد دأب (المبارك) على ذكر الزيات بالخير طوال مدة عمله بالرسالة حتى أنه ينعته بالصديق المضمون ولما سئل عن معنى المضمون قال إنه الصديق الذي لا يتغير وكثيراً ما كان يحلو له أن يبدأ رسائله في الرسالة بتوجيه الحديث إلى صديقه الزيات وفي مطلع «ليلى المريضة في العراق» يوجه الحديث إلى الزيات وإلى السامرين في دار الرسالة. وفي ملامح المجتمع العراقي ثناء طويل على

Twitter: @abdulllah1994

الزيات وهو يقول عنه مخاطباً طه حسين حينما قال: إن إمارة الشعر انتقلت من مصر إلى العراق: «والعقاد في الشعر كالزيات في النثر كلاهما يأخذ قوته من الانفعال وهذا لا يمنع من الاعتراف بأنهما أديا خدمات كبيرة للحياة الأدبية».

ولقد كان الزيات يترك لمبارك تحرير الرسالة حينما يسافر إلى المنصورة وكان يكرمه كثيراً فيجعل المقال الافتتاحي له وكان كثيراً ما يدفع عنه الخصوم ويدفعه عنهم وقد كانت فترة عمله بالرسالة من أزهر وأخصب فترات حياته الأدبية وقد أشار هو نفسه إلى أن قلمه قد تجلى في الرسالة إلى «ألطف حدود التجلي» فقد كان يكتب في أغلب الأعداد ثلاث مقالات بكل عدد مقال باسمه ومقال باسم كاتب كبير ومقال باسم «الأديب المجهول».

إذاً ما الذي غير الرجل حتى جعله يقول عن الزيات إنه يرهق قراءه؟ بالسجع ويقتلهم بالازدواج عندما عاب على الزيات عبارته التي يقول فيها «قل لأولئك الذين زعموا أن مصر نبت عن العروبة فقطعت الأسباب الموصولة وأيبست الأرحام المبلولة» ويعلق عليها مبارك قائلاً: «من الذي أباح لك يا زيات أن تتكلم عن الأرحام المبلولة ومن أوحى إليك ذلك؟ أجبني. ؟ أيها الرجل الذي لبس بهذه القولة قفطاناً أخضر وجبة خضراء.

وبعد أن ندد بجناية السجع على المعاني والأغراض قال: «أَمن أجل سجعة تافهة تقع في تلك الرحم المبلولة اتق الله في قرائك فلا ترهقهم بالسجع ولا تقتلهم بالازدواج».

ولعمري لقد أصاب المبارك في غير مقتل وضرب في غير هدف لأن أسلوب الزيات معلم من معالم جيلنا بل هو مفخرة في جبين الأدب العربي الحديث لأنه يصدر عن طبع أصيل ولا ضير أبداً إذا حلى الزيات أصالة الطبع ببراعة الصنعة فهو كالرجل الأنيق المعنى بهندامه وزيه دون إسراف أو تكلف.

وقد أجمل الأستاذ العقاد نعته بقوله: «أنيق في غير بهرجة ولا فضول، بليغ في غير عسر ولا تكلف».

Twitter: @abdulllah1994

ولكننا سنغفر لمبارك زلته حينما نعلم أنه مدفوع بسبب قسوة الحياة ومرارة لقمة العيش فقد كتب ما كتب بعد أن هجر الرسالة إلى البلاغ في أخريات حياته وكان سبب هجره للرسالة أنه توهم أن الزيات أعان عليه الأستاذ الغمراوي فنشر مقالاته الطنانة في الرسالة عن النثر الفني.

ولو أنصف مبارك ما ظن بصديقه هذا الظن فلقد نشر الزيات ما نشر للغمراوي عملاً بحرية النقد التي توخاها وما كان ينتظر من مبارك أن يهجر الرسالة وهو فارسها الأصيل والذي طالما وجه ضرباته لخصومه وخصوم الرسالة على صفحاتها ولقد كتب الأستاذ (دريني خشبة) يومها منصفاً الزيات عائداً باللوم والعتاب على المبارك قائلاً في الرسالة[١].

«إن الدكتور زكي مبارك غاضب لأنه لم يكن ينتظر أن يهاجم في ميدانه الذي هو الرسالة ولقد كنت أغضب مثله حينما أراني أهاجم بل أتهم في الرسالة التي أعدها ميداني وكانت حجة الأستاذ صاحب الرسالة أنه كثيراً ما نادى بأن الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية وتجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية وتصور مظاهر العبقرية للأمة العربية وأن مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك وكتاب الشرق الجديد وسجل الأدب الحديث ودائرة معارف عامة وأنه لذلك يؤثر أن تكون الرسالة سجلاً صادقاً لاقتراب الأفكار في مصر وفي الشرق العربي بحيث يجد فيه مؤرخو الأدب بعد ألف سنة صورة حقيقية لما كان يجري في هذه الأفكار من جدل يدل على الحياة ونضال يثبت الشخصية.

ولقد دافع الزيات عن نفسه حينما توجهت إليه في داره[٢] أسأله مستطلعاً الرأي في هذا الزعم الذي زعمه النقاد من أنه أغرى الغمراوي بمبارك حينما أراد التخلص منه فقال: —

إذا كنت أنا الذي أغرى الغمراوي بزكي مبارك لأني أردت التخلص منه

---

(١) العدد ٥٧٠، المجلد الثاني عشر.

(٢) كان ذلك في ربيع عام ١٩٦٧، قبل وفاة الزيات بقرابة عام واحد.

Twitter: @abdulllah1994

فمن الذي أغرى الغمراوي بالرد على طه حسين حينما أخرج كتاباً كاملاً في نقد الشعر الجاهلي ثم ما الذي يجعلني أتخلص من مبارك وهو من أعلام الرسالة في حينه بل وكان من العوامل التي تساعد على رواجها ثم قال: كيف أمنع نشر مقالات الغمراوي وأنا الذي شجعت الدكتور مبارك على نشر نقداته التي لم يسلم منها أحد ممن كان لهم في تحرير الرسالة الجهد المشكور.

ولما سألته وما تعليلكم لهجره للرسالة؟

قال: هو نفس السبب الذي تذكر. مقالات الغمراوي على النثر الفني ومقالات دريني خشبة عن وحدة الوجود.

وقد سألني زكي مبارك أن أمنع النشر لهما فقلت له: أنت تعرف منهج الرسالة، رد عليهما وأنا أنشر لك ما تكتب ولكن لا تسألني أن أمنعهما من النشر فما منعتك يوماً. فغضب وذهب فلم يعد بعد ذلك إلَّا لماماً.

ولما سألته عن المقالين اللذين زعم الدكتور مبارك أنه بعث بهما إليه فاحتجزهما بعيداً عن النشر.

قال: نعم حدث هذا ولكني فعلت ما فعلت ضناً بقلمه وحرصاً عليه من التردي في الهاوية فلقد كان المقال الأول مليئاً بالسب والإسفاف وعدم الموضوعية وكذلك كان الثاني.

وعلى أية حال فقد هجر مبارك الرسالة بعد أن نشر مقاله الوجداني والذي سبق أن أشرنا إليه إبان الكلام عن تجديد المعركة حول النثر الفني[1].

والواقع أن الخصومة بين الزيات ومبارك لم تبدأ منذ ذلك اليوم الذي هجر فيه الرسالة سنة ١٩٤٤، وإنما هي تمتد إلى عام ١٩٤٢ حينما نشر الزيات مقالاً يرد به على توفيق الحكيم إبان معركة الصفاء بين الأدباء ــ تنظر في مكانها من

---

(١) انظر ص ١٥٧، من هذا البحث.

Twitter: @abdulllah1994

هذا البحث[1]. ـ ذكر فيه مبارك بما كره أن يذكر به فعاتب الزيات وهدده بترك الرسالة وهجر القراء جميعاً.

كذلك وقع بينهما عتاب حينما اختلفا معاً حول مقال لمبارك بشأن الرسول صلى الله عليه وسلم فلما استدار العام طلب الزيات من مبارك مقالاً لعدد الهجرة وقال له لا تكفر كما كفرت في السنة الماضية.

ورد مبارك قائلاً: سبحان الله!! وأنا كفرت في السنة الماضية يا زيات هل تصدق أن من خصومي من يدرك من عظمة الرسول ما أدرك؟ إن من خلق الله ناساً يأكلون الشهد بفضل الرياء فكيف يؤذيهم أن أشرب أكواب الصبر والعلقم بسبب القول الصريح[2].

ومع كل هذا فقد ظل رأي الزيات فيه بعد هجر الرسالة كما كان قبل أن يهجرها فلقد قال في رثائه يوم أن نعاه على صفحات الرسالة كلمات منصفات لا تختلف كثيراً عما قاله في تقديم التصوف الإسلامي وما خاطب به الحكيم في معركة الصفاء.

قال في الرسالة[3] بعد موته بأيام خمسة: «كان رحمه الله من الأدباء القلال الذين شقوا طريقهم في الصخر بالعمل الدائب والدرس المفصل والتحصيل المستمر، ثم قضى زهرة عمره في التعليم والتأليف والكتابة على خير ما يكون العامل الصادق من المثابرة والجد».

وكان رحمه الله من المخضرمين المخلصين الذين ربطوا الجديد بالقديم ووصلوا الشرق بالغرب وكان لهذه الطبقة الفضل العظيم على النهضة الأدبية بما وطدوا من أساس وأقاموا من قواعد وحققوا من توازن وبهذه الميزة كان للفقيد الكريم نصيب في بناء مجد الرسالة حيناً من الدهر.

---

(١) ص ٢١٥.

(٢) نقلاً عن أنور الجندي ص ١٦٦، مرجع سابق (زكي مبارك ـ دراسة تحليلية لحياته وأدبه).

(٣) العدد ٩٦٩، في ٨ يناير ١٩٥٢، المجلد العشرون.

Twitter: @abdulllah1994

وهكذا تجنى مبارك على الزيات فجنى عليه تركه للرسالة وعاش لشطحاته في البلاغ فجاءت كتاباته في الفترة الأخيرة مجرد شذور لا أول لها يذكر ولا نهاية لها تقرأ.

رحم الله الرجل فلقد عاش مظلوماً من نفسه ومن قلمه ومن الآخرين ورحم الله الزيات فقد ظلمه بعض الباحثين حينما حسبوه من خصوم مبارك وما هو كذلك كما أسلفنا ولكنه اختلاف الرأي.

□ □ □

Twitter: @abdullah1994

حول «زهرات منثورة» لعبدالله عفيفي

تمهيـــد:

في جريدة البلاغ عام **١٩٣٣** تصدى زكي مبارك لنقد كتاب أخرجه الشيخ عبدالله عفيفي تحت عنوان «زهرات منثورة» ويبدو أن النقد كان قاسياً إلى حد ما فلم يعجب عبدالله عفيفي مما جعله يتحامل على زكي مبارك مستنكراً أن يرخص النقد إلى هذا الحد حتى يكون مجرد تصحيح مدرسي... وينتهز المعارك صاحب القفاز الحديدي هذه الفرصة ليكيل لخصمه الضربات وتشتعل المعركة ضارية دون أن يترك المتعاركان أثراً علمياً يذكر بعد أن تحول السجال إلى مجرد تنابذ بالألقاب نال «الأزهر كمنهج وأسلوب دراسة منه رشاش خفيف».. والمعركة تعطي ملمحاً للحوار بين المحافظين والمجددين.

نصوص المعركة:

كتب الدكتور زكي مبارك في جريدة البلاغ[1] مقالاً في تقريظ ونقد كتاب «زهرات منثورة» لعبدالله عفيفي كان من بين ما جاء فيه:

١ ـ الأستاذ عبدالله عفيفي كاتب متين الديباجة مشرق العبارة وهو صديق عرفناه منذ سنين فلم نطلع منه إلَّا على صدق الخلق لذلك نرجو أن يرحب بالملاحظات الآتية: (عد مبارك سبعاً وعشرين هفوة) نكتفي بإيراد شيء منها:

أولاً: وضع في صدر الكتاب أنه تفصيل للمحاضرات التي ألقاها المؤلف بكلية الشريعه، وكلمة تفصيل كلمة مطمعة ولكن الكتاب لا يزيد عن ثلاث

---

(١) البلاغ: ٣ فبراير ١٩٣٣م.

Twitter: @abdulllah1994

محاضرات، أيكون هذا هو كل المنهج الذي شرع لكلية الشريعة، إن هذا التفصيل كان يجب أن يقع في مجلدات فكيف يقنع به وهو أوجز من الإجمال.

ثانياً: شغل المؤلف نفسه بالبلاغة القرآنية، وانتهى إلى رأي جديد في إعجاز القرآن، وهذا الرأي الجديد هو رأي باحث مصري أذاعه منذ سنين وصاوله الباحثون عليه على صفحات البلاغ نحو ستة أشهر[1]. فكان من واجب المؤلف أن يشير إلى اسم ذلك الباحث والأستاذ عفيفي أول من يفرض عليه أدبه رعاية هذه الحقوق.

ثالثاً: اهتم المؤلف بتشكيل بعض الكلمات، ولكنه أسرف فشكل ما لا يحتاج إلى شكل، من ذلك وضعه فتحه على كلمة (ما) وهي فتحة فضولية، إذ أن الألف كافية في تحديد النطق، وفي الكتاب كثير من هذا الشكل الذي لا يُحْتاج إليه.

٢ ــ ويمضي مبارك على هذا النحو إلى أن يختم المقال قائلاً:

«هذا ما قيدناه ونحن نراجع الكتاب، وقد تغاضينا عن أغلاط أخرى يدركها القارىء بلا تأمل... وإنّا لنرجو أن تكون هذه بداية لدراسات أوفى وأعمق حتى تستطيع كليات الأزهر منافسة الكليات العالية بالكتب المفيدة».

ويتملك الغضب الشيخ عبدالله العفيفي بسبب هذه النقود فيكتب مراجعاً المراجعة على صفحات البلاغ[2] مخاطباً الدكتور زكي مبارك:

١ ــ أهنئك على نجاحك فيما اعتزمت من حمل الأدباء على مساجلتك بكل ما ملكت من حيلة وما بذلت من وسيلة، حتى ولو كانت من تلك الوسائل التي يعدها بعض رجال الأدب تجنياً غير سائغ وتحاملاً غير مقبول.

---

(١) لعل الدكتور مبارك يعني نفسه بلقب الباحث المصري ويعني بما جاء من جديد في إعجاز القرآن معركته المشهورة مع مصاوليه حول كتاب النثر الفني والتي دارت رحاها الأولى على صفحات البلاغ عام ١٩٣١م.

(٢) البلاغ: ٨ فبراير ١٩٣٣.

Twitter: @abdulllah1994

٢ ـ إلى أن يقول في المقال نفسه «ومن الخير لي ولك أن أعدك هاذلاً في كثير مما أتيت به، لأني لا أعتقد أن يرخص النقد الأدبي في هذا الزمان حتى يكون تصحيحاً مدرسياً تحاسبني فيه على كل حرف نافر أو نقطة طائرة..

ويرد الدكتور زكي مبارك ساخراً من السخرية بأسلوب مقذع بل شديد الإقذاع فهو يقول من مقال له في البلاغ أيضاً[١] تحت عنوان «الأزهر والنحو».

«لقد استبحت لنفسك أن تسلك معنا سبيل السخرية في جوابك، ولكنك أعز علينا من أن نروض القلم في السخرية منك. أما بعد، فمن كان يظن أننا سنلقي درساً في النحو على فضيلة الأستاذ عبدالله عفيفي، تلك والله أعجوبة الأعاجيب، فالأستاذ لا يزال يحمل العمامة، وهو فوق ذلك مدرس في الأزهر، والأزهر كما كنا نعهد معقل علوم العربية ومثل الأستاذ عبدالله عفيفي إذا دخل الأزهر وقفت لقدومه قواعد النحو صفاً صفاً، فكانت المنصوبات في جانب والمرفوعات في جانب، وقد تصدمه (المجرورات) من شماله إذا دخل من الباب الذي كان يسمى باب المزينين[٢].

وتحمل جريدة البلاغ بعد ثلاثة أيام مقالاً ساخراً لعبدالله العفيفي تحت عنوان «ضربني وبكى» أثبت فيه أنه على مقدرة هو الآخر في فن السخرية المرة وإن كان لم يأت بفائدة علمية تذكر فهو يقول[٣]:

«تريد أن تعلمني النحو يا دكتور زكي؟».

اسمع يا بابا، اسمع يا معلمي، اسمع يا شاطر، واعلم أن لتلاميذك حقاً إن لم يكن عليك فعلى الذين ائتمنوك عليهم، أنك أرخصت النقد وأهزلته، لأنك فهمته مراجعة مطبعية وزعمته تصحيحاً مدرسياً فلم تصغ إلى ما أقول، وشاء أن يرد، وجـاء في رده بعامل جديد زاد النقد رخصاً وهزالاً حتى انحدرت

---

(١) البلاغ: ١٧ فبراير ١٩٣٣.

(٢) السخرية في كلمة (المجرورات) واضحة فالمقصود بها (دورات المياه) التي تتاخم الباب المعروف بباب المزينين في مبنى الجامع الأزهر.

(٣) البلاغ: ٢٠ فبراير ١٩٣٣م.

Twitter: @abdulllah1994

سوقه عن سوق القمح والقطن والفول والشعير وذلك العامل أنه اتخذ الشتم حجة واللغو سلاحاً وشاء أيضاً أن يكون ظريفاً فقال (أكرم الله وجهه) وقد تصدمه المجرورات من شماله إذا دخل من باب المزينين، أرأيت ظرفه رغم أنه سامر حسان باريس؟ ولو أنه سامر حسان الصومال أوحسان ما وراء خط الاستواء، ما قارف تلك الكلمة التي تكدر الجو وتزكم الأنوف.

لماذا دعوك (زكياً) وأنت قروي من سنتريس ومولدك في القرن التاسع عشر وهذه الأسماء لم تكن مما يألفه القرويون في ذلك العهد.

وكعادة مبارك حينما يجد اشتداد السجال.. هرب من النقاش بعد أن أنهاه مسرعاً بمقال تحت عنوان «قروي من سنتريس يؤكد فيه ــ فقط ــ على انتمائه لقريتَه دون أن يعود إلى هجائياته وسخريته» فيقول[1]:

«حرص الأستاذ (يقصد عبدالله عفيفي) على إفهام القراء أنني قروي من سنتريس وكتب هذا وأعاد ثلاث مرات أفيستطيع أن يحدثنا في أي قصر ولد من قصور الحواضر؟ إن الأستاذ يشاطرنا شرف الانتساب إلى الريف وقد ولد فضيلته في قرية بالقرب من سنتريس والفرق بيني وبينه أني أتحدث عن بلدي في جميع المناسبات، أما هو فلا يذكر بلده على الإطلاق ولا يجري اسمها على قلمه ولا لسانه مع أن الأوطان الصغيرة هي حبات العقد في الوطن الكبير.

ولأول مرة تبدأ معركة جادة من قبل مبارك ثم تنتهي إلى لا شيء والسبب في ذلك بداية هو الأستاذ عبدالله عفيفي.. ولو أنها مضت في طريقها الأول لأثمرت فائدة كانت ستنقلها على الأقل إلى حيز الخصومات الموضوعية ولكن هيهات[*].

---

(١) البلاغ: ٢٤ فبراير ١٩٣٣.

(*) يمكن العودة إلى نصوص هذه المعركة فيما يلي:

١ ــ كتاب زهرات منثورة لعبدالله عفيفي ١٩٣٣م.

٢ ــ جريدة البلاغ مجلد عام ١٩٣٣م.

٣ ــ زكي مبارك صحفياً لمحمد عبدالجليل (رسالة ماجستير ــ كلية اللغة العربية القاهرة).

Twitter: @abdulllah1994

متى يزدهر الأدب؟

تمهيـد:

وهذه مناظرة أدبية تحولت إلى معركة، بل إلى مهاترة بين مدرجات كلية الآداب بالجامعة المصرية عام ١٩٤٠م وذلك عندما أراد أحد طرفيها الأستاذ لطفي جمعة أن ينتهز الفرصة فيصرع مناظره الدكتور زكي مبارك وكانت بينهما ملاحاة قديمة يمكن تتبعها في مراجعة معركة كتاب «النثر الفني»[١] والتي دارت رحاها في مرحلتها الأولى إبان عام ١٩٣١م وكان مبارك قد تهكم وسخر من لطفي جمعة وقتها حينما أعلن رأيه في قضية «النثر الفني» وقد صور هذه المناظرة أو هذه المعركة زكي مبارك بقلمه في مقال له بمجلة الرسالة[٢] معلناً سخطه وغضبه بل وهزيمته أيضاً فهو نادم غاية الندم على اشتراكه في هذه المناظرة التي لم يكن يعلم أنها ستنتهي إلى هذه الهزيمة الشنيعة، بل إنه ليقول في مقاله الذي أشرنا إليه: «وأعاهد الله على اعتزال الناس إلى يوم الممات، ومن الذي يغريني بصحبة بني آدم، ولم ألق منهم غير شجا الحلوق وقذى العيون» . . . ويبدو أن (مبارك) لقي في هذه المعركة الصغيرة ما لا يلقاه في غيرها من المعارك السابقة فقد بدأ بالثناء على مناظره الأستاذ لطفي جمعة قبل أن يمضي في تأييد وجهة نظره بالأدلة التي يراها ولكن الثناء لم يثن لطفي جمعة عما اعتزمه فسفه آراء مبارك في أسلوب غير علمي. . ولم يكتف بذلك وإنما سلك في تحقيره جميع المسالك وبالغ في النيل من

---

(١) ص ١٨٠، من هذا البحث.

(٢) الرسالة: ٢٥ مارس ١٩٤٠.

Twitter: @abdulllah1994

شخص زكي مبارك وأدبه في ملأ من الناس.. وليس على صفحات الصحف كالعادة الغالبة في معظم المعارك الأخرى ويبدو أن (مبارك) لم يكن على استعداد لتلك المفاجأة فأسهم مطرقاً يكاد يذوب ـ وهو الفارس المصاول ـ خجلاً وحياءً.

نص المعركة:

١ ـ كان موضوع المناظرة التي تحولت إلى معركة هو «يزدهر الأدب في عصور الفوضى الاجتماعية» واختار مبارك أن يؤيد هذا الرأي ـ وقد أسلفنا أن كلية الآداب بالجامعة المصرية هي التي نظمت المناظرة ودعت إليها ضمن برامج موسمها الثقافي عام ١٩٤٠م.

وبدأ المناظرة الدكتور زكي مبارك[١] مثنياً على نفسه أولاً بأن كبار أساتذة الجامعة قد أحجموا عن مناظرته فكيف يناظرون «المشاغب الأكبر» على حد تعبير الدكتور محمد حسين هيكل... ثم زعم أنها تهمة ظالمة ولكنها حقت وسيقضي بقية عمره ـ كما قال وقتها ـ في الدفاع عن نفسه أمام الذين يؤذيهم أن يصححوا رأيهم في رجل ظلموه بلا بينة ولا برهان.

٢ ـ وينتقل بعد الثناء على نفسه للثناء على مناظره قائلاً: «وأخيراً ظفر اتحاد الكلية برجل يناظرني. ولكن أي رجل!، كاتب مشهور لي معه وقائع في بعض الجرائد والمجلات، فقلت في نفسي، هي مكرمة من مكرمات الأستاذ لطفي جمعة، فقد هداه القلب الطيب إلى أنني رجل ينهاه الأدب والذوق من الاستخفاف بأقدار الزملاء...

٣ ـ ثم يمضي إلى موضوع المناظرة مؤيداً الجانب الذي اختاره من أن الأدب يزدهر في عصور الفوضى الاجتماعية فيقول: «في بلادنا تصطرع جميع المذاهب والعقائد، في بلادنا تقتتل جميع العادات والتقاليد، وفي بلادنا يلتقي البحران: بحر المدنية الشرقية، وبحر المدنية الغربية وفي بلادنا يجتمع الضب

---

(١) المصدر السابق.

Twitter: @abdulllah1994

والحوت، وتمتزج أنغام المؤذنين بأصوات النواقيس عندنا برج بابل المشهور في التاريخ، بل عندنا برجان هما الأزهر والجامعة المصرية يتجه أحدهما إلى الشرق ويتجه ثانيهما إلى الغرب[1] وبفضل هذه البلبلة من الحضارة والبداوة نهضت قواعد الأدب الحديث. ثم هو يرى أن «النهضة الحقيقية للأدب الحديث ترجع إلى عهد مشؤوم هو النزاع بين الرجلين العظيمين» عدلي يكن وسعد زغلول «ففي هذا العصر صارت الكتابة والخطابة عنصرين أساسيين في تكوين الأدب المصري الحديث وبفضل النزاع بين عدلي وسعد خلقت جرائد ومجلات وأندية صار لها في نهضة الأدب مكان ملحوظ، وبفضله استطعنا أن نذيع في الشرق فناً جديداً هو الأدب السياسي» وكان قد انقرض بانقراض النضال من أشياع بني أمية وأتباع بني العباس ثم هو يرى أيضاً أنه:

«لو سلم المجتمع من الاضطرابات لأغلقت المحاكم ولم يبق أمام لطفي جمعة إلا الفرار إلى الريف ليأخذ قوته مما تخرج الأرض بجهاد الفأس والمحراث.

٤ ـ ولم ينس أثناء المحاضرة أو المناظرة أن يعرج على ما بينه وبين الدكتور طه حسين من خلاف فيزعم أن الحياة الأدبية في مصر ازدهرت بسبب ما وقع بينهما من خلاف ثم خمدت حينما سعى البعض بين المتخاصمين (الدكتور طه والدكتور مبارك) بالصلح وضاعت فرصة ثمينة هي فرصة الجدل حول المذاهب الأدبية.

٥ ـ والواقع أن (مبارك) اختار طريقاً وعراً جانبه الصواب في اختياره من ناحية ثم جانبه الصواب أيضاً في اختيار حججه وأسانيده إذا سلمنا أنها وجهة نظر جديرة بالاعتبار.

وإن كنا نرى غير ما رأى مبارك، فالأدب يزدهر في عصور الاستقرار والسلام ولا يكاد يؤتي أُكله الطيب إلا في ظل الأحوال الاجتماعية المزدهرة بدليل ازدهار الأدب في العصر العباسي الأول والثاني وفي العصر الأندلسي أيضاً

---

(١) يلاحظ أننا نقلنا من المصدر بتصرف بسيط مراعاة للإيجاز.

Twitter: @abdulllah1994

بينما خفت وأوشك على الذبول والارتخاء في نهاية عصر المماليك «كان عصر فوضى اجتماعية واضحة». وفي العصر العثماني حتى أوشكت اللغة العربية نفسها إبان العصر العثماني أن تندثر وتموت لولا جهاد الأزهر. فقد خلطوا بين أمرين واضحين إذ أن هناك فرقاً هائلاً بين احتكاك الآراء وتباين الاتجاهات[1] وبين الفوضى الاجتماعية التي لا يمكن أن يزدهر في ظلالها غير الأدب المكشوف والعناية برصيد الحوادث:

١ - وحينما نعود إلى موقف لطفي جمعة[2] من خصمه زكي مبارك الذي انتظر أن يقابله ثناء بثناء وأن يمضي في طريقه العلمي دون أن يجرحه أو ينال منه إلا أنه حاول أن يسلك في تحقيره كل مسلك زاعماً أن زكي مبارك فوضوي أثيم وحرض الجمهور عليه محذراً من الانخداع بآرائه، وتعجب من أن يكون له كتاب اسمه «التصوف الإسلامي» مع أنه من أنصار الفوضى الاجتماعية ويقول زكي مبارك[3] متأثراً ويقضي (أي لطفي جمعة) في تحامله ساعة وبعض ساعة وأنا مطرق أكاد أذوب من الخجل والحياء.

٢ - وتألم زكي مبارك ألماً شديداً جعله يقول: «لطفي جمعة الرجل الفاضل الذي أثنيت عليه في خطبتي يقضي في شتمي ساعة وبعض ساعة، تلك إحدى الأعاجيب، إن كان الفكر في زماننا من الأعاجيب، أين أنا من دهري وزماني؟، أمثلي يشتم جهرة في كلية الآداب وقد حملت على كاهلي أحجار الأساس؟!.

كما أعلن ندمه على ما تورط فيه من الجدل الذي يسمونه مناظرات ثم عاهد الله على اعتزال الناس بدليل أنه أقام داره على حدود الصحراء «لآنس بظلمات الليل ولأنسى أنني موصول الأواصر بهذا الخلق ولأناجي موات البادية حين أشاء»[4].

---

(١) ينظر ص ١٦٥ من زكي مبارك صحفياً لمحمد عبدالجليل، (مصدر سابق).

(٢) لم نظفر بما قاله الأستاذ لطفي جمعة (رحمه الله) في تأييد وجهة نظره.

(٣) الرسالة ٢٥ مارس ١٩٤٠ (مصدر سابق).

(٤) المصدر السابق.

Twitter: @abdulllah1994

وتنتهي معركة طريفة من معارك مبارك التي انتصر فيها من جانب وانهزم فيها من جانب آخر. . انتصر فيها على نفسه يوم وقف ليؤيد وجهة نظره ـ مهما كان خطؤها ـ بأدلة علمية ابتعد بها عن المهاترات والدخول في قضايا فرعية. . بينما تورط خصمه فيما نأى هو عنه مما يجعلنا نحسب هذا في قائمة الأرباح للدكتور مبارك. . وإن كان قد انهزم أمام خصمه مما جعله يتراجع أمام خصومه في معاركه التالية أو كما قال أحد الباحثين[1] يبدأ في العد التنازلي منذ ذلك الحين[*].

□ □ □

---

(1) محمد عبدالحكيم عبدالجليل (زكي مبارك صحفياً ص ١٦٧) رسالة ماجستير.

(*) يمكن الرجوع إلى نصوص هذه المعركة في:

١ ـ مجلة الرسالة المجلد التاسع.

٢ ـ المعارك الأدبية لأنور الجندي (مصدر سابق).

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdullah1994

محاورات هادئة

المازني ونقد ديوان زكي مبارك

تمهيـــد:

عندما أخرج زكي مبارك ديوانه الأول من الشعر في عام١٩٣٣م أهداه للمازني فكتب عنه كلمة في البلاغ جاء فيها «إن ميزة مبارك التي تبدو لي هي حسن السبك وجودة الصياغة». ولقد نسيت معانيه بعد طي الديوان ولم يبق في نفسي منها أثر ولم يستقر في ذاكرتي منها طيف. ولكن الدكتور مبارك أديب كبير له أبحاثه وله آثاره المشهورة وله في ذلك فضل غير منكور ولا يزيد أن يكون شاعراً أو لا يكون.

ويرد زكي مبارك قائلاً في هدوء غير معهود: «إن الشعر الذي يستخف به الأستاذ المازني لدلالته على معان صغيرة هي العواطف. هذا الشعر هو دليل على أننا عشنا في هذه الدنيا بقلوب الأحباء فكانت لنا لحظات عقل وأيام جنون والعيش مزاج من الوقار والطيش ومجموعة من التأملات والمهاترات».

ولقد ظل الدكتور مبارك يدافع عن شعره حتى آخر نفس فيه فعندما قال الدكتور محمد صبري السربوني «إن ديباجة زكي مبارك الشعرية ديباجة بحترية» رد مبارك قائلاً في أنفة وكبرياء: إنها كلمة يريد بها التأثير ولكني عند نفسي أشعر من البحتري وأشعر من جميع الشعراء.

ولقد ظلت العلاقة بينه وبين المازني طيبة حتى النهاية ولعل مرد ذلك إلى الموقف الطيب الذي وقفه المازني بجانبه عند معركته مع طه حسين[1].

---

(١) ينظر ذلك في ص ١٨٣ وما بعدها من هذا البحث.

Twitter: @abdulllah1994

وعندما سأل عنه المازني في إحدى الصحف الأسبوعية قال: لو أخلى زكي مبارك كتاباته من الحديث عن زكي مبارك لكان أحسن مما هو عليه الآن. فرد عليه قائلاً على صفحات الرسالة:

ماذا تنكر من حديثي عن نفسي؟ هل كان أدبك يا صديقي المازني إلا دوراناً حول نفسك؟.

وهل كتب الأستاذ العقاد مقالاً أقوى من مقاله الأخير في مجلة الرسالة عن الأزمة التي صاولت روحه يوم احتلال العلمين؟ وهل كتب الدكتور طه أقوى مما كتب في الحديث عن طفولته وصباه؟ إن تصوير هموم النفوس وما يحيط بها من مخاوف وآمال هو أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء فما العيب أن يكون الحديث عن النفس من خصائص أدبي.

هل يمكن أن أتعرف إلى الوجود قبل أن أتعرف إلى نفسي؟ وهل كانت روائع الأدب في جامعة الأمم إلا أحاديث نفسية؟ ما هو سفر أيوب الذي ترجم إلى أكثر اللغات؟.

ألم تكن أصالته في التعبير عن المخاوف الروحية؟ وهل كانت أكثر القصائد الخوالد إلا إفصاحاً عن عواطف ذاتية. قال ديكارت: «أنا أفكر فأنا إذاً موجود». ومن معاني هذه العبارة أن الشعور بالنفس هو إحساس الشعور بالوجود.

ثم أشار إلى الثناء على نفسه ذلك الذي يقع فيه من حين إلى حين «هل جال في خاطرك أن تبحث عن السر في هذه النزعة النفسية؟ لو أنك فعلت لعرفت أني لا أفكر إلا متحدياً والتحدي نزعة طبيعية تطوف بالنفس حين تفكر في دفع الجمود والعقوق.

ثم يقول:

وأنا بعد هذا أسأل من يؤذيهم ثنائي على نفسي، أسألهم متى يجاهدون في الأدب كما أجاهد؟ ومتى يعانون في سبيل الأدب ما أعاني؟.

Twitter: @abdulllah1994

وهو القائل أيضاً:

«لقد يئست من إنصاف الناس فكيف لا أنصف نفسي»[1].

□ □ □

(1) مقتطفات من مقاله في الرسالة العدد ٥٢٥ المجلد الحادي عشر.
ونستطيع أن نجد نصوص هذه المحاورة في: جريدة البلاغ عام ١٩٣٣؛ ومجلة الرسالة المجلد الحادي عشر.

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdullllah1994

حول إنسانية الرسول

تمهيـد:

صـدر العدد الممتاز من «الرسالة»[1] وهو يحوي بين جنبيه طائفة من البحوث والمقالات التي تتعلق بالهجرة وكان من بينهما مقال للدكتور زكي مبارك تحت عنوان «النواحي الإنسانية في الرسول» بدأه قـائلاً: «أعتقد أن شخصية النبي محمد لم تدرس حق الدرس إلى اليوم في البيئات الإسلامية لأن المسلمين يجعلونه رسولاً في جميع الأحوال فهو لا يتقدم ولا يتأخر إلا بوحي من الله ولا يأخذ ولا يدع إلا بإشارة من جبريل ومعنى ذلك أن شخصية محمد في جميع نواحيها شخصية نبوية لا إنسانية.

ثم أضاف إلى ذلك قوله:

١ ــ إن جمهور المسلمين يعتقدون أن النبوة لا تكتسب، وهم يعنون بذلك أنها لا تنال بالجهاد في سبيل المعاني السامية وإنما هي فضل يخص الله به من يشاء.

ثم علل لذلك ــ بأن الإسلام نشأ في بيئات وثنية أوخاضعة للعقلية الوثنية ثم يشير:

«إلى أن المسلمين يصنعون بتاريخ الرسول، ما صنعوه بتاريخ الأمة العربية لأنهم أرادوا أن يخضعوا خضوعاً تاماً للمعجزات فالنبي لم يكن رجلاً عبقرياً،

---

(١) العدد ٢٩٧ المجلد السابع.

Twitter: @abdulllah1994

وإنما خصه الله بالرسالة فكتب له الخلود. والعرب لم يكونوا أمة قوية إنما ارتقوا بفضل الرسول (صلى الله عليه وسلم)».

ثم اعترف بنفسه في النهاية أنه (يمشي على الشوك) وهو يعبر عن هذه الفكرة الفلسفية.

ولم يلبث العدد التالي من «الرسالة»[1] أن خرج إلاَّ وهو يحمل بين طياته كلمة في البريد الأدبي للأستاذ عبدالمتعال الصعيدي. وفيها يرد على نقطة من النقاط التي أشار إليها الدكتور في مقاله الآنف وها نحن أولاء نستمع إليه وهو يقول:

«قرأت كلمة للأستاذ زكي مبارك في مجلة«الرسالة»وقد بنى هذه الكلمة على أساس أن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم لم تدرس حق الدرس إلى اليوم في البيئات الإسلامية لأن المسلمين يجعلونه رسولاً في جميع الأحوال فهو لا يتقدم ولا يتأخر إلا بوحي من الله ولا يأخذ ولا يدع إلا بإشارة جبريل.

ولو أن الأستاذ زكي مبارك رجع إلى ماضيه في الأزهر فقرأ شيئاً من كتب الأصول لعرف أن المسلمين لم يكونوا بهذا الشكل الذي يصورهم به وقد نقد بعض المستشرقين إذ قال مثل هذا القول ولكننا لا نعذر الأستاذ زكي مبارك وقد تربى بين شيوخ الأزهر ودرس الكتب الأزهرية ووصل فيها إلى الحد الذي جعله يقدم نفسه من عامين لامتحان شهادة العالمية.

فليس بصحيح أن المسلمين يعتقدون أن النبي لا يتقدم ولا يتأخر في جميع أحواله إلا بوحي من الله، ولا يأخذ ولا يدع إلا بإشارة من جبريل. والذي يعرفه المسلمون جميعاً أن الوحي لم يكن له مع النبي صلى الله عليه وسلم شأن في أمور الدنيا حتى ورد عنه هذا القول المشهور «أنتم أعلم بأمور دنياكم» وقد قال هذا حينما كان قوم يؤبرون النخل فقال لهم: «لو تركتموه لصلح فتركوه اتباعاً لقوله ففسد فلما رجعوا إليه قال لهم: أنتم أعلم بأمور دنياكم».

أما أمور الدين فقد جوز أكثر العلماء له الاجتهاد فيها بدون الوحي

---

(١) العدد ٢٩٨ المجلد السابع.

Twitter: @abdulllah1994

وجوزوا عليه الخطأ منها أيضاً ولهذا عوتب في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم﴾ وبقوله: ﴿وما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ وقال صلى الله عليه وسلم: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي».

وقد منع بعض العلماء أن يجتهد النبي في الأحكام من نفسه واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾[1] وأجاب الذين ذهبوا إلى جواز ذلك بأن هذا مختص بالقرآن الكريم وقد جاء رداً على ما زعمه المشركون من افترائه صلى الله عليه وسلم للقرآن فهل بعد هذا يصح أن يقول إن شخصية الرسول لم تدرس عند المسلمين حق الدرس إلى اليوم؟ وهل من اللائق أن نتنكر لماضينا هذا التنكر؟.

ولم يغضب الدكتور على قول الشيخ في «الرسالة» وإنما اكتفى بقوله في المقال الفائت بأنه «يمشي على الشوك».

والذي أعجب له من الشيخ عبدالمتعال الصعيدي على فضله وعلمه أنه نبه الدكتور إلى واحدة بينها ترك أخريات فلقد لفت نظره زعم الدكتور أن الرسول لم يدرس حق الدرس في البيئات الإسلامية ووجد أنه قول يستحق الرد ثم تغافل عن زعم الدكتور «غفر الله له» الذي لا يسانده في كتاب ولا سنة ولا عقل.

إن النبوة تكتسب وأن وحي السماء لو تنزل على قلب الإنسان لوعاه وكأنما الوحي الذي ينزل على الرسول صلوات الله عليه كان من هذا النوع الذي عناه.

والذي أعجب له أيضاً كيف يتردى الشيخ الصعيدي في هذه الهاوية التي وقع فيها وهو يدفع زعم الدكتور فهو يقول «والذي يعرفه المسلمون جميعاً أن الوحي لم يكن له مع النبي صلى الله عليه وسلم شأن في أمور الدنيا. على أن

---

(١) سورة النجم الآية ٣.

Twitter: @abdulllah1994

الذي يعرفه خاصة المسلمين أن ليس هناك ناحية من نواحي الحياة إلا وقد شملها الإسلام بهديه ووحيه حتى ما يأكل الإنسان ويشرب وما لا يأكل وما لا يشرب. وفي ما يبدي من جسده وزينته وما لا يبدي حتى الاستئذان قبل الدخول والسلام عند الدخول كل ذلك لم يهمل الإسلام تأديب الإنسان فيه. فهل هذه الأمور ليست من أمور الدنيا؟ حتى الأمثلة التي ساقها الشيخ الصعيدي في رده على الدكتور مبارك إنما هي من صميم أمور الدنيا وليست من واقع أمور الدين فعتاب الله سبحانه لرسوله في غزوة تبوك بسبب من استأذنه من المنافقين في القعود. وفي قبوله الفدية من بعض أسرى بدر، هذا كله من الأمور التي تتعلق بالقتال، فالقتال من أمور الدنيا وإذا حاولنا أن نمزج هذا في ذاك فنقول إن القتال أمر ديني فهذا ما يجعلنا نجزم أن أمور الدنيا في الإسلام هي من واقع أمور الدين».

أعتقد أن الأستاذ الصعيدي ـ يرحمه الله ـ لم يأخذ لنفسه الحيطة وهو يرد على من لم يحتط(*).

□□□

(*) نجد نصوص هذه المعركة بالرسالة المجلد السابع ١٩٣٩ الأعداد ٢٩٧، ٢٩٨.

Twitter: @abdulllah1994

ابن هشام في قبضة المبارك

تمهيــد:

في جريدة «البلاغ» ديسمبر ١٩٤٧ عرض الدكتور زكي مبارك للحديث عن العلامة النحوي ابن هشام الأنصاري[1] فامتدحه وقال.. أنه يعرف من فلسفة النحو ما لا يعرفه سيبويه.

ثم عرج على نقده في قوله:

«ويجب في المؤكَّد كونه معرفة وشذ قول عائشة رضي الله عنها: ما صام رسول الله شهراً كله إلا رمضان».

ويبتهج الدكتور كعادته كلما صادف صيداً ثميناً فيظهر ما عنده من رأي ويبرز ما لديه من تجريح يقول الدكتور في تعليقه على قول ابن هشام السابق:

«لأول مرة أستطيع الأخذ بتلابيب ابن هشام الأنصاري فالذي سمعناه وقرأناه أن السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق، وأنها زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام فأبوها عربي صريح وزوجها سيد العرب فكيف يكون في كلامها شذوذ؟».

---

(١) هو الإمام أبو محمد عبدالله جمال الدين المعروف (بابن هشام الأنصاري المصري) ولد بالقاهرة سنة ٧٠٨هـ ونشأ بها، وتلقى من علمائها. كان شافعي المذهب ثم تحنبل. قال عنه ابن خلدون: «ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه». توفي بالقاهرة سنة ٧٦١هـ ودفن بها.

Twitter: @abdulllah1994

وأعتقد أن هذه المحاورة من المحاورات التي جانب الدكتور فيها الصواب أو جانبه فيها الصواب فقد هيىء له أنه أمسك بتلابيب ابن هشام والحق أن ابن هشام هو الذي أمسك بتلابيبه ــ ولست أدري كيف غاب عن الدكتور مسألة الاستشهاد التي تناولها العلماء بالبحث والمناقشة خاصة حول الاستشهاد بالحديث ــ فقد رأى جمهرتهم. إن الأحاديث إنما رويت بالمعنى كما دخلها كثير من الأحاديث الموضوعة والمصنوعة في العصر العباسي، ولهذا منع الكثيرون الاحتجاج بالحديث في اللغة، ومنع بعض النحويين الاستشهاد بها في النحو.

وعلى هذا نجد النحويين يناقشون ألفاظ الأحاديث فيحكمون في بعض الأحيان بشذوذها وأحياناً بخطئها وأحياناً بضعفها ولو صح عندهم الحديث بلفظه لما كان لهم أن يحكموا بتلك الأحكام. فابن هشام إنما يحكم على هذا الكلام المروي عن عائشة.

ولو أن الدكتور زكي مبارك كان قد رجع إلى ما قرره العلماء حول هذا الموضوع في كتب النحو المبسوطة وكتب الشواهد خاصة مثل «خزانة الأدب للبغدادي» لما تعجل الأخذ بتلابيب ابن هشام وكذلك فقد قرر النحويون أن أكثر الألفاظ التي نرى فيها مخالفة نحوية إنما رويت عن عائشة رضي الله عنها ــ وهي مسألة جديرة بالنظر والبحث.

□ □ □

Twitter: @abdulllah1994

الأبواق والبوقات والصنائع والصناعات

تمهيـد:

وهذه واحدة من المحاورات الهادئة التي لم يصل قلم الدكتور فيها إلى حد العنف والثورة وإنما قارع الحجة بالحجة وجابه البرهان بالدليل، وإن كان لم يسلم من شطحات قلمه فأصاب مساجله ببعض الرشاش.

وتفصيل ذلك: أن الدكتور حاول على صفحات «الرسالة» (أرحب ميادينه) أن يصحح بعض الكلمات العامية، وأن يمنحها سمة الفصاحة فضلاً عن حق الاستعمال في الأدب. كذلك فقد حاول جرياً على عادته في إثارة كل ما هو جديد ــ حتى ولو كان غلطاً ــ أن يحكم بالصحة قياساً أو سماعاً على بعض الكلمات التي حكم العرب بشذوذها من مثل (بوقات) ومستشذرات.

ولكن ترى هل سلم له ما أراد ــ لقد انبرى له عالم جليل له في اللغة رأي وله في الدراسات التي تتصل بالنحو نصيب. ذلكم هو الشيخ عبدالحميد عنتر الأستاذ بكلية اللغة العربية فلم يرتض الرأي في أكثر ما قال.

ولكن يبدو أن الدكتور كان يدرك أنه يقف على أرض صلبة فعاود المساجلة حتى أسكت المناضل الأزهري فسكت هو الآخر بينما أفاد العلم وأهله من هذه المحاورة الهادئة.

Twitter: @abdulllah1994

تفاصيل الحوار:

ـ ١ ـ

طالع الدكتور قراءه في «الرسالة»[1] بشذرة من أحاديثه ذوات الشجون فقال تحت عنوان:

«شبهة لغوية» هي شبهة من يتوهمون أن اللفظة الفصيحة هي اللفظة المهجورة ويريدون بها اللفظة التي لا يعرفها سواد الناس، فالكاتب العظيم في نظر هؤلاء هو الكاتب الذي يفضل غير المأنوس من الألفاظ، ويؤثر الألفاظ التي عاشت في المعاجم بقوة التحنيط وإن حرمت الحياة منذ أزمان.

وأنا لا أقيم وزناً لهذا الرأي، وأضيف أصحابه إلى الجهلاء، ولا يؤذيني أن يتهموني بالتسامح في اللغة، كما طاب لأحدهم أن يقول ذلك في إحدى المجلات؛ الألفاظ تتقاتل في سبيل العيش كما يتقاتل الناس، فينتصر فريق وينهزم فريق، ثم يجيء الكاتب الحصيف فيعانق اللفظ المنتصر، ويجيء الكاتب المخذول فيعانق اللفظ المخذول.

كان أحد أعضاء المجمع اللغوي ـ هو السيد حسن القاياتي أنكر علي في مقال نشره في جريدة «البلاغ» منذ سنين أن أستعمل لفظة «يستأهل» بمعنى «يستحق» فكتبت في الرد عليه مقالاً بعنوان «والله تستاهل يا قلبي».

واستعملت مرة كلمة، شاف بمعنى «رأى» فثار خلق من خلق الله وعدوني من المتسامحين في اللغة، فسألتهم عن «تشوف» وهي كلمة كثيرة الورود في قصائد التشبيب، ثم أكدت لهم أن العرب في جميع الأقطار يقولون «شافه» بمعنى «رآه» وقد «شفتهم» بعيني.

أتريدون الحق؟

الحق أن النقد اللغوي عليه الصبغة الببغاوية، وإليكم هذا المثال: قضى

---

(١) الرسالة: العدد ٥٢١، المجلد الحادي عشر.

Twitter: @abdulllah1994

علماء البلاغة نحو عشرة قرون وهم يقولون في مؤلفاتهم وفي دروسهم بأن المتنبي أخطأ في جمع بوق على بوقات حين قال:

فإن يك بعض الناس سيفاً لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول

وكان العجب كل العجب أن يتحامل علماء البلاغة على المتنبي نحو عشرة قرون، ولا يجدون من يهديهم إلى الصواب وأثني على نفسي، للمرة الأولى بعد «الديشليون»، فأقرر أني تفردت برفع الظلم الذي عاناه المتنبي في تلك القرون، ولكن كيف؟

ليست البوقات جمع بوق، كما توهموا، وإنما هي جمع بوقة، والبوقة هي اللفظة الاصطلاحية في موسيقى الجيش العربي، كما تشهد النصوص التي رأيتها في بعض كتب التاريخ.

وهنا أسوق فائدة لا أذكر أني رأيت من ينبه إليها في كتب الصرف، وهي جعل التأنيث من صور التصغير، فالبوقة أصغر من البوق، والطبلة أصغر من الطبل، البحرة أصغر من البحر، وقد بولغ في تصغيرها فصارت بحيرة.

و«ترس» الساقية في عرف أهل الريف له وصلة يسمونها «الفرخ» إن كانت طويلة، ويسمونها «الفرخة» إذا كانت قصيرة وفي شوارع القاهرة نجد بائعاً يتغنى: «حب العزيز الربعة بقرش» فما الربعة؟ هي مصغرة الربع بلا جدال، إن الصفة الببغاوية في النقد اللغوي أضرت باللغة وآذتها أعنف الإيذاء فقد كتب كاتب في «الرسالة» ينقد استعمال كلمة «مرير» بمعنى «المر» وحجته أن المرير هو الحبل المحكم الفتل، ثم اتفق أن رأيت الشريف الرضي يستعمل كلمة المرير ويريد بها المر، فنظرت في أساس البلاغة فوجدت الزمخشري نص عليها بوضوح لا يحتمل الخلاف.

وأنكر قوم جمع صناعة على صنائع، وألحوا إلى أن حملوا وزارة المعارف على تغيير اسم مدرسة الصنائع، مع أن لهذا الجمع شواهد تفوق العد، وعلى أقلام كبار البلغاء وأنكروا أن تنسب إلى الطبيعة فتقول طبيعي، مع أن العرب

Twitter: @abdulllah1994

لم يقولوا طبعي، ومع أن «فعلي» في فعيلة هو في ذاته شذوذ والجرائد تقول «القتيل» وهي تريد القتيلة، لأن قائلاً قال بأن «فعيل» يستوي فيه التذكير والتأنيث، وهذا خطأ، حين قال: رجل دفين وامرأة دفينة.

ولم يفهم النحويون علة التذكير في الآية ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ فعدوه تذكيراً أوجبته المحاورة ونسوا أن «قريب» في معنى الفاعل لا معنى المفعول والمراد من الصفة الببغاوية في النقد اللغوي هو أن يحكي بعض الناس ما يقرأون حكاية الببغاوات فأكثر ما نرى من اعتراض ألفاظ منقولة عن ناس تعرضوا للنقد اللغوي بلا بصيرة ولا يقين.

لغة العرب لغة أبائنا وأجدادنا، فليعرف من لم يكن يعرف أن خطأنا فيها أفصح من الصواب. وإننا لن نستمع لأي اعتراض بعد أن ركزنا الراية فوق ناصية الخلود.

ـ ٢ ـ

ولكن ما باله لو أسمعناه اعتراضاً من مختص في هذه الدراسات هو الأستاذ الشيخ عبدالحميد عنتر الأستاذ بكلية اللغة العربية وقتذاك حينما يعقب بكلمة في(بريد الرسالة)الأدبي[1] تحت عنوان إلى الدكتور (زكي مبارك) فقال:

١ ـ أخالفك كل المخالفة في قولك: إن (شاف) بمعنى (رأى) يستعمل في اللغة، بدليل (تشوف) بمعنى نظر، وأن العرب في جميع الأقطار يقولون: (شافه) بمعنى (رآه)، وقد (شفتهم) بعينك. وأقول: الحق: إن العرب العرباء لم تستعمل شاف بمعنى أبصر لا في شعر ولا في نثر ولو كان ذلك لنقل إلينا في كتب اللغة، أما الذين سمعتهم يلفظون هذه اللفظة فهم عرب في النسبة لا في اللغة الصحيحة (الفصيحة).

وفي قولك إن علماء البلاغة منذ عشرة قرون أخطأوا في تخطئة المتنبي حين جمع بوق على بوقات في قوله:

---

(١) العدد ٥٢٣، المجلد الحادي عشر.

Twitter: @abdulllah1994

فإن يك بعض الناس سيفاً لدولة ففي النـاس بوقـات لهـا وطبـول

وإنك تفردت برفع الظلم عن المتنبـي، وجعلت البوقات جمع «بوقة» مصغر بوق، وهي لفظة اصطلاحية في موسيقى الجيش العربـي، كما يؤخذ ذلك من نصوص في بعض كتب التاريخ.

وأنا أقول إن كتب التاريخ ليست متون لغة يعتمد عليها في إثبات الكلمة العربية. وساق الدكتور فائدة صرفية لم نر أحداً من الصرفيين نبه عليها في كتب الصرف، وهي جعل التأنيث من صور التصغير، فالبوقة أصغر من البوق، والطبلة أصغر من الطبل، والبحرة أصغر من البحر، وقد بولغ في تصغيرها فصارت بحيرة، وما الربعة إلا مصغر الربع بلا جدال.

ولكن ما قولك في أن الأمثلة التي سقتها لما فيه التأنيث غير صحيحة؟ فليس في لغة العرب (بوقة ولا طبلة ولا بحرة ولا ربعة) بالمعاني التي تريدها، حتى يحتاج الصرفيون إلى التنبيه على أن التأنيث قد يكون من صور التصغير، أما لفظ (بحيرة) فهو من الكلمات التي لا تستعمل إلا مصغرة كقولهم: كُميت للفرس وكُعَيت وجُمَيل لطائرين صغيرين.

ثم قلت: أنكر قوم جمع صناعة على صنائع فحملوا وزارة المعارف على تغيير اسم مدرسة الصنائع مع أن لهذا الجمع شواهد تفوق العد. والواقع يا دكتور أن صناعة لم تجمع في لسان العروبة على (صنائع) لا في منثور الكلام ولا في منظومه، وليعلم أن (صنائع) في كلام العرب جمع صنيع أو صنيعة ومنه الحديث «صنائع المعروف تقي مصارع السوء» على أن لفظ (صناعة) من مصادر الحـرفة، وهي لا تجمـع في اللغة عـلى «فعائـل» فكما لا يقـال في تجـارة تجائر، لا يقال في صناعة صنائع.

- ٣ -

ويعاود الدكتور السجال في أحاديثه ذوات الشجون قائلاً تحت عنوان الثروة اللغوية: من الكلمة التي نشرتها «الرسالة»[١] لحضرة الأستاذ عبدالحميد

---

(١) الرسالة: العدد ٥٢٤، المجلد الحادي عشر.

Twitter: @abdulllah1994

عنتر فهمت أنه يقصر المحصول اللغوي على المأثور عن «العرب العرباء» وهي الأمة التي شهدت العصر الجاهلي وصدر العصر الإسلامي، وفي هذا القول رجعة إلى أقوال كانت ترى أن اللغة ختمت بالأقفال بعد هذين العصرين، وهو قول كان يجد من يطمئن إليه قبل أن تتفتح العقول إلى النظر الصادق في العصر الحديث.

وأقول: إن مصادر الثروة اللغوية عندنا هي ما نطق به العرب في جميع العصور وفي جميع البلاد، ولو كان فيه دخيل. وأقول أيضاً إن وجود الألفاظ الـدخيلة في أي لغة يشهد لها بالحيوية، لأنه يدل على أنها أخذت وأعطت، واللغة التي تسلم سلامة تامة من الألفاظ الدخيلة لا توجد إلا في القبائل المحصورة بين جدران من الجهل والركود.

وعندي أنه يمكن الحكم بأن شعراء الجاهلية لم يكونوا يملكون من الثروة اللغوية مثل الذي نملك، لأنهم عاشوا في آفاق محدودة، ولأن التفوق اللغوي لم يكن من المقاصد التي يشغل بها الناس في القديم على نحو ما يشغلون في هذا الزمان، فكلمة «العرب العرباء» كلمة طنانة، ولكنها لا تنفع بشيء، فمجد العرب الحق، المجد الذي بجله التاريخ، هو مجدهم بعد الفتوحات الإسلامية، وبعد أخذهم ما استطابوا من مواريث الشعوب.

وهنا حقيقة لم تأخذ حقها في الالتفات، وهي فضل الدخيل في إمداد اللغة العربية، بالثروة لعهد الجاهلية وبيان ذلك أن جاهلية العرب الملحوظة هي جاهلية قريش، وقريش لم تعرف حياة العزلة بسبب البيت فقد جمع حولها الناس وعرفها ما لم تكن تعرف، من طرائق المعاش، وطرائف الخيال، كان للعرب في الجاهلية ما يزيد عن سبع لغات، وكان من الصعب أن يتفاهم أهل الشمال مع أهل الجنوب، فكيف ضعضعت تلك اللغات وبقيت لغة قريش؟ يرجع الفضل إلى «البيت» أولاً وإلى الإسلام ثانياً، ولكن كيف اتفق ذلك ولم تكن مهمة البيت مهمة لغوية، ولا كانت رسالة الإسلام رسالة لغوية؟

يرجع السبب إلى أن الضجيج الاجتماعي والجدال الديني والسياسي

Twitter: @abdulllah1994

مما يزيد في ثروة اللغات، ومن هنا نجد في القرآن وفي الأحاديث ألفاظاً أجنبية منقولة من اللغات الفارسية والعبرانية واليونانية والحبشية والمصرية، لأن ذلك الضجيج وذلك الجدال قضيا باقتباس تلك الألفاظ من تلك اللغات وكذلك الحال في كل لغة تفرق أهلها إلى طوائف من الشعوب.

قولوا الحق أيها الناس. هل كان العرب الذين تلقوا القرآن يلتفتون إلى أن كلمة (سندس) كلمة فارسية وأن كلمة (اليم) كلمة مصرية؟.

إن تنقية اللغات من الدخيل فكرة حديثة العهد بالوجود في أكثر بقاع الأرض، ولعلها لم تعرف إلا بسبب العصبية العنصرية، كالذي وقع حين رأى الفردوسي أن تخلو (الشهنامة) من الألفاظ العربية فيما قبل، كالذي وقع من الأتراك فيما بعد، وهذه وتلك من النزعات الشعوبية، وإذا جاز هجر الألفاظ المنقولة من لغات أجنبية فكيف يجوز هجر الألفاظ الأصلية في اللغة العربية؟.

... إن الأستاذ / عبدالحميد عنتر قد جانب الصواب حين أنكر كلمة (أشوف) بمعنى (أبصر) مع أن العرب قالوا: تشوف بمعنى تطلع، ويبدو أنه أخطأ حين قال: «إن كتب التاريخ ليست متون لغة يعتمد عليها في إثبات الكلمات العربية» فأكثر المؤرخين أدباء فضلاء، ومؤلفاتهم تعد من المراجع اللغوية.

قال ابن مسكويه «وخرج الجند بالبوقات والطبول» وهو كاتب فحل يكاد يعاصر المتنبي، أفلا يكون كلامه شاهداً على أن (البوقات) كانت كلمة اصطلاحية في ذلك الحين؟ وهل كان يصعب على المتنبي أن يقول (أبواق) لو كانت هي الكلمة التي يريد؟ وهل نُخَطِّىء المتنبي لنصوب من نقدوه عن جهل؟ ولنصوب من قتلوا ذلك النقد المنحرف بلا بصيرة ولا يقين؟ وما الرأي في كلمة (مستشزرات) التي عابوها على امرىء القيس منذ اشتغلوا بعلم البلاغة إلى اليوم؟.

ما الرأي وهي أفضل كلمة في هذا البيت:

غدائره مستشزرات إلى العلا   تضل المدارى في مثنى ومُرسَل

Twitter: @abdulllah1994

ثقلت عليهم الكلمة فعابوها، مع أن ثقلها مقصود، لأنها بهذا الوصف تمثل ما أراد امرؤ القيس.

ولو طاوعناهم لحذفنا من اللغة كل لفظة تعوزها النعومة واللين وهذا مطمح لن يصلوا إليه، لأن اللفظ الوعر في موطنه مقبول ومنشود. وأنكر الأستاذ لفظة بحرة وقال: أنها لفظة لا تعرفها لغة العرب فليرجع إليها غير مأمور في القاموس المحيط.

وأنكر كلمة طبلة فهل يرى الاستغناء عنها بكلمة طبل؟ وأنكر كلمة ربعة، فهل يضع مكانها الربع وهي أصغر من الربع؟

وقال إن جمع صناعة على صنائع لم يرد في منظوم الكلام ولا منثوره، فهل يدفع ديناراً على كل شاهد لأظفر منه بمائة دينار أطبع بها كتاب «أدب الشواطىء» أما بعد فإن مصادر الدولة اللغوية عندنا هي ما نطق به العرب في جميع العصور وفي جميع البلاد، ونحن نكره أن يكون محصولنا اللغوي محصول جيل أو جيلين ونحن مع هذا لا نرحب إلا بالكلمات المأنوسة التي صارت نصاً في الدلالة على أشياء لا يدل عليها بغير تلك الكلمات.

قال قائل: إن كتب التاريخ ليست متون لغة، فما رأيه في كتب الفقه الإسلامي؟.

لا شك أن كتب الفقه تحوي ذخائر لغوية نفيسة جداً، ولعلها أدت للغة خدمات لم تؤدها كتب الأدب الصرف؟ لأنها أذاعت مرونة التعابير في كثير من البيئات، ولأنها حوت الدقائق من محاورات الناس في الأسواق.

وخلاصة القول أني أعجب بما يسمونه عهد «العرب العرباء» ولا أدير بالاً لمن يدعو إلى الاكتفاء بما عرفت العرب العرباء فلو بعث عرب الجاهلية لعجبوا من الثورة اللغوية في هذه الأيام واعترفوا بأن أحفادهم نجباء... نجباء».

ثم يختتم كلمته بعد سخرية أصاب فيها معارضه إصابات خفيفة بقوله:

Twitter: @abdulllah1994

«كونوا كتّاباً وشعراء وخطباء قبل أن تكونوا ناقدين وإلا عندكم جواب هذا السؤال. . .».

والغريب أن الدكتور زكي مبارك عاب على المرحوم الرافعي كثرة أولياته حينما نقد كتابه «أوراق الورد» بينما استأثر لنفسه بهذه الأوليات «فهو يزعم أنه أول من أنصف المتنبـي فدل الناس على أن بوقات جمع صحيح (للبوق) أو للبوقة. . . وهو أول من قال كذا وأول من قال كذا ولو تمعن الدكتور مبارك ــ رحمه الله ــ لعلم أنه ليس أول من غلط البلاغيين وغير البلاغيين ــ وليس أول من أنصف المتنبـي فقد سبقه صاحب المصباح المنير بقرون عدة، حينما جمع بين دفتي معجمه الصغير[1] ما عجز البلاغيون عن جمعه أو بحثه فقال في كون الجمع سماعي «البوق بالضم معروف والجمع بوقات، وبيقات بالكسر. . .» أما القياسي فقد ورد في مادة «أبق».

من المعجم نفسه[2]. . . قال ابن الإنباري: «واعلم أن جمع غير الناس بمنزلة جمع المرأة من الناس نقول فيه منزل ومنزلات ومصلى ومصليات وكذلك فقد جاء في المعجم الوسيط»[3] البوقة ــ الدفقة الشديدة من المطر. . . والبوق (ج) بُوَق وبوقات.

وإذا كان التوفيق قد جانب الدكتور زكي مبارك في بعض ما كتب فقد صادفه في كثير مما كتب. . . وبالذات في محاوراته التي كان ينضح منها العلم زلالاً غدقاً طيباً. . . وبعد.

وهذه المحاورة وإن لم تكن أدبية فهي إلى الأدب أميل فاللغة هي المادة الأساسية للتشكيل الأدبـي.

□ □ □

---

(١) ص ١٠٦ الجزء الأول (مادة بوق).

(٢) مادة (أبق) ص ١٠١ الجزء الأول من المصباح المنير «مصدر سابق».

(٣) مادة (باق) ص ٧٧، الجزء الأول من المعجم الوسيط ــ الطبعة الثانية ــ مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdullllah1994

زكي مبارك في معركة مع نفسه

تمهيـــد:

تقدم الدكتور مبارك برسالته الأولى لنيل درجة الدكتوراه إلى الجامعة المصرية القديمة بمؤلفه عن «الأخلاق عند الغزالي»[1] وحاول وهو في مطلع حياته الأدبية أن يحدث ضجة حول آرائه فعارض آراء الغزالي في الأخلاق وساق في لوم حجة الإسلام التهم الجسام كقوله:

إنه لم يقم بدور العالم العامل في معركة الإسلام ضد الصليبيين وإنه اعتكف في صومعته بينما قساوسة النصارى يجوبون بلاد أوروبا لحث المسلمين على الجهاد مع أنه حجة الإسلام.

ومن ذلك قوله: «إنه لم يعن إلا بالفضائل السلبية ولم يشرح الفضائل الإيجابية وثارت ثائرة رجال الدين يومها ــ واتهموه بالإلحاد والزندقة ــ كشأنهم دائماً مع كل باحث له رأي جديد ــ وانتقلت المعركة من قائمة المناقشة إلى جريدة «المقطم» حيث صُوِّر زكي مبارك بصورة الثائر على التقاليد الدينيـة. وينصحه الدكتور منصور فهمي والدكتور طه حسين ــ حسب تجربتهما من قبل ــ أن يسكت حتى تمر العاصفة ــ واستجاب (المبارك) لنصحهما فسكت حتى مرت العاصفة بسلام ولم يكن عليه من حرج إذا ترك الأمر على ما هو عليه ــ مثلما فعل غيره كثيرون ــ ولكنه عاد إلى الرشد وجادة الصواب حينما تقدم برسالته الثالثة للدكتوراه إلى الجامعة المصرية الجديدة بدراسة في التصـوف

---

(١) كان ذلك عام ١٩٢٤.

Twitter: @abdulllah1994

الإسلامي فنقض آراءه التي بنى عليها دعائم رسالته الأولى واعترف بأنه كان مغرضاً وأنه كان يطلب الشهرة واعترف أيضاً أن الأخلاق عند الغزالي لم تكن إلا دعوة صريحة للتشكيك في أصول الأخلاق الموروثة عند القدماء.

وينهي مقاله الذي نشره في «الرسالة»[1] تحت عنوان «إليك أعتذر أيها الغزالي» بقوله:

وبعد فقد راضتني الأيام بعد الجموح وانضممت كارهاً إلى العصابة التي تقول بأن الرياء سيد الأخلاق والآن إلى نص المقال حتى يتضح الموقف كاملاً:

شاع منذ أعوام أن كتاب «الأخلاق عند الغزالي» من تأليف الدكتور منصور فهمي وهي إشاعة تشرفني وترفع من قدري. فأنا تلميذ هذا المفكر الجليل. ولو قضيت العمر في الثناء عليه لما وفيته بعض حقه من تعليمي وتثقيفي.

ولكن كتاب «الأخلاق عند الغزالي» كتابـي لا كتابه بشهادة ما فيه من غطرسة واستعلاء وأستاذنا الدكتور منصور فهمي آية في التواضع المقبول ألم يرفض جماعة من علماء العراق مصافحتي بحجة أني آذيت الغزالي؟! ألم يقل جماعة من علماء مصر بأني وجهت أقوال الغزالي إلى غير ما كان يريد؟.

ألم يقترح الأستاذ جاد المولى بك أن ينص في محضر الامتحان أن اللجنة غير مسؤولة عما في الكتاب من آراء؟

ويظهر أن المؤلف كان يعاني ثورة روحية وعقلية عند تأليف هذا الكتاب فقد صاحب الغزالي من مؤلفاته نحو خمس سنين. فأسره الغزالي على نحو ما يصنع بمن يواجهون فكره الوهاج.

ورأى المؤلف أن تأليف كتاب في «الأخلاق عند الغزالي» لا يتيسر إلا بعد النجاة من أسر الغزالي فجمع قواه وكسر باب الأسر ليتنسم روح الحرية الفكرية وليلقى الغزالي لقاء الند للند إن كان للغزالي أنداد.

---

(١) الرسالة: ٣ نوفمبر ١٩٤١.

Twitter: @abdulllah1994

وفي مدى ثلاث سنين استطاع ذلك الشاب أن يكتب رسالة للدكتوراه في الفلسفة عن «الأخلاق عند الغزالي» وهي رسالة شرقت وغربت بحق أو بغير حق، واهتم الدكتور (سنوك هوجريته) فنشر في الثناء عليها بحثاً باللغة الهولندية كان طليعة التنويه بالمؤلف في بيئات المستشرقين.

واستطاع كتاب الأخلاق عند الغزالي أن يقاوم هجمات الناقدين عدداً من السنين إلى أن تعرض له ناقد لا يرحم المؤلف، وإن كان يحمل اسم المؤلف، ففي اليوم الرابع من إبريل سنة ١٩٣٧ وقف طالب يؤدي امتحان الدكتوراه في جلسة علنية بالجامعة المصرية، وكان أكبر همه أن ينقض آراء الطالب الذي وقف هذه الوقفة في الخامس عشر من شهر مايو سنة ١٩٢٤ فماذا صنع؟ أثبت في كتاب «التصوف الإسلامي»، أنه ظلم الغزالي في كتاب الأخلاق عند الغزالي والحكم على النفس من مظاهر القدرة على مغالبة الأهواء.

وقال زكي مبارك: وهذا كتاب ألفته في أوقات كنت فيها ثائر القلب والعقل على فهم القدماء للأخلاق، وهي ثورة لم أنج من شرها إلى اليوم، وقد أسايرها وتسايرني إلى آخر أيامي، وكيف يهدأ من يروعه أن يرى في رحال الدين من يعرفون خريطة الحياة الأخروية ويجهلون خريطة الحياة الدنيوية. والواقع أن كتاب «الأخلاق عند الغزالي» لم يكن إلا دعوة صريحة إلى التشكيك في أصول الأخلاق الموروثة عن القدماء.

يقسم المؤلف الفضائل إلى قسمين: فضائل سلبية وفضائل إيجابية ثم يقرر أن (الغزالي) وجه اهتمامه إلى الفضائل السلبية ولم يعن بشرح الفضائل الإيجابية كالشجاعة والإقدام والحرص وما إلى ذلك مما يحمل المرء على حفظ ما يملك والسعي لنيل ما لا يجد، فإنه لا يكفي أن يسلم الرجل من الآفات النفسية بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة. وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة من أن يتحلى بفضائل الضعف فإن الضعف شر كله ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

عاب المؤلف على رجال الدين أن ينسحبوا من الميدان السياسي في الأوقات التي يفرض فيها الجهاد فطوق الغزالي بطوق من حديد حين سجل أنه

Twitter: @abdulllah1994

لم يؤد واجبه في التحريض على مقاومات الحملات الصليبية، مع أنه حجة الإسلام ومع أن صوته كان مسموعاً في أكثر الأقطار الإسلامية.

أنكر المؤلف على الغزالي أن يتعلق بأهداب الآداب السلبية التي دعا إليها الإنجيل.

ثم قال: وقد رجعت عن بعض الآراء المدونة في هذا الكتاب حين ألفت كتاب «التصوف الإسلامي» وبين الكتابين أعوام تنقل بينها عقلي من أفق إلى أفق.

أما أسلوب الكتاب فيغلب عليه الحذر والتهيب. وقد يصل إلى الرمز والإيحاء لأن المؤلف كان يعاني رقابة عنيفة. هي رقابة اللجنة المكلفة بالنظر في صلاحيته لامتحان الدكتوراه.

وبعد فقد راضتني الأيام بعد الجموح وانضممت كارهاً إلى العصابة التي تقول بأن «الرياء سيد الأخلاق».

والجدير بالذكر أنه تعرض في إشارات خاطفة إلى نقد كتابه «النثر الفني» فقال:

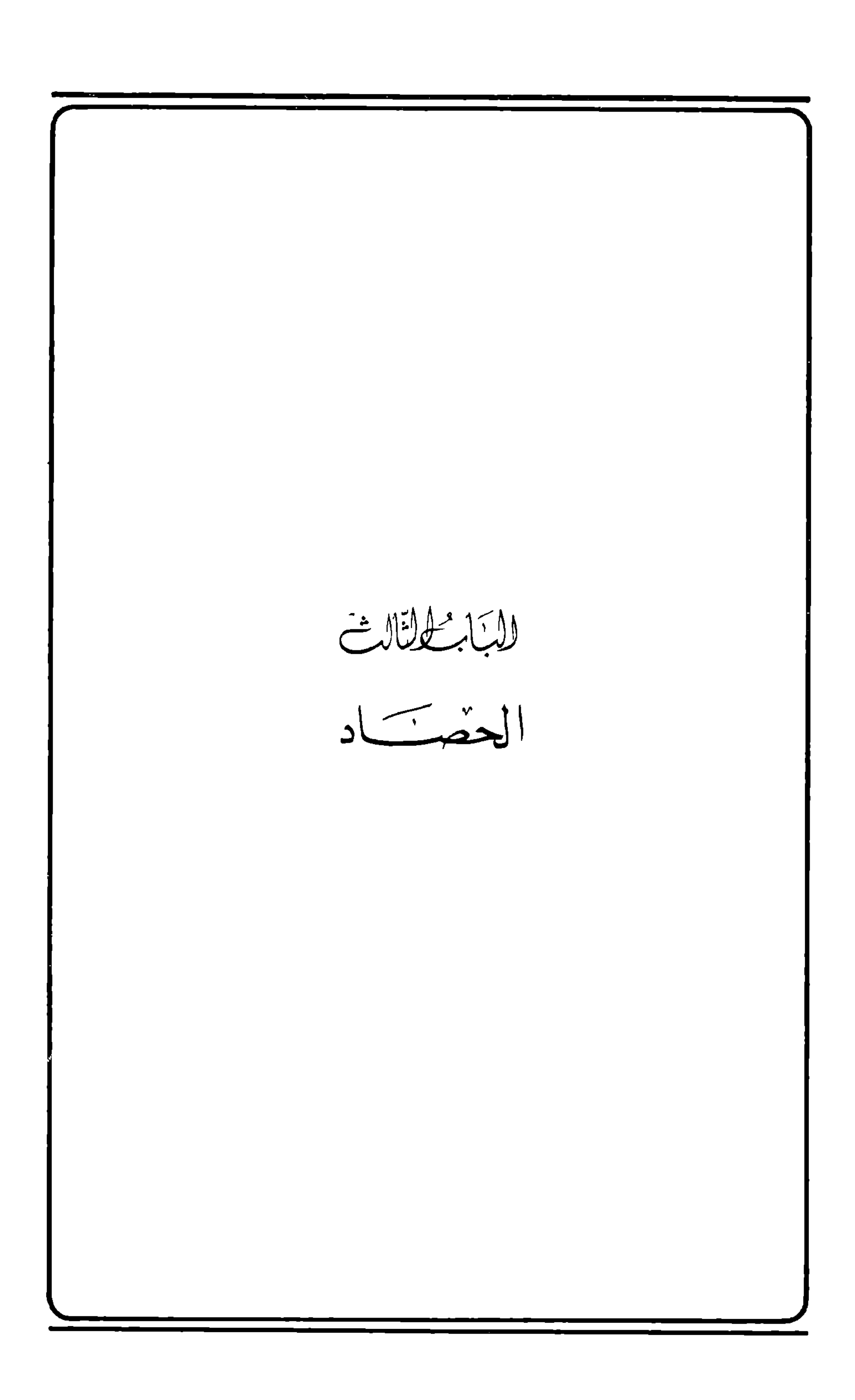
إن من عيوبه ـ غلبة النزعة الوجدانية في الرسالة العلمية واختلاف منهج التأليف في الكتاب وارجع العيب الأخير إلى أنه لم يؤلف في عام واحد.

أما موقفه من «التصوف الإسلامي» فقد وقف منافحاً دونه، معجباً به إلى أن مات (رحمه الله) وغفر له(*).

□□□

(*) لمتابعة النصوص يمكن الرجوع إلى مقدمة التصوف الإسلامي وإلى مجلة الرسالة المجلد التاسع ١٩٤١ نوفمبر.

Twitter: @abdulllah1994



الباب الثالث

الحصاد

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdullllah1994

حول المعارك ومناهج العراك

وبعــــد:

فقد صاحبت (مبارك) في رحلة عريضة تيسر لي خلالها أن أدرس جوانب من حياته وفصولاً من أدبه وأساليب معاركه فماذا وجدت هناك؟.

لا شك أن الناظر إلى نتائج المعارك التي خاضها زكي مبارك يتضح له جملة خصائص طاف حولها قلم الرجل في معاركه حتى تكون له من مجموعها ديوان حرب ضروس ظل يذكرها بالفخر ويضيف إليها من حلل الثناء حتى مات، ولو شئنا لقلنا إن الفخر والثناء نفسه كان سمة من هذه السمات التي نحن بصددها فلقد كان يوهم خصمه منذ بدء العراك أنه لن يأخذ أمام قلمه ــ أكثر من جولة أو جولتين على الأكثر، ولن يتحمل منه سوى ضربة أو ضربتين يرتد بعدها إلى عقر داره فيسكت سكوت الأبد أو إلى خزانة كتبه فيحرقها لأنه ليس بأديب ولا يحق له أن يكون. ثم هو يعلن عن نفسه بأنه دوخ فلاناً من الأدباء، وصرع علاناً من المفكرين وأجبر زيداً على الفرار من ميدان المعارك، وقاتل عمراً حتى استغاث بزيد.

وهكذا كان يجيد أساليب الكر والفر والنزال، ولو شئنا لقلنا ذلك على حد تعبير العصر إنه كان يستخدم أحدث الأسلحة وأفتكها وما أظن إلا أنه كان يسهر على صنعها في صومعته بمصر الجديدة أو في مشربه المختار بميدان الأوبرا. أو في سهرته المحببة بدار الرسالة.

ولا ضير إذا قلنا هذا القول فليس ذلك من قبيل التصوير الأدبي بقدر ما هو من قبيل الحقيقة ذلك أن الرجل كان يعيش من قلمه ولقلمه، كان يعيش

Twitter: @abdulllah1994

وقلمه متأب جموح ينزع إلى الشر وإشعال النيران فهو في النثر كعبدالحميد الديب في الشعر مع فارق بسيط وهو أنه كان (أعني مبارك) ذا منصب وبيت وأولاد أما الديب فكان مرتزقاً . . . وكفى.

كذلك فلقد كان من السمات الواضحة التي تكون أدبه في العراك أنه كان على كثرة معاركه وثرائه في هذا اللون طيب اللسان (إلى حد ما) فلم يكن مقذعاً في أسلوبه أو مسفاً في هجماته بالقدر الذي كان عليه الرافعي مثلاً وسنوضح ذلك فيما بعد وإنما كان عليه أن يشعل نار المعارك ليكتوي بنارها الخصوم ممن يوهمهم أنه فارس الفرسان وما هم سوى رعايا وتابعين من الخدم والحشم يعيشون في مملكة الفن التي هو صاحبها ومن هنا كانت غلبته في أكثر الأحيان. ثم هو يتبع قانون الحرب الحقيقية بأن يأخذ من يهزم أمامه في المعركة أسيراً ولن ينسى تاريخ الأدب أبداً قوله للأستاذ السباعي بيومي ـ أثناء معركته معه: وإلى أن يثبت أن الراوي افترى عليك أعلن غضبي عليك، لا شك أنها صيحة (هتلرية) يراد بها التأثير والتخويف ولن ينسى تاريخ الأدب أيضاً أنه أول معارك أدبي فرض الجزية على خصومه فهو يطلب من الأستاذ السباعي إذا أراد أن يخلص من يده أن يقدم نفسه للعمل متطوعاً في تحرير الرسالة بدون أجر لمدة ثلاث سنين.

وهذا هو الشيخ عبدالله عفيفي يجأر بالشكوى منه فيخاطبه قائلاً: أتريد أن تفرض الجزية وتضرب الأتاوة على الأدباء ليصونوا أعراضهم بالفدية؟ لا لن يكون . . .

وقد كان مما يلجأ إليه محاولة إيهام خصومه أنه قادر على مناوأتهم جميعاً وأن يشن الحرب في جبهات مختلفة فبينما ترى له حملة في «البلاغ» ترى له حملة في (الصباح) وأخرى في مجلة «الإثنين والدنيا» التي كانت تصدرها دار الهلال خلال الأربعينيات من هذا القرن ثم هو أحياناً يشن حملة في «الرسالة» ويرد في نفس الوقت على هجوم في «البلاغ»، ولا ضير عنده أن يصد المناوشين له على صفحات (المصري) ولا يعبأ بما يكلفه ذلك من إرهاق في بث الإمدادات على طول الجبهات

Twitter: @abdulllah1994

المفتوحة وكيف يعبأ وهو صاحب قلم مدرار، وبيان خصب، وسجلات مفتوحة فيها لكل أديب نقطة ضعف، ولكل خصم تاريخ أسود؟

ولقد ظل زمناً ــ على هذا الحال ــ يرهبه الأدباء بمجرد السماع ويخشونه لمجرد الحديث فهو إذا قال قولاً سمع، وإذا طلب طلباً نفذ، حتى قيض الله من كشف أسرار خداعه فدل الآخرين على مقاتله ونبههم إلى أن (زكي مبارك) الذي يخشونه ويخافونه ما هو إلا أسطورة ووهم وأنه كعبيد الله جميعاً من الممكن التغلب عليه ــ ومن ثم فقد تهاوى مجده، وأفل نجمه وقل بريقه حينما طعن تلك الطعنات العنيفة التي بدأ الغمراوي في تسديدها إليه خلال الأربعينيات من هذا القرن.

كذلك فقد كان من أساليب (المبارك) في الجدل والخصام أساليب كتلك التي تكون في الحرب تماماً بتمام ولنستمع إلى خصم من أقوى خصومه هو الأستاذ محمد أحمد الغمراوي ليحدثنا عن خصيصتين من تلك الخصائص ولا ينبئك مثل خبير يقول «رحمه الله»: وللدكتور في الخصام حيل كتلك التي تكون في القتال منها:

«أن يلقي إلى خصومه أقوالاً يرجو أن يشغلهم بها وأن يشكك الناس فيها» ولعل الأستاذ الغمراوي يقصد أن يقول: أن الدكتور مبارك معارك محتال فهو يلقي الصيد الثمين إلى خصمه لينشغل به ثم لا يلبث أن ينقض عليه من خلف أو من أمام بعد أن يكون الخصم قد استهلك قوته في قتال الصيد الذي أغراه به، أقول: وهي حيلة إن جازت في ميادين القتال القديمة فلن تفلح هنا لأن طبيعة العلم أنه شرار يجر بعضه بعضاً وتدعو معانيه أخوات لها، والدكتور مبارك في رأينا كان أقرب إلى «العشوائية» في معظم معاركه منه إلى الخبث والدهاء اللذين اتهمه بهما الأستاذ الغمراوي؛ فهو أحياناً يضرب عن عجز، وأحياناً يضرب عن غير عمد ثم هو أحياناً يقصر الجدل ويطويه إذا شعر من غريمه بقوة لا طاقة له بها وهو أحياناً يواصل ضرباته حتى يزهق روح خصمه، ثم هو مرة يضرب في قوة، ومرة يضرب في تخاذل وضعف. أقصد من وراء ذلك أن أقول أن الدكتور زكي مبارك ــ يرحمه الله ــ لم يكن يصدر في معاركه عن

Twitter: @abdulllah1994

برنامج معين كما يقولون في لغة الحرب (تكتيك) وإنما يترك كل معركة ترسم الصورة التي تدور فيها أو بمعنى آخر يلبس لكل حالة لبوسها فهو مع أحمد أمين غيره مع الغمراوي وهو مع طه حسين غيره مع زكي باشا وهذا في حد ذاته منهج من مناهج العراك.

يعـود الأستاذ الغمراوي إلى متابعة القول: «وحيلة أخرى لهذا الرجل أن يلقي إليك المعنى يعرف أنك تأباه. مقروناً بمعنى آخر يعرف أنك ترضاه: ليسهل عليك بهذا قبول ذاك، أو على الأقل ليوقفك موقف المرتاب فتراه مثلاً يقول لك: «انتفع الصوفية بسماحة الإسلام وهو دين يأبـى أن يكون بين المسلم وربه وسيط، فقرروا أنهم أرفع من الأنبياء وهذا كفر بظاهر القول ولكنه في الجوهر غاية الإيمان» فانظر كيف يرتب على المعنى الذي يعرف أنك ترضاه معنى يعرف أنه لو ألقاه إليك مجرداً لأتيت عليه ولنبذت إليه.

وإذا كان ما مضى في حساب قوته وأرباحه فأين هو حساب مقاتله وخسائره؟

من الغريب أن هذا الرجل الذي كان ذا قوة هائلة على الصيال والذي دوخ جيوشاً جرارة من الأدباء والعلماء، والذي كان لا يتحرج أحياناً من أن يترك جبهته مكشوفة استهانة بمن يعاركه ــ من العجيب أن يكون هذا الرجل الذي وصفنا ليس معاركاً أصيلاً أو بمعنى آخر كان لا يصدق في معاركه عن طبع أصيل وهدف محدد ودليلنا على ذلك هو تعدد مقاتله وكثرة خسائره وانثلام أسلحته وهذا اجمال يحتاج إلى تفصيل.

فمثلاً:

تميزت بعض معاركه بالإسفاف وهذا ما لا يصدر عن الطبع الأصيـل والهدف المحدد فلقد وصل به الحال أن يقول في بعض معاركه من الكلام ما لا يقال، وأن ينشر من الشتائم ما لا يليق أن ينشر ولست أدري ما الذي سوغ لأصحاب المجلات والجرائد أن يغروه بهذا الإسفاف المريع، إنني لم أجرؤ أن أنقل رأيه في الشاعر الكبير المرحوم علي الجارم ــ لأن هذا الرأي يدمغ (المبارك)

Twitter: @abdulllah1994

بوصمة (عدم الكياسة) في مخاطبة الناس وتقديرهم ومن الغريب أنه أودع جانباً من هذه الآراء الفجة مقدمة ديوانه «ألحان الخلود».

كذلك فهو نزاع إلى الشر وللشر جالب فما تكاد تهدأ معركة حتى يحاول إشعالها من جديد وكأنه لا يعارك إلا من أجل العراك.

ولننظر في ذلك قضية الصفاء بين الأدباء التي دعا إليها الأستاذ الحكيم فأبـى هو إلا أن يحيلها إلى معركة.

ولننظر في ذلك أيضاً معركتـه مع طـه حسين والتي أسمـاها بعض الدارسين بمعركة «لقمة العيش» فما تكاد تهدأ ويجنح إلى السلم حتى يشعلها من جديد وكأنه يقول للشر أنا هنا وأنت هناك وطه حسين بيننا إلى الأبد.

ولو تناسينا ــ بعض معاركه ــ التي ندلل بها على أنه غير أصيل في معاركه فلن ننسى له أبداً ذلك التناقض الغريب الذي وقع فيه أثناء خصوماته ــ فهو يطلق الرأي في صاحبه اليوم وينقضه غداً، وهو يرسل الرأي في قضية من القضايا الأدبية ليبرهن على ضده في نفس العام.

يكتب مرة في الرسالة ١٩٣٩م أثناء معركته مع أحمد أمين حول الأدب الجاهلي: «إن هذا الرجل (يقصد أحمد أمين) لم يؤت أسلوباً خاصاً وأنه ما كان في يوم من الأيام أديباً وأنه ليس له أسلوب». ثم يعود إلى هذا الرأي فينقضه أثناء حديثه عن أحمد أمين في الرسالة (نوفمبر ١٩٤٠) ليقول «يجب الاعتراف بأن لأحمد أمين أسلوباً خاصاً وبأن لهذا الأسلوب شخصية تتميز بالسهولة والوضوح».

وبينما يقول عن طه حسين: «ولعلي لم أر في حياتي رجلاً قليل العلم كما رأيت طه حسين، ومع قلة محصوله العلمي تراه يتكلم كلام المحققين»[1].

تراه يعود ليقول عنه في مكان آخر ويؤكد ذلك بأعظم الأيمان «واقسم بالله

---

(١) معركة لقمة العيش نقلاً عن المعارك الأدبية لأنور الجندي.

Twitter: @abdulllah1994

صادقاً ما رأيت من هذا الرجل وقد صاحبته اثني عشر عاماً، إلا القلب الطيب والأدب البارع، والخلق المتين».

وفي الفصل الذي عقدناه للحديث عن مبارك مع الزيات والرسالة طرف يكمل هذا الحديث ولن نستطيع أن نفسر هذا التناقض في أحكامه وآرائه إلا بعد أن نرده إلى سببين:

أما أولهما: فضعف الذاكرة الذي مني به في أخريات حياته وقد بيناه في موضعه من فصل الملامح.

أما ثانيهما: فيعود إلى تبدل الحالات الوجدانية معه فهو تارة غاضب يرسل الرأي السيء وهو تارة راضٍ يرسل الرأي الحسن.

أما تلك الخصيصة التي اشتهر بها خاصة في أخريات حياته من الهروب خلف الستائر الوهمية فهي من أبرز الدلائل التي تشير إلى ما ذكرنا ــ فلقد كان ــ يرحمه الله ــ يتردد ألف مرة أمام الخصم العنيد وبالرغم من شدة المعارضة وحدة الشكيمة، ومرارة القتال، تلك الصفات التي اشتهر بها تراه في كثير من الأحيان يسرع بالهروب من الميدان حرصاً على كرامة قلمه تارة وخوفاً من ضربات مبارزه تارات أخر، فلقد تهيب في مواطن كثيرة قلم العقاد فلم ينازعه طويلاً، وتهيب قلم الرافعي فلم يصارعه أكثر من جولة أو جولتين بينما أغرى بلحم أحمد أمين وطه حسين لأنهما آثرا السكوت عنه وعدم مبادلته الجدال، كذلك فقد أنهى القتال بينه وبين الأستاذ السباعي بيومي حينما أحسّ بأن «مدفعيته الثقيلة» تكاد تقصف مواقعه، فلقد كال له الأستاذ السباعي من نفس الكيل الذي تعود أن يكيل للناس به.

كذلك فقد استغاث بالأستاذ الزيات ليرد الغمراوي عنه.

ويبدو أن ذاكرته الضعيفة أوهمته أحياناً أنه انتصر على خصمه مرة قبل ذلك فتراه يردد ويذيع ويفخر أنه (دوخ) فلاناً وأن فلاناً لن يصبر على العراك معه أكثر من جولة يخر بعدها صريعاً، وأنه سيلوذ بجدران البيت خوفاً من قلمه بينما يتضح بعد ذلك أنه انهزم أمام ذلك (الفلان) مرات. كذلك فقد كانت

Twitter: @abdulllah1994

طيبة قلبه تسول له في أكثر معاركه أن يجنح إلى الشعراء وكأنه يقول لهم كونوا معي على هذا الخصم حتى نذيقه العذاب ونطهر حقل الأدب من حقده وشره أو هو كما يقول الزيات عنه: «سليم الصدر صريح القلب، رياضي الروح لا يتحرج أن يطلب إلى صديقه أن ينصره ظالماً أو مظلوماً»، ويجرنا ذلك الحديث عن الموازنة بين معاركه في مطلع حياته ومعاركه في نهايتها فعندما نتتبع المسرح الزمني الذي دارت فيه معارك زكي مبارك ندرك ذلك التناقض الواضح والفرق الشاسع والبون البعيد بين معاركه الأولى التي بدأت شرارتها الأولى تشتعل على أرض الجامعة المصرية القديمة والتي اشتهرت بالعناد والصلابة والموقف الجاد الواثق بجانب بعض آرائه في قوة حجة واشتداد عارضة وسلاسة بيان[1] وبين معاركه في الفترة الأخيرة والتي اتسمت بما اتسم به أدبه كله في هذه الفترة من تحلل وتفسخ، وتراجع وتردد ومحاولة إرسال الآراء الفجة دون دراسة أو مراجعة فهو يكتب عفو الخاطر، معتمداً على مخزون الذاكرة مما جعل هذه الآراء ألعوبة في يد النقاد ودليلاً على انتهاء الرجل من الوجهة الأدبية والنفسية.

كذلك فقد كان مما أصيب به إبان هذه الفترة القاسية من حياته، التردد فهو يقدم ثم يحجم، يهدد ويرعد ويبرق ثم يستعطف ويسترحم ويولول ويبكي ويخرج إلى الناس شاكياً الزمن وغدر الأصدقاء وهذا إن دل على شيء كما علل الأستاذ دريني خشبة في «الرسالة» فإنما يدل على شيء يشبه الإشفاق أو يشبه الخوف أو يشبه حالة من الإشفاق والخوف فلقد نادى زكي مبارك مرة بأعلى صوته (الهتلري) قائلاً: أنا أكتب منك يا عقاد، وأنا أشعر منك يا عقاد.

ومؤلفاتي لا تسمو إليها مؤلفاتك ثم لم يلبث أن ختم صيحته بكلمات هي إلى الملاينة والاسترضاء أقرب منها إلى ما هو دون الملاينة والاسترضاء ــ ثم عاد في كلمة أخرى فسأل القراء ألا يوقعوا بينه وبين الأستاذ العقاد ليتفرجوا هم!!.

---

(١) تنظر معاركه عن القومية العربية والنزعة اليونانية، والأدب الجاهلي في مواضعها من هذا البحث.

Twitter: @abdulllah1994

ومن ذلك الضرب ما مني به في عراكه الأخير مع الأستاذ الغمراوي ودريني خشبة الأول حول النثر الفني والثاني حول وحدة الوجود أحد مباحث التصوف الإسلامي فلقد أذاقه الغمراوي ثمالة الكأس إن كان قد بقي في الكأس ثمالة ــ مما جعله يفر من أمامه هارباً، ولو شاء، لصاوله وجادله بل إنه اكتفى بإنذاره في مقالين يتيمين نشرهما أثناء المعركة.

كذلك فقد أسكته دريني خشبة سكوتاً مراً بعد أن أغراه بالرصافي الذي تناول كتابين هما عمد الأساس في بنائه الأدبي «النثر الفني» و«التصوف الإسلامي» فهدمهما في رسائله«تعليقات الرصافي» ــ لقد كال له الفرسان الثلاثة الرصافي وخشبة والغمراوي عام ١٩٤٤م من الكيل الساخن ما شوى جلده وثلم السيف في يده.

ولست أدري حتى الآن تعليلاً شافياً يجعل الدكتور مبارك يتخلى عن الدفاع عن دعامتيه «النثر الفني، والتصوف الإسلامي». يبدو أنها النكسة المريعة التي أصابته في خلال الأربعينيات والتي فصلنا مجال القول فيها في غير هذا الموطن.

لهذه الأسباب السابقة لن نستطيع الزعم بأنه كان متميزاً في معاركه وأنه كان يصدر عن هدف محدد وغاية واضحة.

كلا ولقد حان الحين كي أفصح عما أخفيته وراء وصفي له بأنه كان لا يصدر عن طبع أصيل في معاركه وأنه لم يكن معاركاً ممتازاً كما كان غيره.

أبدأ قبلاً فأزيل الشك الذي قد يعلق بالأذهان من أني أريد الزعم أنه كان مجبراً ومكرهاً على خوض بعض معاركه أو على شب نار العداوة بينه وبين الناس ــ وأن ذلك كان يخالف طبعه الصفو، ما أردت هذا ولا عنيته. وإنما أردت أن أقول: إن الرجل في معاركه لم يكن يحدد منهاجاً واضحاً يريد إبلاغه إلى الناس من وراء حملاته ولو فعل لكان ذلك خيراً له وللأدب ولعده تاريخ الأدب بين الرواد الذين استكشفوا الطريق بقيمهم قبل بثها ومهدوا التربة

Twitter: @abdulllah1994

لفروضهم قبل غرسها. . ومبارك رحمه الله لم يكن من هذا النوع الذي أريد ــ وإنما هكذا كان الرافعي وكان العقاد وسنوضح فيما بعد ــ فهو تارة ــ أعني مبارك ــ يعنى بالرد على دعاة الشعوبية ثم لا يلبث أن يتركهم دون أن يوضح رأيه في القومية ثم هو تارة ينازع حول الثقافة اليونانية ثم يتركنا دون أن يوضح منهجه الذي يريد في إحياء الثقافة الإسلامية العربية.

هو تارة ينافح أحمد أمين حول الأدب الجاهلي ثم هو لا يترك في النهاية رأياً واضحاً أو هدفاً محدداً يمكن أن نعتمد عليهما عند نقاش قضية الأدب الجاهلي بل إنه يمضي في خصومته على غير هدى ولو حاول معاركه أو حاول أحد القراء تنبيهه إلى أنه خرج عن دائرة النقاش لصاح قائلاً في بهلوانية معروفة: أنا أول من قال وأنتم آخر من قلتم أنا أول من فعل كذا، أنا الشاعر أنا الكاتب وأنا الخطيب وأنا الأديب وأنا الباحث أنا كل شيء. أما أنتم معشر الأدباء والباحثين والقراء لا شيء. جعجعة لا طحين وراءها ــ لعل هذا كان هدفي الأوحد حينما اتهمته أنه كان في معاركه لا يصدر عن طبع أصيل والشيء الذي نستطيع أن نستخلصه من هذا الذي أسلفنا أنه لو كان يصدر فيما يصدر عن منهج واضح أو هدف محدد لاستطاع أن يسير في خط الانتصارات التي بدأها منذ مطلع حياته.

ولكن وا أسفاه لم يخطط لقلمه ولم يرسم لمعاركه «الخريطة» التي كان يجب أن ترسم وسيتضح هذا الرأي مزيد اتضاح حينما نعقد المقارنة بينه وبين زميليه في العراك: الرافعي والعقاد رحمهما الله، ورحم (المبارك).

والخلاصة أن مبارك كان في النثر كالديب في الشعر، وهو في الأدب كهتلر في الحرب، وهو في الأخلاق كامرىء القيس ولكن من غير سيف ولا جياد.

فقد استبدل (النبوت) السنتريسي بالسيف الرديني ومضى يقاتل الناس ــ كل الناس الذي يصادق منهم والذي يعادي إلاَّ من عصم الله وقليل ما هم.

Twitter: @abdulllah1994

ولقد كان قلمه في أخريات حياته كمنسأة سليمان التي ظلت دابة الأرض تحفر تحتها حتى تهاوى الصرح الضخم فسقط العملاق العظيم مع فارق بسيط هو أن دابة الأرض أكلت طرف المنسأة السليمانية أما الخمر فقد أكلت كل جوانب العقل الزكي والحيوية المعطاءة والأمل الدفوق.

□ □ □

Twitter: @abdullllah1994

موازنة بين فرسان المعارك الثلاثة
الرافعي والعقاد ومبارك

تمهيــــد:

فرسان النقد المتطرف ثلاثة العقاد، مبارك، الرافعي اتفقوا جميعاً في المشرب العام والنهج الواحد فسلقوا خصومهم بألسنة حداد وضربوا في معاركهم بمتعدد الأسلحة، بالكلمة الأدبية والحوار الشخصي، والهجاء المقذع ومعاودة الكر والفر كلما دعت الضرورة إلى معاودة السجال ـ ولعل مرد ذلك إلى العصامية التي اتفق فيها ثلاثتهم وساروا على دربها.

ولكنهم ـ برغم هذا الاتفاق ـ اختلفوا فيما وراء ذلك فتميز كل منهم بخصيصة لم تتوفر في زميليه الآخرين.. فالعقاد في معاركه يتميز بما تميز به في حياته كلها من شدة العاطفة ووقدة الشعور، وسرعة التطرف، وقوة الشكيمة، والمبالغة في العناد، وسخرية الكلمة، وحلاوة الفكاهة.. لم يستسلم يوماً على وفرة معاركه، وتعدد معارضاته ـ وهو على الجملة كما قال زكي مبارك فيه: يصادق بعنف ويعادي بعنف فأصدقاؤه ملائكة ولو كانوا شياطين وأعداؤه شياطين ولو كانوا ملائكة مقربين وهو مستعد لخوض النار مع أصدقائه إن أوجب الوفاء أن يشاطرهم عذاب الحريق.

أما أعداؤه فهو لهم بلاء وعناء. وهو يلقاهم في السر والعلانية بأقبح ما يكرهون ولعله لخص مذهبه في الحياة حينما قال غداة خرج من المعتقل عام ١٩٣٠م:

عداتي وصحبي لا اختلاف عليهما   سيعهدني كل كما كان يعهد

Twitter: @abdulllah1994

على أنه بعد ذلك كله يتفجر إذا اطمـأن ـ كما قال الحكيم ـ بأجمل عاطفة وأنبل إحساس ـ لقد تراجع في أخريات أيامه ـ مراعاة لجانب الحق ـ عن بعض آرائه في أمير الشعراء شوقي ـ رحم الله الجميع.

* * *

أما الرافعي؛ فقد تميز هو الآخر بقوة الحجة ومتابعة النضال، والغلو الشديد في نقد خصمه بحق أو بغير حق حتى أنه أخرج كتاباً خاصاً في هجاء العقاد أسماه «على السّفود» والتسمية وحدها تدل على أسلوبه المقذع الهجاء، ولعمري لهو أقذع ما كتب في الهجاء النثري على امتداد أدب العربية من يومه حتى اليوم وهو حينما يكتب في الخصومات لا يجد فرقاً بين أسلوبه فيه وأسلوبه في غيره ففي كل نفحة من نفسه، نبضة من قلبه، وومضة من وجدانه ـ والخلاصة أنه «متزمت» في معاركه الأدبية إلى أبعد حدود التزمت وعلى الجملة كان مسرفاً في إطلاق أحكامه عندما يجادل خصماً له.

ولكن الشيء الذي يجب أن يحمد لقلم الرافعي أنه انتهى كما بدأ لم يتبدل ولم يتغير فهو محدد الهدف، واضح الغاية يسخر جهده كله لخدمة الفكرة التي حددها ورسمها فهو ينافح عنها ويناضل دونها الآخرين، ولا ضير عنده أن يذهب في تأييد هذه الفكرة إلى أقصى حد يستطيع الوصول إليه ما دام مؤمناً بها أو بمعنى آخر كان يعمر مصباحه بالزيت ويمضي.. فالطريق مضاء والدرب ممهد.

ولقد كانت الفكرة التي يطوف بها الرافعي ويناضل من أجلها ويذود عن حماها ويعمل على ترسيخها هي ترسيخ الثقـافة الإسلامية، والحفاظ على التراث العربـي فهو من مدرسة المحافظين المتعصبين عن عقيدة، والمـدافعين عن مذهبهم في إيمان صادق عميق.

وكذلك كان العقاد يناضل الناس جميعاً دون فكرته التي كان يؤمن بها حتى أن الباحث يستطيع دون عسر أن يحدد الأهداف التي كان يقف العقاد بجوارها مناضلاً حتى استطاع فعلاً أن يصل من وراء حملاته ومعاركه إلى تحقيق

Twitter: @abdulllah1994

بعض النتائج الهامة في حقل النقد الأدبي عامة وفي مجال الدراسات التاريخية حول سير الأشخاص خاصة بما فتح آفاقاً بعيدة المدى سيظل هذا الجيل يذكرها له ــ ولكننا وا أسفاه ــ لا نستطيع أن نبرئه من بعض الذي تورط فيه كإصدار بعض الأحكام التي لم يكن يؤمن بها تمام الإيمان والتي كان يقف وراءها دون أن يحقق لنفسه الهدف الحقيقي من إثارة المعارك حولها. من ذلك أحكامه ومعاركه ضد شوقي والتي بينا آنفاً أنه عاد عن آرائه فيها في أخريات حياته.

كذلك فمما هو معروف أن العقاد العظيم الذي بدأ مجدداً ينافح ويعارك من أجل التجديد انتهى في أخريات حياته متعصباً ضد الجديد، بل ومعاركاً من أجل الأصالة ومحاولة استنقاذ الجديد من براثن التغريب والانحراف على أنه ظل منذ البداية وحتى النهاية مناضلاً صلباً ومعاركاً شريفاً وعنيفاً يخشاه كل من في الساحة الأدبية لا لسخريته أو تجنيه.. وإنما لقوة حجته ومتانة براهينه. ثم هو بعد ذلك كله صاحب اتجاه محدد إن لم نقل مدرسة ثابتة الأركان هي مدرسة الديوان.

أما مبارك: فيشترك مع الفارسين السابقين في بعض الخصائص ويفارقهما في البعض الآخر...

يشترك في الاعتصام بعرى الأصالة فهو يدافع ويقاتل دون حماية التراث العربي الإسلامي، وهو يهب كالإعصار المدمر في وجوه دعاة التغريب والانحراف ونستطيع أن نستأنس على ذلك بمعاركه مع طه حسين حول النزعة اليونانية ومستقبل الثقافة في مصر وحول القومية العربية والدعوة إلى التجزئة والتفتيت.

ومعركته مع أحمد أمين حول الأدب الجاهلي إلى آخر هذه المواقف الصلبة الشجاعة وقد ألمحنا منذ قليل أنه وقف في بعض هذه المعارك الكبرى موقفاً شريفاً حينما رفض التبعية الفكرية للغرب وهدم آراء كبار المستشرقين في عقر دارهم[١].

---

(١) ينظر في ذلك الفصل الخاص بمعركته حول النثر الفني في القرن الرابع الهجري ص ١٤١ وما بعدها.

Twitter: @abdulllah1994

ولكن ترى هل ظل على هذا الموقف الصلب في معاركه كلها أم أنه تخلى عنها في بعض المواقف خاضعاً للظروف التي فرضها الواقع والضغوط التي عاشها وخضع لبعضها؟

إن بعض الدارسين يعيب عليه وقوفه إلى جانب طه حسين في معركته من أجل «الشعر الجاهلي». . والحق أن هذا الموقف يحتاج إلى تفسير وكشف. . . إذ أن (زكي مبارك) وقف إلى جانب طه حسين الناقل عن المستشرقين أو المتصدي للقيم الدينية والتراثية.

على أن الذي يؤخذ على مبارك أنه لم يشترك مع زميليه (الرافعي والعقاد) في تكوين الخط المنهجي الواحد الذي لا يقبل العوج أو الانحراف وإنما هو تارة يصدر في دفاعه ومعاركه عن هدف نبيل وغاية طيبة. . . وتارة يصدر في معاركه عن لا شيء مطلقاً سوى تشقيق القضايا، وتجزئة المفاهيم، وإثارة الفقاقيع التي يقف بجانبها حيناً، ثم يتركها دون دفاع أحياناً كثيرة «انظر معركته مع دريني خشبة حول وحدة الوجود ومع الغمراوي حول إعجاز القرآن والنثر الفني في القرن الرابع الهجري». ثم هو دائماً كلف بالجديد من الرأي يرسله دون دراسة ثم يتركه دون حماية. . وكأنه يظن أو هكذا كانت تسول له نفسه أن هذا الرأي الجديد سيعرض نفسه على العالمين دون حاجة إلى برهان ما دام مرسله هو زكي مبارك (أبو المعاركين).

وفي ضوء هذا المفهوم نستطيع أن نقيم معاركه أو نتبين مدى أرباحه وخسائره ــ إن جاز هذا التعبير ــ فنرى أنه استطاع أن يحقق بعض الأهداف ــ كما أشرنا آنفاً ــ من خلال حملاته المهدفة والمرشدة مما جعل خساراته وأرباحه تتوالى. . من تلك الانتصارات:

(أ) حملته المشهورة على دعاة التجديد والتطرف من الذين دعوا إلى هدم الأزهر ومهاجمة الإسلام «ينظر في ذلك حملته على صديقه الدكتور أحمد زكي أبو شادي»[1].

---

(١) تنظر في ص ١٦٧ من هذا البحث.

Twitter: @abdulllah1994

(ب) حملته على دعاة التجزئة الذين قالوا بهدم القومية العربية ودعوا إلى فرعونية مصر وانسلاخها من العروبة «ينظر في ذلك معركته مع طه حسين حول القومية العربية»[1].

(ج) حملته على دعاة التغريب وعدم الأصالة «ينظر في ذلك معركته مع طه حسين حول النزعة اليونانية وغلبة تأثيرها الوثني على الثقافة والفكر»[2].

(د) معاركه التي خاضها من أجل الأدب القديم والحفاظ على التراث «ينظر في ذلك معركته مع أحمد أمين حول مقومات الأدب العربـي»[3].

(هـ) حملته على دعاة تهوين شأن اللغة العربية، وكيف أنها لغة القرآن الكريم «ينظر في ذلك معركته مع سلامة موسى»[4]، ولعل المكسب الضخم الذي استطاع أن يحققه مبارك على كثرة ما أصابه من ردود الفعل. . . هو أنه حمل معولاً ضخماً ممثلاً في قلمه وفكره يهدم نظرية طه حسين التي بنى عليها مجده الأدبـي حول الشعر الجاهلي وقد بسطنا ذلك في موضعه[5].

على أن الانتصارات لم تتوالَ كما توقع مبارك وإنما خسر كما ربح وتراجع بقدر ما تقدم وتلك هي طبيعة المعارك العنيف مما يجعلنا نشير إلى أن خسائره تعادل أرباحه تقريباً ولنضرب على ذلك بعض الأمثال:

(أ) كانت أول معركة يختارها هي تلك التي حاول أن يتعلم فيها الطيران على أكتاف أستاذه أحمد زكي باشا (شيخ العروبة) فأخفق بعد أن لقنه أستاذه درساً في فن السخرية ظل يزدرد آثاره سنين عدداً.

(ب) كذلك فإننا نستطيع الزعم أن «كتاب النثر الفني» كان سبباً في

(١) تنظر في ص ٩١ من هذا البحث.
(٢) تنظر في ص ٧٧ من هذا البحث.
(٣) تنظر بداية المعركة في ص ١٠١ من هذا البحث.
(٤) تنظر في ص ٩٧ من هذا البحث.
(٥) ينظر تفصيل ذلك في ص ٩١ من هذا البحث.

Twitter: @abdulllah1994

تحطيم مجده في دائرة المعارك مثلما كان سبباً في إرساء مجده الأدبي فلقد خسر معاركه كلها التي خاضها في سبيل الذود والدفاع عنه ــ وكانت خسارته الكبرى ممثلة في معركته مع الدكتور محمد أحمد الغمراوي[1].

(ج) كذلك فقد خسر معركة «وحدة الوجود» مع الرصافي من ناحية ومع دريني خشبة من ناحية أخرى.

(د) أما معاركه مع طه حسين فقد انقسمت إلى قسمين انتصر في أولهما «الموضوعي» ولم يحقق نصراً برغم طول المعركة على الجبهة الأخرى «الذاتية» لما تخللها من آراء شخصية وتفريعات غير مطلوبة[2].

لقد بدأ زكي مبارك حياته العلمية والأدبية باحثاً ــ ولكنه لأمر ما تحول إلى معارك فمات وهو يذكر على ألسنة الأدباء والنقاد بأنه أبرز المعاركين بينما توارث صفة الباحث من تاريخه وبالذات في أخريات أيامه حينما فرغ للمناوشات التي ظنها معارك وما هي من المعارك في شيء.

ولو أردنا أن نفرز مؤلفاته على وفرتها فسنجد أغلبها ينصب على جانب المعارك «دفاعاً وهجوماً» باستثناء رسائله العلمية التي اختفت منها إلى حد ما سمة العراك وحدة الجدل وآثار الخصومة بمعناها الصحيح وذلك مثل مؤلفاته عن:

الأخلاق عند الغزالي: «رسالة الدكتوراه الأولى من الجامعة المصرية القديمة»، والنثر الفني في القرن الرابع الهجري: «رسالة الدكتوراه الثانية من السربون»، والتصوف الإسلامي: «رسالة الدكتوراه الثالثة من الجامعة المصرية الحديثة».. كذلك كان من هذا اللون تحقيقاته التراثية لكتاب «الأم» و«زهر الآداب» ثم بحثه عن عبقرية الشريف الرضي وموازنته بين الشعراء.

---

(١) انظر معارك «النثر الفني» ص ١٥٧ من هذا البحث.

(٢) زعم زكي مبارك ــ في مقدمة ألحان الخلود ــ أن مؤلفاته بلغت خمسة وأربعين كتاباً منها اثنان باللغة الفرنسية.. كما زعم أنه نشر ألف مقالة في صحيفة «البلاغ» وحدها.

Twitter: @abdulllah1994

أما بقية مؤلفاته فهي أثر من آثار القلم المطواع والبيان الخصب، ثم هي بعد ذلك وقبل ذلك ترضية لشهوة الخصام التي تملكت نفسه، وسيطرت على قلمه «فالمدائح النبوية» فيه هجوم ودفاع وكأنه كان يفتح صفحات مؤلفاته مستعيناً بالشيطان أو كما يقول الدكتور طه حسين: لا يخلو إلى قلمه إلا وعلى رأسه (عفريت). وإنه ليحضرني في هذا الموقف تشبيه غريب كنت دائماً أتخيله كلما ذكرت (المبارك) ـ يهيأ لي أنه كان يدعو بعض من يريد الهجوم عليهم دعوة مفتوحة إلى صفحات كتابه وحينما يستدرجهم يغلق عليهم دفتي كتابه غلقاً محكماً ليذيقهم ألوان العذاب من الهجاء وبيانه الثر. والذي يفيض من على جوانبه سيل الفخر والثناء وتجريد الخصوم من صفاتهم ـ ولعل أبـرز مثل كما يقول هو كتابه «الأسمار والأحاديث» ذلك الذي حبس فيه ما يقرب من ثلاثين أديباً وكاتباً ومفكراً ليعطيهم (علقة) لم تنشر لهم في مكان آخر ولذا فقد صفى أغلبهم معه الحساب. ومن هنا نعود إلى القول بأنه (المبارك) وإن لم يفد الحقل الأدبـي كثيراً بمعاركه الذاتية التي امتدت على طول جبهات كثيرة. فقد تركت معاركه الحادة الهادفة والتي تميزت بالموضوعية والنقاش العلمي أثرها الواضح في سبيل تصحيح مفاهيم خاطئة والذود عن قيم كثيرة كما أسلفنا.

□ □ □

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdullllah1994

إجمال معاركه وميادينه

لم يترك زكي مبارك أديباً أو مفكراً من أدباء عصره تقريباً إلا و ناوشه أو خاصمه أو ساجله أو تعارك معه عراكاً صاخباً. ولو حاولنا كما حاول غيرنا ـ أن نلم من بطون الصحف والكتب أسماء هؤلاء الضحايا والفرسان لأعيانا ذلك لأننا سنضطر أن نعود إلى جرائد العراق ومجلاتها وهي ليست متيسرة لدينا فضلاً عن مجلات وجرائد مصر على طول الفترة من ١٩١٤ ـ ١٩٥٥م وكيف يتيسر لنا ذلك؟

نستطيع أن نذكر ممن أدرنا لهم معارك معه أو ممن دار لهم ذكر أثناء العراك:

طه حسين، وأحمد أمين، ولطفي جمعة، ولطفي السيد، والمازني، والعقاد، والرافعي، وأحمد زكي باشا (شيخ العروبة) والزيات، وتوفيق الحكيم، ونجيب الهلالي، وسلامة موسى، وعبدالمتعال الصعيدي، ومحمد أحمد الغمراوي، وطنطاوي جوهري، وعبدالله عفيفي، وعبدالعزيز البشري، وأحمد زكي أبو شادي، ومحمد فريد وجدي، والسباعي بيومي، وهيكل.. أما الذين لم يتيسر لنا لقاؤهم في معاركهم معه فهم أكثر مما ذكرنا. أما ميادين الصراع فقد تعددت هي الأخرى فلقد دارت معاركه على صفحات مجلات وجرائد ـ «البلاغ» و «الصباح»، و «المصري»، و «الأهرام»، و «الإثنين»، و «والأفكار»، و «كوكب الشرق»، و «السياسة»، و «الرسالة»، و «الجهاد»، و «المقطم»، هذا عدا بعض مجلات وجرائد العراق ولبنان وكثير من مؤلفاته فبين صفحاتها الفيض الزاخر من هذه المعارك.

Twitter: @abdulllah1994

وقد تعددت ألوان معاركه فمرة مع أديب ومرة مع مفكر، ومرة مع صاحب مجلة أو جريدة ومرة مع جملة من الأدباء «كما فعل مع اللبنانيين» ويتعدى الأمر الأشخاص بأعينهم فيقيم معركة مع وزارة المعارف فيهاجم وزراءها في عهده فضلاً عن كبار مفتشيها!!

بل إنه ليهاجم خطاب العرش وينقده فيقيم الوزارة (الماهرية)[1] ويقعدها ويحرج «الرسالة» وصاحبها.

وحينما يضيق بعراك الإنسان يذهب إلى عراك الجن[2]..!! وليته انتهى عند هذا فلم يذهب لعراك الأماكن والبلاد فيفضل قريته سنتريس على كل القرى المصرية ويفضل بغداد على كل ما في الأرض من بلاد وعواصم وهو في سبيل ذلك ينافح ويناطح وكأنه يريد أن يصرع من لا يعتقد رأيه أو يتأبى عليه.

ثم هو عجيب في رسم خططه فهو مرة يضرب خصمه مباشرة فيصيبه أو يخطئه وهو تارة يرميه من خلال هجومه على سواه، وهو أحياناً طويل النفس حتى تبلغ معركته شهوراً وسنين (أحمد أمين وطه حسين) وهو أحياناً يفضل الهجوم الخاطف فينسحب من الميدان بعد أن يحرز نصراً ضعيفاً مؤقتاً ولكنه في كل الأحيان لم يهاجم خصمه فجأة وهو غافل عنه ــ وإنما غالباً ما كان ينذره قبل أن يبدأ الهجوم حتى يأخذ حذره وليستعد وهذه ألوان من قذائفه:

١ ــ في محاورته مع السباعي بيومي حول معركة المبرد والمرصفي يقول مخاطباً السباعي:

ألا تراني أحاور أناساً لا أرتضيهم نساخاً لمقالاتي ومؤلفاتي وفي نفس المحاورة يعترف أنه رجل (شتيم) يقول «لا تشتمني يا سيد سباعي» فأنا رجل

---

(١) نسبة إلى علي ماهر باشا وكان ذلك في منتصف الأربعينيات من هذا القرن.

(٢) من ذلك أنه نشر مقالاً في الرسالة تخيل فيه أنه تقابل مع جنية وسامرها ليلة في الاسكندرية ثم تحدث عن محكمة أقامها الجن (انظر مقال معركة الجن العدد ٥٣٨ من «الرسالة».

Twitter: @abdulllah1994

(شتيم) وذلك عرف لا يخفى عليك ـ لا تشتمني فما أملك محاسبتك لو أردت الانتصاف لنفسي، وماذا أقول في تجريحك ولست بشاعر ولا كاتب، ولا مؤلف، ولا خطيب؟

٢ ـ وفي رده على أحمد زكي باشا الذي وصفه (بخم النوم باشا) يقول: ليس بيننا وبين حضرة العلامة زكي باشا حقد شخصي ولكنه مازحنا فمازحناه فإن عاد عدنا وفي الكأس بقية كلها علقم وصاب.

٣ ـ وفي معركة مع عبدالله عفيـفـي (أوراق منثورة) يقول «ومثل الأستاذ عبدالله عفيفي إذا دخل الأزهر وقفت لقدومه قواعد النحو صفا صفا فكانت المنصوبات في جانب ـ والمرفوعات في جانب ـ وقد تصدمه المجرورات من شماله إذا دخل من الباب الذي كان يسمى باب المزينين».

هذا ما ارتضيناه أن نمثل به أمَّا ما خفي فهو أعظم بلاء وأشد نكراً.

□ □ □

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdulllah1994

تعقيب

وبعد. . . مرة أخرى:

فسيظل تراث زكي مبارك ديناً يرهق عنق النقد الأدبـي في جيلنا من حيث إنه ظاهرة يجب بحثها وتحليلها والتعليل لها كظاهرة أدبية متميزة.

والأمر الذي لا يمكن الفرار من مواجهته أن (زكي مبارك) عاش مظلوماً من نفسه مرة، ومن النقاد والدارسين مرة، ومن الناس جميعاً مرات ومرات. . . فكان أقل ما رمي به في حياته ــ بل وحتى بعد موته ــ أن يقال عنه وهو صاحب القلم الثر، والعلم الغزير والبصيرة النافذة: إنه جاهل أو إنه ملحد أو إنه مختل العقل والفكر والشعور والوجدان!!

ولو قصدنا المبالغة لقلنا إنه مظلوم الأدب في القرن العشريـن ولعل مرد بعض التهم النكراء التي رمي بها زكي مبارك أن حياته تخضع لعدة عوامل ثابتة ومتغيرة كان من أبرزها أن حياته ذات جانبين:

□ **الجانب الأول**: ناصع السيرة. . . طيب السريرة يكاد يكون نموذجاً لما يجب أن يحتذيه الشباب في كل جيل فلقد استطاع ــ وهذا تكرار لما سبق ــ أن يكون صورة للصبر الدؤوب، والأمل المكافح والنضال الشجاع، مما جعله يحفر حظه في صخر الزمن بإزميل الصبر والأمل كما قال عنه صديقه الزيات.

□ **أما الجانب الآخر** في حياة الرجل فيكاد يكون مظلماً حالك الظلمة. . . حلكة تتمثل في بعض جوانب سلوكياته، وتتمثل كذلك في بعض جوانب أدبه الذي عرج به أحياناً على بعض الآراء فهدمها ثم قصر به العزم فلم يبن مكانها

Twitter: @abdulllah1994

جديداً. . . وإنما ترك أماكن كثيرة وثغرات متعددة مما أغار عليه دون أن يبني مكانها جديداً فهو يهاجم أحمد أمين مثلاً حول نظريته وإذا شئنا الدقة في التعبير لقلنا حول رأيه في الأدب العربي القديم فيهدم ما قال الرجل. . . ولكنه لم يتمكن من أن يؤصل رأياً ثابتاً ينسب إليه مثلما نسبت بعض الآراء النقدية إلى العقاد مثلاً.

لقد ترك مكان الهدم ـ من أثر معاركه المتعددة ـ مشوهاً قلقاً مما جعل طائفة من أبناء جيله يجردون سيوفهم وأقلامهم لقتاله وقد أمكنهم ضعفه أو عدم مبالاة منه مع أنه كان طاقة علمية وأدبية هائلة: أن زكي مبارك بجانبيه المعتم والمشرق يعد مثالاً للنجاح الخافق أو الإخفاق بعد النجاح أو لنقل المشروع الذي لم يكتمل.

لقد عاش شريفاً لم يبع قلمه لحكومة، ولم يسخر آراءه لسلطان أو جاه فهو وطني صميم، قلبه وهواه لوطنه، وعقله وفكره لوطنه، وقلمه أيضاً لا يكاد يشرك به شيئاً. كما يقول بعض الدارسين[١]:

«وإذا كانت هناك أشياء كثيرة أو قليلة، تغيرت في أديبنا الكبير (يقصد زكي مبارك) على مر السنين، فإن حسه الوطني، لم يلحقه أي تعديل، بل ظل على حيويته دائماً، حتى في أحلك الظروف، ولا ينسى التاريخ الأدبي لزكي مبارك دعوته أثناء الحرب العالمية الثانية، ومصر تتعرض لخطر الصراع بين المحور والحلفاء إلى إنشاء «الكتيبة الأدبية» التي تعتمد على المثقفين المتعلمين.

وتكون مهمتها تقوية الروح القومية وحراسة العزيمة الوطنية وإذا أردنا أن ننظر مرة أخرى نحو زكي مبارك من حيث علاقته بالمعارك الأدبية التي هي موضوع البحث فسنراه يتسم بعنف الهجوم ـ مما أشرنا إليه مراراً خلال هذه الدراسة ولأن نقده كان عنيفاً قاسياً فقد توارت جوانب الإضاءة والإنصاف التي كانت تنبعث من قلمه بين حين وحين. . . يقول الدارسون: لما كانت الكلمة

(١) من بحث مخطوط للأستاذ عـلاءالدين وحيد عنوانه (زكي مبارك) ومسؤولية صاحب القلم.

Twitter: @abdulllah1994

العنيفة هي الأكبر حجماً في معارك مبارك، فقد بدت كلمة الإنصاف كالمتوارية! وكان زكي مبارك يعرف عن نفسه هذا الخلق ـ فيعمل على تعديله بلا فائدة، «وأقول بعبارة صريحة إني غير راضٍ عن نفسي لأن جوانب الهجوم لها الحظ الأوفر من أدبي، وذلك باب من الشجاعة بالتأكيد وهو يعرضني لكثير من ألوان المكاره والمتاعب، ولكن هناك شجاعة أعظم من هذه الشجاعة وهي التي تنبعث من القدرة على كلمة الإنصاف والتأييد في المواطن التي يحتاج فيها من تعاهدهم إلى الجهر بكلمة الإنصاف والتأييد»[1].

وعلى الرغم من هذه الواقعية التي كان يفهمها مبارك عن نفسه وعن الظروف الأدبية والنفسية والاجتماعية المحيطة به فقد كانت له نبوات غريبة تعود بنا إلى مناقشة الجانبين المتناقضين اللذين ألمحنا إليهما منذ قليل... وذلك مما يجعل الأمر يختلط على الباحث ويتسبب في اعتساف الأحكام الجائرة ضد مبارك وأدبه فهو أحياناً في مجلس الشيخ الطماوي هناك في «سنتريس». مريداً يحمل (الإبريق) ويردد الأناشيد ويبتهل في ضراعة إلى الله معشوقه الأول والأخير كما يعبر الصوفيون.

وأحياناً هو عاص لربه يجهر بمعاقرته للكأس ومناوىء للناس يعلن استهتاره ببعض القيم الاجتماعية... وأحياناً هو ابن الريف الطيب الصريح العنيد الشجاع... وأحياناً هو ربيب باريس الكيس اللبق الفطن والذي يحرص على أن يحشر في أحاديثه بعض التعابير الفرنسية وكأنه يدلل بها على تحضره وتأنقه ورقة سلوكه وأحياناً هو صاحب ليلى المريضة في العراق... وقتيل ليلى المتأبية في الزمالك، وصريع ليلى الجميلة في حلوان... وفي الوقت نفسه فهو في عراك مشتعل من أجل إرساء قواعد القومية والعروبة والدين والتقاليد والأخلاق.

ثم هو أحياناً تغلب عليه النزعة الوجدانية فيخلط بين المنهج العلمي والثرثرة العاطفية، وأحياناً يجنح إلى الناحية العلمية المتحررة فينسى العواطف والوجدانيات.

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق.

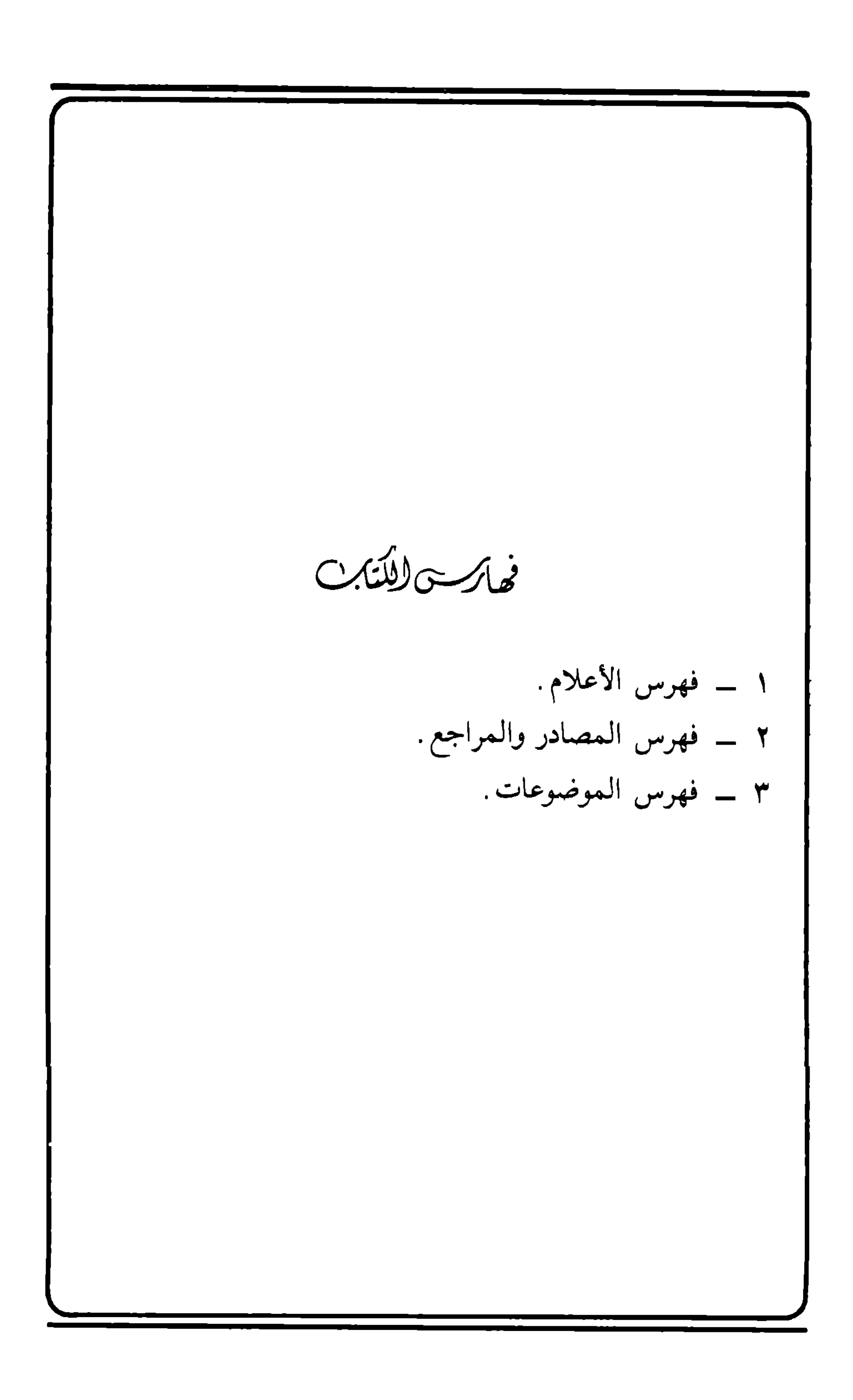
Twitter: @abdulllah1994

ثم هو في كتاباته الأخيرة تسيطر عليه... ــ وقتاً ما ــ روح الأمل المتوثب والعزيمة الطموح والفرح الطاغي بينما يلون الحزن العميق والألم الدفين، واليأس المر، والآهات الحارة مساحات غير قليلة من حياته ووقته. وأخيراً... فإني أرى ــ من خلال معايشتي الطويلة لآثار الرجل الذي يضرب بيد ويصالح بالأخرى ويخرج من منطقة ضوئية إلى منطقة غيوم وظلام أرى أن هذا الأديب المظلوم يحتاج إلى دراسة أدبية نفسية تخضع لدراسة تحليلية موضوعية من وجهة النظر السيكولوجية ــ في ضوء علم النفس الحديث ــ وذلك حتى تتضح صورة زكي مبارك على حقيقتها، عسى أن يتمكن أبناء هذا الجيل أن يزيحوا الافتراء والظلم للذين مني بهما هذا الرجل الذي يمثل ظاهرة فريدة ومتميزة في أدبنا المعاصر.

لقد درست معظم جوانب الرجل بعد أن رصدتها وحللتها أكثر من خمس رسائل أكاديمية ــ ومع ذلك لم يدرس هذا الجانب الحيوي مع أهميته وضرورته... فهل ينهض لذلك بعض الباحثين؟.

□ □ □

Twitter: @abdulllah1994



فهارس الكتاب

Twitter: @abdulllah1994


Twitter: @abdullah1994

فهرس الأعلام

Twitter: @abdulllah1994

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

Twitter: @abdulllah1994

المصادر والمراجع

أولا :- التفاسير والمعاجم وبعض الأمهات :

١- تفسير الجامع لأحكام القرآن — القرطبي
دار الشعب - القاهرة - (بدون تاريخ)

٢- تفسير القرآن العظيم — ابن كثير
دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة (بدون تاريخ)

٣- الأعلام — خير الدين الزركلي
الطبعة الثالثة - بيروت - (١٩٦٩)

٤- شرح شذور الذهب — ابن هشام الأنصاري
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - دار الفكر - بيروت - (١٩٤٨)

٥- مصادر الدراسات الأدبية — أسعد داغر
دار الآباء اليسوعيين - بيروت - (١٩٤٨)

٦- المصباح المنير — الفيومي
تحقيق الدكتور عبد العظيم الشناوي - دار المعارف - القاهرة (١٩٧٧)

٧- المعجم الوسيط — مجمع اللغة العربية
الطبعة الثانية - دار المعارف بمصر (١٩٧٢)

ثانيا :- الصحف والدوريات :

٨- أدبي — الدكتور أحمد زكي أبو شادي
مجلد عام (١٩٣٦)

Twitter: @abdulllah1994

٩ـ الأفكـــار عبـــد اللطيف بك الصـــوفاني
مجلدات الأعوام (١٩١٩ : ١٩٢٢)

١٠ـ البــلاغ الاسبــوعي عبـــد القـــادر حمزة
ديسمبر (١٩٢٦)

١١ـ البــلاغ اليــومــي عبـــد الـقـــادر حمزة
المجلدات للأعوام (١٩٣١ : ١٩٤٧) ثم أعداد متناثرة

١٢ـ الــثــقــافــة أحمـــد أمـــين
مجلد عام (١٩٣٩) ثم أعداد متناثرة

١٣ـ الــرســالــة أحمـــد حســن الــزيات
مجلدات الأعوام (١٩٣٤ : ١٩٤٤) وكذلك مجلد عام (١٩٥٢) ثم أعداد متناثرة

١٤ـ الـصــبـــاح مصـــطفـى الـقشـــاشي
مجلدات الأعوام (١٩٣٣ : ١٩٤٣)

١٥ـ كوكـــب الشرق أحمـــد حافظ عوض
مجلد عام (١٩٢٢)

١٦ـ المـقـــطـم خليل ثابـــت
مجلد عام (١٩٣٣) ثم أعداد متناثرة.

١٧ـ المـنـــار محمـــد رشـــيد رضـــا
مجلد عام (١٩٢٦) ثم أعداد متناثرة

١٨ـ الهـــلال أمـــيل وشـــكـــري زيدان
مجلدات الأعوام (١٩٣٣ ـ ١٩٣٩)

ثالثا: ـ الدراسات والبحوث والمؤلفات:

١٩ـ اتجـــاهـــات الأدب العـــربي في السنـين المـائـة الأخيـرة محمـود تيمـور
المطبعة النموذجية بالحلمية ـ القاهرة (١٩٧٠)

٢٠ـ أحمـــد حسن الــزيات ومجلة الــرســالــة علي محمـد الفقي
سلسلة إقرأ ـ العدد ٣٦٧ ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة (١٩٨١)

Twitter: @abdulllah1994

٢١ـ أحمد شوقي — الدكتور زكي مبارك (إعداد كريمة زكي مبارك)
الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة (١٩٧٦)

٢٢ـ الأخلاق عند الغزالي — الدكتور زكي مبارك
(رسالة الدكتوراه ـ الطبعة الثانية ـ دار الشعب ـ القاهرة (١٩٧١)

٢٣ـ أدب المقالة الصحفية في مصر — الدكتور عبد اللطيف حمزة
الجزء الثاني ـ الطبعة الأولى ـ دار الفكر العربي (١٩٦٣)

٢٤ـ الأسمار والأحاديث — الدكتور زكي مبارك
مطبعة الاعتماد ـ القاهرة (١٩٣٩)

٢٥ـ أضواء على الأدب العربي المعاصر — أنور الجندي
دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة (١٩٦٩)

٢٦ـ أفكار الكبار — فتحي رضوان
هيئة الكتاب ـ القاهرة (١٩٧٨)

٢٧ـ البدائع — الدكتور زكي مبارك
طبعة ثانية ـ المطبعة المحمودية بالأزهر ـ القاهرة (١٩٣٦)

٢٨ـ التصوف الاسلامي — الدكتور زكي مبارك
دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة (١٩٥٤)

٢٩ـ تطور الأدب الحديث في مصر — الدكتور أحمد هيكل
هيئة الكتاب ـ القاهرة (١٩٨٠)

٣٠ـ حافظ ابراهيم — الدكتور زكي مبارك
الطبعة الأولى ـ منشورات الرفاعي ـ الرياض (١٩٨٣)

٣١ـ حب ابن ابي ربيعة وشعره — الدكتور زكي مبارك
المكتبة التجارية ـ القاهرة (١٩٢٨)

٣٢ـ حديث الاربعاء — الدكتور طه حسين
الجزء الثالث ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة (١٩٢٤)

Twitter: @abdulllah1994

٣٣- الحديث ذو شجون — الدكتور زكي مبارك
هيئة الكتاب القاهرة (١٩٨٠)

٣٤- دراسات أدبية — الدكتور محمد رجب البيومي
مطبعة السعادة - القاهرة (١٩٨٢)

٣٥- دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه — الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي
دار الطباعة المحمدية بالأزهر - القاهرة (١٩٧٤)

٣٦- ديوان ألحان الخلود — الدكتور زكي مبارك
المكتبة التجارية - القاهرة (١٩٤٧)

٣٧- ذكريات باريس — الدكتور زكي مبارك
المطبعة الرحمانية بمصر - القاهرة (١٩٣١)

٣٨- رسائل مجنون سعاد — الدكتور زكي مبارك
كتاب الهلال - العدد ٣١٥ - دار الهلال القاهرة (١٩٧٧)

٣٩- رغبة الآمل من كتاب الكامل — سيد بن علي المرصفي
الطبعة الأولى - مطبعة النهضة بمصر - القاهرة (١٩٢٧)

٤٠- زكي مبارك بين رياض الأدب والفن — فاضل خلف
مكتبة الآداب - القاهرة (١٩٥٧)

٤١- زكي مبارك حياته وأدبه — عبد الصبور ضيف
(رسالة دكتوراه) من كلية اللغة العربية بالمنصورة - مصر (١٩٨٠)

٤٢- زكي مبارك دراسة تحليلية لحياته وأدبه — سلسلة مذاهب وشخصيات
العدد ٣٥ - الدار القومية للطباعة - (بدون تاريخ)

٤٣- زكي مبارك ناقدا — الدكتور زكي مبارك
دار الشعب - القاهرة (١٩٧٨)

٤٤- الزيات والرسالة — الدكتور محمد سيد محمد
الطبعةالأولى - منشورات الرفاعي - الرياض (١٩٨٣)

Twitter: @abdulllah1994

٤٥ـ صفحـات مجهـولـة من حياة زكي مبـارك — محمـد محمود رضـوان
كتاب الهلال ـ العدد ٢٨٦ ـ دار الهلال بمصر ـ القاهرة (١٩٧٤)

٤٦ـ عبقـرية الشريف الـرضي — الـدكتور زكي مبارك
طبعة ثانية ـ مطبعة أمين عبد الرحمن بمصر القاهرة (١٩٤٠)

٤٧ـ العشـاق الثـلاثـة — الـدكتـور زكي مبارك
سلسلة اقرأ ـ العدد ٢٦ ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة (١٩٤٤)

٤٨ـ عشرة أدبـاء يتحـدثـون — فؤاد دوارة
دار الهلال القاهرة ـ (١٩٦٥)

٤٩ـ قادة الفكـر — الـدكتـور طه حسـين
دار المعارف بمصر ـ القاهرة (١٩٦٤)

٥٠ـ قمم أدبية — الـدكتـورة نعـمات أحمـد فؤاد
عالم الكتب ـ القاهرة (١٩٦٦)

٥١ـ اللغـة والدين والتقاليد — الدكتور زكي مبارك
الطبعة الأولى ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ـ القاهرة (١٩٣٦)

٥٢ـ ليلى المـريضـة في العـراق — الـدكتـور زكي مبـارك
(ثلاثة أجزاء) ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ـ القاهرة (١٩٣٩)

٥٣ـ مجلة الرسالة(١٩٣٣ ـ ١٩٥٣) — الدكتور محمد السيد محمد
بحث على الآلة الكاتبة (١٩٦٧)

٥٤ـ محمـد فريد وجـدي رائـد التـوفيق بين العلم والـدين — أنـور الجنـدي
هيئة الكتاب ـ القاهرة (١٩٧٤)

٥٥ـ المختـار — عبـد العـزيز البشري
الطبعة الرابعة ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة (١٩٧٠)

٥٦ـ مدامـع العشـاق — الـدكتـور زكي مبـارك
المكتبة العصرية بصيدا ـ بيروت (١٩٢١)

Twitter: @abdulllah1994

٥٧ـ مستقبل الثقافة في مصر — الدكتور طه حسين
مطبعة المعارف ومكتبتها ـ بمصر ـ القاهرة (١٩٣٨)

٥٨ـ المعارك الأدبية في مصر منذ عام (١٩١٤ ـ ١٩٣٩) — أنور الجندي
مكتبة الانجلو المصرية (١٩٨٣)

٥٩ـ مع العقاد — الدكتور شوقي ضيف
سلسلة اقرأ ـ العدد ٢٥٩ ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة (١٩٦٤)

٦٠ـ ملامح المجتمع العراقي — الدكتور زكي مبارك
المكتبة التجارية ـ القاهرة (١٩٤٢)

٦١ـ من أعلام الفكر والأدب — أنور الجندي
الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة (١٩٦٤)

٦٢ـ الموازنة بين الشعراء — الدكتور زكي مبارك
دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة (١٩٣٦)

٦٣ـ النثر الفني في القرن الرابع الهجري — الدكتور زكي مبارك
جزءان ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة (١٩٥٦)

٦٤ـ نصوص نقدية — الدكتور محمد السعدي فرهود
المكتبة السعدية ـ القاهرة (١٩٧٥)

٦٥ـ وحي الرسالة — أحمد حسن الزيات
الجزء الرابع ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة الرسالة (١٩٤٨)

٦٦ـ وحي بغداد — الدكتور زكي مبارك
مطبعة الاستقامة ـ القاهرة (١٩٣٨)

رابعا :ـ مقابلات (مصادر حية) :

شذرات متفرقة من اللقاءات التي تمت بين الباحث وبين الأستاذ الكبير «أحمد حسن الزيات» ـ رحمه الله ـ عام ١٩٦٧ .

Twitter: @abdulllah1994

فهرس الموضوعات

Twitter: @abdulllah1994

□ □ □

Twitter: @abdulllah1994

عرفان وشكر

يطيب لي ــ والفضل يُحمد لذويه ــ أن أزجي الشكر ــ أصدق الشكر ــ لكوكبة من الأساتذة والأخوة والأصدقاء البررة؛ ممن كان لهم فضل المعاونة في النسخ والتصحيح والمراجعة والتنقيح وذلك جهد لا أجحده وإنما أفخر به وأعتز.

كما أني أستطيع أن أعدّ منهم ولا أعدّهم؛ من هؤلاء أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي، وفضيلة الشيخ محمد صلاح الدين الأزهري، والأستاذ محمود محمد عناني، وشقيقي الأستاذ إبراهيم البنا المحامي، والأستاذ إبراهيم الدسوقي، والأستاذ جلال الزنقراني، والأستاذ شكري محمد الدريني، والأستاذ ماهر أبو العينين، والأستاذ حمدان صالح.

أيضاً فإني أتقدم بخالص الشكر والتقدير للأخ الصديق الأستاذ عبدالعزيز التويجري صاحب «دار الكتاب السعودي» بالرياض، والسادة أصحاب «مؤسسة الرسالة ــ الشركة المتحدة للتوزيع» ببيروت.

أما الأستاذان الفاضلان محمد خلف‌الله أحمد وأحمد حسن الزيات، فلا أملك لهما ــ وقد تغمدهما الله برحمته ــ إلا أن أدعو الله لهما بالغفران والرضوان، وجزيل الأجر والثواب، وأن يجعلهما الله مع الصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

م. ج. البنا

الرياض في غرة رجب ١٤٠٦هـ

الموافق ١١ مارس ١٩٨٦م

Twitter: @abdulllah1994

منشورات

مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام

الرياض ص. ب. ٤٢٢٤٨

(١) من تاريخنا ـ محمد سعيد العامودي ـ الطبعة الثالثة.
(٢) الشعر في البلاد السعودية في الغابر والحاضر ـ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري ـ الطبعة الثانية.
(٣) الدين ضرورة حياة الإنسان ـ عبدالكريم الخطيب ـ الطبعة الأولى.
(٤) منهج الإسلام في تربية الجندي المسلم ـ الدكتور محمد إبراهيم نصر ـ الطبعة الأولى.
(٥) الصنوبري، شاعر الطبيعة في العصر العباسي ـ صالح عبدالله التويجري ـ الطبعة الأولى.
(٦) الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية ١١١٥هـ ـ ١٣٥١هـ؛ عبدالله محمد أبو داهش ـ الطبعة الأولى.
(٧) شعراء ينبع وبنو ضمرة ـ عبدالكريم محمود الخطيب ـ الطبعة الأولى.
(٨) موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعري ـ الدكتور زهدي صبري الخواجا ـ الطبعة الأولى.
(٩) حلم في نجد ـ الشيخ علي الطنطاوي ـ الطبعة الثانية.
(١٠) من نبع القرآن ـ الدكتور محمد رجب البيومي ـ الطبعة الأولى.
(١١) فاتنة الخورنق ـ الدكتور محمد رجب البيومي ـ الطبعة الأولى.
(١٢) وجوه من الريف ـ حجاب يحيى الحازمي ـ الطبعة الثالثة.
(١٣) في الأدب السعودي ـ الدكتور يوسف نوفل ـ الطبعة الأولى.
(١٤) مفكرون في السعودية ـ الدكتور يوسف نوفل ـ الطبعة الأولى.
(١٥) أجيال ضد الماركسية ـ علاءالدين وحيد ـ الطبعة الأولى.
(١٦) الاعتبار ـ أسامة بن منقذ ـ تحقيق الدكتور قاسم السامرائي ـ الطبعة الأولى.
(١٧) حصاد الدمع ـ شعر ـ الدكتور محمد رجب البيومي ـ الطبعة الثانية.
(١٨) شعر الدعوة الإسلامية في عصر النبوّة والخلفاء الراشدين ـ جمع وتحقيق عبدالله الحامد ـ الطبعة الثانية.
(١٩) سدّ باب الاجتهاد وما ترتب عليه ـ عبدالكريم الخطيب ـ الطبعة الأولى.
(٢٠) القصص القرآني ـ عبدالكريم الخطيب ـ الطبعة الأولى.

Twitter: @abdulllah1994

(٢١) فلسطين والمواقف العربية والدولية ــ إبراهيم المسلم ــ الطبعة الأولى.
(٢٢) القضية الفلسطينية ودور الملك عبدالعزيز آل سعود ــ إبراهيم المسلم ــ الطبعة الأولى.
(٢٣) العقيلات ــ إبراهيم المسلم ــ الطبعة الأولى.
(٢٤) أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبي ــ د. محمد رجب البيّومي ــ الطبعة الأولى.
(٢٥) الخيل والفروسية في الإسلام، وبه فصل خاص عن الخيل في المملكة العربية السعودية ــ د. محمد إبراهيم نصر ــ الطبعة الأولى.
(٢٦) تاريخ ينبع ــ عبدالكريم محمود الخطيب ــ الطبعة الأولى.
(٢٧) الحبل الأسود ــ قصة الدكتور محمد رجب البيّومي ــ الطبعة الأولى.
(٢٨) المعارك الأدبية بين زكي مبارك ومعاصريه ــ محمد جاد البنّا ــ الطبعة الأولى.
(٢٩) الفستان والرصاص ــ قصص إسلامي ــ محمد جاد البنّا ــ الطبعة الأولى.
(٣٠) قراءة في واقع الخريطة الإسلامية ــ محمد جاد البنّا ــ الطبعة الأولى.
(٣١) فتى العرب ــ قصة ــ الدكتور محمد رجب البيّومي ــ الطبعة الأولى.
(٣٢) سلسلة قصص أدبية ــ تراثنا العربي ــ إبراهيم المسلم ــ الطبعة الأولى.
(٣٣) الشعر في الجزيرة العربية خلال قرنين ــ الدكتور عبدالله الحامد ــ الطبعة الثانية.
(٣٤) في الشعر المعاصر في المملكة العربية السعودية ــ الدكتور عبدالله الحامد ــ الطبعة الثانية.
(٣٥) الشعر في ظلال دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ــ الدكتور عبدالله الحامد ــ الطبعة الثانية.
(٣٦) الشعر الإسلامي في صدر الإسلام ــ الدكتور عبدالله الحامد ــ الطبعة الثانية.
(٣٧) يوم المجد ــ قصص إسلامي ــ الدكتور رجب البيّومي ــ الطبعة الأولى.
(٣٨) شجرة الليمون ــ مجموعة قصصية ــ عبدالكريم الخطيب ــ الطبعة الأولى.
(٣٩) دجال القرية ــ قصة الدكتور محمد رجب البيومي ــ الطبعة الأولى.
(٤٠) رسالة التلاوة أو تلاوة القرآن الكريم ــ محمد الحسيني ــ الطبعة الأولى.

Twitter: @abdulllah1994

